الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد التاسع والخمسون . السنة الخامسة . ديسمبر ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 59 - December 2003



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة الخامسة
العدد التاسع والخمسون
ديسمبر ٢٠٠٣

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- إبراهيم العريس.. كاتب وناقد سينمائى من لبنان.
- إبراهيم فرغلى .. صحفى وروائى.
- آدم شاتس .. المحرر الأدبى لمجلة The Nation الأمريكية.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- تونى چوت .. أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة نيويورك.
- خالد الحروب .. باحث فلسطينى بكامبردج.
- خيرى شلبى .. روائى مصرى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- سوزان سونتاج .. أديبة أمريكية.
- فيرجينيا تيلى .. مدرس العلوم السياسية بكلية ويليام سميث بنيويورك.
- ليلى عنان .. أستاذ الحضارة - جامعة القاهرة.
- محمد أبو الغار .. أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- محمد السماك .. كاتب لبنانى.
- محمود عبد الفضيل .. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- نبيل على .. خبير استراتيجيات المعلومات.
- ياسمين الشاذلى .. باحثة مصرية فى جامعة جونز هوبكنز الأمريكية.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - محمد حاكم - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat@alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.

Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

" نون "

الديمقراطية بين التحدى الأمريكى والمراوغة العربية

سلامة أحمد سلامة

■■ لماذا يتغير العالم ويتطور من حولنا ولا نتغير؟ وهل بات محتماً على العالم العربى أن يبحث عن الظروف المحركة للتقدم والتطور من خارجه، أم أن لديه فى داخله من الطاقات والقدرات ما يمكنه من التفاعل مع التحديات التى تواجهه لكى يحقق القفزة المطلوبة لعبور الهوة التى تفصله عن العالم؟

هذه الأسئلة تتجدد بصيغ مختلفة على ألسنة النخب الثقافية والسياسية فى الأمة العربية. فلا تسمع لها غير إجابات متفرقة متضاربة: تشخص الوضع ولا تقدم الحل. تعبر عن الضيق بالواقع القائم ولكنها لا تتحول إلى سلوك عملى يطرح الجديد.. تحلق فى سماء الأوضاع العربية المتردية لبعض الوقت، فتعلو أصوات الجدال والسجال حولها من كافة الاتجاهات والأحزاب، ثم سرعان ما تخمد وتهدأ دون أن تتمخض عن نتائج ملموسة محسوسة، تسهم فى تغيير الواقع وتجديده ولو بالاقتراب من الهدف خطوة واحدة، ثم لا تلبث بعد فترة من الوقت تطول أو تقصر، وبفعل أسباب وضغوط خارجية تتراوح بين التحدى والتذكير، وبين الإملاء والتحذير، أن تشتعل فيها جذوة الاهتمام والقلق من جديد.

يقف العالم العربى فى خضم بحر هائج من المتغيرات والمفارقات، تستدعى سرعة الحركة. وقبل كل شىء سرعة العثور على جواب إزاء هذه التحديات. يفرض هذه السرعة، التى ما عاد يفلح معها التلكؤ والتردد والتباطؤ، ذلك الاجتياح الأمريكى الذى يطرح تحدياته واحداً تلو الآخر على العالم كله، وعلى دول العالم الثالث بصفة عامة، وعلى الأمة العربية بصفة خاصة.. تحديات عسكرية وسياسية وثقافية. بل هى ثقافية قبل أن تكون عسكرية أو سياسية. وتقع على كاهل النخب مسئولية استنباط الحلول والتوفيق بين أشياء تبدو أشبه بالمستحيلات، ينهض بها ذوو الرؤية والخيال، من أبناء جيل جديد لم تلوثه أخطاء الماضى وانحرافاته، ولم تكبل عقله أحكام مسبقة، أو أيديولوجيات مُحبَطَة، أو تجارب مجهضة.

وهذا ما فعلته دول الكتلة الشيوعية فى أوروبا الشرقية، التى خضعت ما يقرب من نصف قرن لنفوذ موسكو فى ظل أيديولوجية شمولية، تدين لسيطرة حزب واحد وزعيم واحد يحركه الكرملين كما تتحرك خيوط العرائس، وتساق الشعوب كالقطعان المغلوبة على أمرها. وما إن سقط الحكم الشيوعى وتبدد الفكر الشمولى، بفعل ظروف خارجية بعد سقوط حائط برلين، حتى بدأت عملية التحول الكبرى فى مسيرة هذه الشعوب نحو الديمقراطية والتعددية، على أيدى قوى سياسية من داخلها طامحة إلى التغيير. وفى غضون عشر سنوات أو أكثر قليلاً تغير وجه الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية لهذه الشعوب. ودخلت طوراً جديداً فى تاريخها كجزء من أوروبا الموحدة.. ذهب الحرس القديم وأزيلت قشرة الشيوعية التى كانت قد بدأت تتحطم ليحل مكانها جيل جديد، تحمل عبء التغيير.

منذ الانقلاب السريع الذى أحدثته أمريكا فى العناصر التى تحكم النظام العالمى القائم، لم تفتأ المحاولات المتكررة تتوالى لإحداث تغييرات جذرية فى النظام العربى. ولعل الغرب لم يأبه كثيراً قبل أحداث سبتمبر التى وقعت فى واشنطن ونيويورك، لطبيعة الأوضاع السياسية السائدة فى العالم العربى.. إلا فيما يتعلق ببعض جوانب الخلاف والمواجهة بين الإسلام والغرب وبين العرب وإسرائيل، بسبب تباين بعض المنطلقات الحضارية والتاريخية، فى إطار فكر استشراقى أملته طبيعة الاستعمار الغربى لأقطار إسلامية شاسعة إثر سقوط الإمبراطورية العثمانية. وقد استغل الغرب فكرة التناقض بين الإسلام والشيوعية لتعبئة الدول الإسلامية فى محاصرة الأيديولوجية الشيوعية والحيلولة دون انتشارها. وكانت آخر المعارك التى استغلت فيها أمريكا الوازع الدينى لدى الشعوب الإسلامية، هى تلك التى انتهت بخروج القوات السوفيتية من أفغانستان، ولم يكن ذلك على يد قوة أخرى غير تنظيم القاعدة وطالبان، بفضل التسليح الكثيف والمساعدات المالية الضخمة التى تدفقت على تنظيمات المجاهدين الأفغان من الولايات المتحدة وباكستان والسعودية وعدد من الدول العربية، وأنزلت خسائر فادحة بالقوات السوفيتية، فى وقت كانت الكتلة السوفيتية تتعرض فيه لضغوط خارجية وانشقاقات داخلية تنذر بانهيارها.

ولا يمكن فصل ما حدث فى أفغانستان آنذاك عما كان يحدث من مواجهة بين العراق وإيران، ثم ما تلاه من غزو عراقى للكويت. حيث هيأت

لم تكن قضية الديمقراطية فى المنطقة تثير اهتمام السياسة الأمريكية بأى حال. بل سعت على العكس من ذلك إلى الحفاظ على النظم القائمة وحمايتها. وانتهى الأمر بعد حرب الخليج الثانية إلى وجود عسكرى أمريكى ثابت يحمل كل مؤشرات البقاء لأمد طويل

هذه الصراعات الفرصة للتدخل العسكرى الأمريكى المكشوف فى المنطقة، بعد أن كان تدخلاً حذرًا محدودًا وبحسب الظروف.. ولم تكن قضية الديمقراطية فى المنطقة تثير اهتمام السياسة الأمريكية بأى حال، بل سعت على العكس من ذلك إلى الحفاظ على النظم القائمة وحمايتها. وانتهى الأمر بعد حرب الخليج الثانية إلى وجود عسكرى أمريكى ثابت يحمل كل مؤشرات البقاء لأمد طويل، لم تعد تبدو له فى الأفق نهاية قريبة بعد احتلال العراق، بل بدا وكأن الهدف الأساسى منه هو احتواء الدول المارقة، وقمع الحركات الراديكالية المناوئة ضمانًا لتدفق النفط وحماية منابعه.

بدرجة ما، فإن النمو الهائل الذى طرأ على الولايات المتحدة الأمريكية، بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتى، وجعل منها أكبر وأقوى دولة فى العالم عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا، أقنعها بأن تنتزع لنفسها الحق فى إعادة تشكيل المناطق التى تتركز فيها مصالحها وعلى رأسها منطقة الشرق الأوسط. يغريها على تحقيق هذا الهدف، حالة الفراغ السياسى، والتخلف الاقتصادى والوهن الاجتماعى، وانتشار الجماعات والقوى المتطرفة المناوئة للنظم الحاكمة فى الدول العربية، وقبل كل شىء حماية ذلك الجسم الغريب الذى زرعته الإمبريالية العالمية فى الشرق الأوسط ليكون نقطة تجمع للحركة الصهيونية فى إطار دولة إسرائيل.

ومن هنا فلا غرابة فى أن تنهمك مراكز الأبحاث وإدارات التخطيط الأمريكية فى وضع الخطط التى تراها ضرورية لإحداث تغيير فى الشرق الأوسط، عن اقتناع بأن قوى التطرف المعارضة لنظم الحكم العربية، يمكن أن تصب جام غضبها وإحباطها على أمريكا باعتبارها مسئولة عن وجود إسرائيل فى المنطقة من ناحية وحامية هذه النظم والراعية لها من ناحية أخرى، وكانت أحداث سبتمبر ٢٠٠١ من خلال الهجوم الذى شنته جماعات إسلامية على المؤسسات الأمريكية الكبرى الدليل الناصع على ذلك فى رأيهم.

وتبدو الولايات المتحدة الآن على استعداد لفك الارتباط القديم بينها وبين النظم العربية الحاكمة التى تحملها واشنطن مسئولية هذه الهجمات والتى تعتبرها عائقًا دون تطوير نفسها والتأقلم مع الأوضاع العالمية التى تظن إدارة الرئيس بوش والدائرة المحيطة به من اليمين المحافظ بأنها مبعوثة إلهية لحمل رسالة الهداية إلى الديمقراطية وقيم الحرية والحياة الأمريكية وتستشهد فى ذلك بما أنجزته فى كل من اليابان وألمانيا اللتين تحولتا على يد القوة الأمريكية من النظام الديكتاتورى إلى الديمقراطية.. ولا ترى ما يحول دون تطبيق نفس التجربة على العراق بعد أن حررته من طغيان النظام الصدامى. وأصبحت جاهزة لتقدم نموذجًا يحتذى به للدول العربية المحرومة من الديمقراطية بعد أن تأكد لها أن النظم الديكتاتورية والثيوقراطية الحاكمة فى العالم العربى أسهمت فى نمو النزعات الراديكالية الإرهابية.

ومنذ اللحظة التى أعلنت فيها واشنطن انتهاء المعارك العسكرية فى حرب العراق فى أواخر أبريل، طرحت وبقوة فكرة تطبيق الديمقراطية فى الدول العربية المحرومة منها. وربطت هذه الخطة بمشروع شراكة اقتصادية وتجارية بالشرق الأوسط، جاءت بعض تفاصيلها فى مايو على لسان بوش ثم على لسان وزير خارجيته كولن باول.. وأخيرًا أعاد الرئيس الأمريكى فى خطاب له أمام «الصندوق القومى للديمقراطية» . واعتبره البعض خطابًا تاريخيًا فارقًا فى الاستراتيجية الأمريكية فى الشرق الأوسط. طرح رؤية متكاملة حيال دعم الحرية والديمقراطية فى الشرق الأوسط، وتحدث فيه بإسهاب عما يتصوره استحقاقًا لشعوب الشرق الأوسط التى بالكاد لامست وجه الديمقراطية العالمية. ثم أخذ يكيل المديح للإسلام وتقاليده باعتبارها لا تعادى الديمقراطية، بل تحمل فى طياتها قيمًا عظيمة تقوم على المحاسبة الفردية والأخلاقية، وأعطى تقييمًا متدرجًا لمعظم الدول العربية فى امتحان الديمقراطية تفاوتت درجاته. ولكنها لم تسمح لأى من هذه الدول أن تحصل على درجة الامتياز أو حتى درجة مقبول، بل تأكد له أنها جميعًا وبدون استثناء فى حاجة ماسة إلى «دروس خصوصية».. تمكنها من اللحاق بعصر الحرية الذى تحمل أمريكا على عاتقها مسئولية نشره وترويجه فى الشرق الأوسط.. وهى تتحمل أعباء هذه المسئولية «لأن الاستقرار لا يمكن أن يشترى على حساب الحرية؛ ولأن غياب الحرية فى رأى بوش سيجعل من الشرق الأوسط مكانًا يتسم بالتشنج ومشاعر الغضب والعنف الجاهزة للتصدير، ومع انتشار أسلحة الدمار الشامل التى يمكن أن تلحق بأمريكا وأصدقائها، فإن القبول بالوضع الراهن سيكون عملاً طائشًا، كما جاء فى الخطاب المذكور.

هذه هى المعادلة التى تطرحها أمريكا على الشعوب والنظم العربية، وتسعى إلى تسويقها بكل السبل الممكنة. وتنكر وجود أدنى صلة بينها وبين قضية السلام والصراع فى المنطقة بسبب القضية الفلسطينية أو الاحتلال العراقى. بل تعتبرها استراتيجية ضرورية للدفاع عن نفسها وعن أصدقائها ومصالحها فى الشرق الأوسط، حتى لا تتفجر موجات الإحباط من داخل دوله إلى خارجها، فتعبر البحار والمحيطات إلى قلب أوروبا

يبدو المشهد العربى
فى بعض الأحيان مذهولا
عن نفسه، يحاول أن يخوض معاركه
بنفس الأسلحة القديمة التى خاضها بها
ضد الاستعمار منذ قرنين
بلا تبديل أو تحوير
أو تجديد

وأمريكا كالوحش الهائج يدمر مظاهر الحضارة الغربية الأمريكية ويقض مضاجعها.

لم تجد هذه النظرية الأمريكية المتكاملة، والتى تؤيدها معظم الدول الأوروبية بتحفظات محدودة، ردًا مقنعًا حتى الآن أو تحركًا ذكيًا أو تفكيرًا عاقلاً يملك القدرة على مواجهة التحدى واستيعابه، أوامتصاصه وتمثله فى جسم الكيان العربى. ويبدو المشهد العربى فى بعض الأحيان مذهولاً عن نفسه، يحاول أن يخوض معاركه بنفس الأسلحة القديمة التى خاضها بها ضد الاستعمار منذ قرنين بلا تبديل أو تحوير أو تجديد.. فى الهجمة الاستعمارية الأولى كان شعار المعركة هو نشر الحضارة الغربية ضد ظلام التخلف الشرقى. وفى الهجمة الثانية أصبح الشعار هو الحرب ضد الإرهاب الذى يولده فهم دينى متطرف ونظم حكم فاسدة غير ديمقراطية.

ويملك الطرف الأقوى دائمًا القدرة على تزييف أسباب الصراع وأهدافه الحقيقية ولكننا فى اللحظة التى نلعب فيها دور الضحية دون محاولة للإصلاح، نقدم لأنفسنا مبررات الهزيمة الذاتية، ونقدم لخصومنا أسباب النيل منا بما يمكنهم من تحقيق أهدافهم.

ولعل المعضلة الحقيقية التى تواجه العالم العربى، هى الاقتناع العميق الذى يسود النخبة الحاكمة كما يتغلغل فى أعماق الشعوب، بزيف الادعاءات الأمريكية التى ترفض الاعتراف بحقيقة أهدافها من وراء حرب العراق. وهى فى مجملها لا تخرج عن هدفين.. الأول: إقامة قاعدة استراتيجية فى الشرق الأوسط تضمن لها السيطرة على النفط، وردع الجماعات المتطرفة المعادية للنفوذ الأمريكى. والثانى: حماية الوجود الإسرائيلى وضمان تفوقه الإقليمى الدائم على الوطن العربى. ومن ثم فإن دعاوى تحرير العراق من ديكتاتورية النظام الصدامى، ونشر الحرية والديمقراطية فى العالم العربى، لا تلقى قبولاً من أحد على جميع المستويات.

ولكن الأنظمة العربية تجد نفسها مع ذلك فى موقف حرج، محصورة بين شقى الرحى.. بين ضغوط أمريكية من فوق، ولا أحد يعرف ماذا تخبئه جعبة المحافظين الجدد فى واشنطن من حيل ومخططات، وبين ظروف التخلف السياسى والاجتماعى والاقتصادى . من تحت. والتى تخلق التربة الصالحة للتطرف والعنف، وتعرقل مسيرة التقدم، وتشوه الميراث الثقافى والحضارى وتحرفه عن مقاصده المشروعة وهى تجربة مرت بها مصر، وتنطبق على سائر الدول العربية بدرجة أو بأخرى.

من هنا تبدو قضية الإصلاح والتجديد فى العالم العربى قضية وجود يحسمها مبدأ البقاء للأصلح، بل هى فى أقل القليل قضية حياة أو موت، لا تحتمل التأجيل والتراخى والتردد. والثابت أنه إذا كان لأمريكا من فضل فى بناء الديمقراطية فى ألمانيا أو اليابان، فذلك لأن الهزيمة العسكرية التى ألحقتها بالشعبين كانت بمثابة بعث جديد لبناء الذات من نقطة الصفر. وليس مجرد سد للذرائع، وترميم للأنقاض، وترقيع لأوضاع مهترئة، وتعلل بأسباب واهية كما تفعل النظم العربية كلها بدون استثناء. والأمة العربية الآن فى نقطة لا تبعد كثيرًا عن الهزيمة، بل هى على وشك أن تقع تحت نير احتلال ثقافى وعسكرى واقتصادى. لم يكن العراق غير مقدماته.

لا مناص إذن من أن تأخذ الأنظمة العربية والإسلامية المبادرة بيدها، دون أدنى اعتبار لما تطرحه أمريكا من مشروعات لدعم الحرية والديمقراطية فى المنطقة. وهى معرضة إذا لم تبادر بنفسها إلى إصلاح سياسى يربط بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية. ويخلق الظروف المواتية لتحديث الفكر الدينى، وإعادة إنتاج واقع ثقافى متحرر من القيود.. لأن تصبح حقل التجارب لقوى خارجية، تفرض بالقوة العسكرية وبالغزو الاقتصادى والثقافى أوضاعا تساعد على قلقلة النظم وتفكيكها واختراقها.. وهو ما يحدث فى العراق الآن بطريقة علنية مجافية لكل الأعراف والقوانين الدولية. وتمتد آثاره أيضًا إلى الدول العربية المجاورة بدرجات متفاوتة.

لم تعد الأمور قابلة للطرح الثنائى البسيط: الديمقراطية أم الشورى؟ التنمية الاقتصادية أولاً والحرية ثانيًا؟ الإصلاح الاقتصادى أم الإصلاح السياسى؟ إلغاء الأوضاع والقوانين الاستثنائية أم الانتظار حتى يحل السلام؟ تحرير المرأة وإدماجها فى المجتمع أم وضعها وراء قضبان التقاليد البالية؟ إطلاق سراح جماعات المجتمع المدنى وحقوق الإنسان أم وضعها تحت رحمة أجهزة الأمن والرقابة؟

هذه خيارات مصيرية تحتاج إلى إجابات واضحة قاطعة. لا تجدى معها مراوغات النخب السياسية والنظم الحاكمة فى العالم العربى. وإذا كان الرئيس بوش قد أعطى لبعض هذه النظم درجات مقبولة فى ممارسات الحرية والديمقراطية، فالواقع العملى والمقارنة الموضوعية تؤكد أن البون مازال شاسعًا، وأن أوجه القصور أقوى من درجات التميز، وأن العقبات فى وجه الحرية والديمقراطية أكثر من حوافزها والإيمان بجدواها. فلم يعد يكفى لمقاومة ثقافة الاستبداد أن نعتمد على حلول جزئية أو معارضة ورقية، تليفزيونية أو إلكترونية يسهل تجاوزها بعد أن تؤدى وظيفتها أمام العالم، ولا على أحزاب صورية تلعب دور المعارضة دون أن يكون لها وزن فى الواقع السياسى، بينما يجرى تجاهل القوى الحقيقية. ولا أن تخدع الشعوب العربية نفسها عن الأخطار التى تواجهها، وتنكص عن دفع ثمن الحرية، ثم تستسلم لحاضر كئيب ومستقبل مظلم! ■

الأنظمة العربية تجد نفسها فى موقف حرج، محصورة بين شقى الرحى.. بين ضغوط أمريكية من فوق، ولا أحد يعرف ماذا تخبئه جعبة المحافظين الجدد، وبين ظروف التخلف السياسى والاجتماعى والاقتصادى . من تحت. والتى تخلق التربة الصالحة للتطرف والعنف

البديل: دولة واحدة..

توني جوت

■■ إن عملية السلام في الشرق الأوسط انتهت، وهي لم تمت، بل قتلت. لقد أضعف رئيس السلطة الفلسطينية موقف محمود عباس وقام رئيس وزراء إسرائيل بإذلاله. وينتظر خليفته أحمد قريع مصير مماثل. ومازالت إسرائيل تسخر من راعيها الأمريكي، وتبني مستوطنات غير شرعية في تحد سافر لـ خريطة الطريق.. وتحول رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى دمية تردد بشكل محزن أقوال زعماء إسرائيل: «إن الخطأ كله خطأ عرفات، والإسرائيليون أنفسهم ينتظرون في تجهم الفدائي التالي الذي سيفجر نفسه. والعرب الفلسطينيون، المسجونون داخل بانتوستانات متقلصة، يعيشون على صدقات الاتحاد الأوروبي. وفوق الساحة الفسيحة للهلال الخصيب التي تتناثر فيها جثث القتلى، يستطيع أرييل شارون وياسر عرفات وحفنة من الإرهابيين أن يدعوا النصر، وهم يفعلون ذلك. فهل وصلنا إلى نهاية الطريق؟ وما الذي يمكن عمله؟

هل تذكرون الشعار القديم لمنظمة التحرير الفلسطينية «دولة ديمقراطية لجميع الأديان والقوميات..»؟ وهل تذكرون اقتراح العقيد القذافي «إسراطين» الذي رفض الكثيرون مجرد الإنصات إليه؟ الفكرة «الفلسطينية أصلاً بحكم النشأة» أصبحت فجأة على مدى الأسابيع الماضية موضوعاً للحوار والجدل على الساحة «الفكرية» اليهودية. ففي مجلة The NewYork Review of Books الرصينة كتب توني جوت المفكر اليهودي البريطاني والذي يعمل أستاذاً للتار يخ في جامعة نيويورك مقالاً مهماً أثار ضجة وغضبا شديدين في إسرائيل والدوائر اليهودية في العالم.

ويطعن المقال الجريء في صميم الفكرة الصهيونية التي قامت عليها إسرائيل، ويؤكد أن الزمن تجاوزها منذ عشرات السنين.

وبعد أن يوضح كيف تؤدي سلوكيات «الدولة» الإسرائيلية إلى تنامي مشاعر اللاسامية والعداء لليهود في العالم كله (منذ أسبوعين فقط تم تفجير معبدين يهوديين في تركيا العلمانية) يؤكد المفكر اليهودي أن مصلحة اليهود «كيهود» تكمن في اختيار الحل «الوحيد» وهو قيام دولة ثنائية الهوية «يهودية/عربية» في فلسطين التاريخية.

بعد أيام فقط خرجت London Review of Books الرديفة البريطانية لتلك الأمريكية بمقال لفيرجينيا تلي يصب في الاتجاه ذاته، وتستشهد فيه بالمفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد. موضحة بالأرقام والبيانات كيف أن وضع المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية في الضفة وغزة لا يسمح «واقعياً» الآن إلا بالحل الوحيد: «الدولة الواحدة».

أهمية مقالي المجلتين المحترمتين أنهما يأتيان بعد شهور قليلة من المقال الشهير لرئيس الكنيست الإسرائيلي السابق «إبراهام بورج» الذي دعا فيه أصدقاء إسرائيل إلى إنقاذها من الهاوية التي يدفعها إليها حكامها!!

«وجهات نظر» تنشر المقالين، وتدعو إلى حوار حول الموضوع.

المحرر

في فجر القرن العشرين، وعند مغرب الإمبراطوريات الغازية، كانت شعوب أوروبا المستعبدة تحلم بتشكيل «الدولة الأمة» أوطاناً يعيش فيها البولنديون والتشيكيون والصرب والأرمن وغيرهم أحراراً، سادة لمصائرهم. وعندما انهارت إمبراطورية الهابسبورج وإمبراطورية رومانوف في أعقاب الحرب العالمية الأولى، اغتنم قادة هذه الشعوب الفرصة. وظهرت مجموعة من الدول الجديدة، وكان أول ما فعله هؤلاء القادة هو تأكيد حقوق الأغلبية التي يمثلونها وامتيازاتها الوطنية و«العرقية»، وحددوا تلك الأغلبيات باللغة أو الدين أو التاريخ أو بهذه العناصر جميعاً، وذلك على حساب الأقليات المحلية التي أضيرت، والتي فرض عليها وضع المواطنين من الدرجة الثانية: فأصبحوا غرباء دائمين داخل أوطانهم.

ولكن حركة وطنية واحدة، هي الصهيونية، تعرضت آمالها للإحباط.

وكان لابد أن ينتظر الحلم بوطن قومي لليهود في وسط الدولة العثمانية المتداعية حتى يتحقق تراجع بريطانيا الإمبريالية؛ وهو ما استلزم مرور ثلاثة عقود أخرى ونشوب حرب عالمية ثانية. ومن ثم، ففي سنة ١٩٤٨ أنشئت الدولة الأمة اليهودية في فلسطين العثمانية السابقة ولكن مؤسسي الدولة اليهودية كانوا متأثرين بنفس المفاهيم والمقولات التي نادى بها زملاؤهم في نهاية القرن التاسع عشر في وارسو أو الأوديسا أو بوخارست. وليس من الغريب أن التعريف العرقي الديني الذي وضعته إسرائيل لنفسها، وما يتضمنه من تمييز ضد «الأجانب» المحليين كان يحتوي على أشياء مشتركة مع ممارسات رومانيا ما بعد أسرة الهابسبورج، أكثر مما يكون أحد الطرفين على استعداد للتسليم به.

وبإيجاز فمشكلة إسرائيل ليست، كما يقال أحياناً، إنها «جزيرة» أوروبية في العالم العربي، بل في أنها جاءت بعد فوات الأوان. فقد استوردت مشروعاً من خصائص أواخر القرن التاسع عشر إلى عالم تحركت خطاه إلى الأمام، عالم الحقوق الفردية، والحدود المفتوحة، والقانون الدولي، ونفس فكرة «الدولة اليهودية» أي الدولة التي لليهود ويستبعد منها إلى الأبد المواطنون غير اليهود، تضرب جذورها في عصر سابق ومكان سابق. أن إسرائيل بإيجاز هي مفارقة تاريخية Anachronism.

غير أن إسرائيل في إحدى سماتها المهمة تختلف عن سليفاتها السابقة من الدويلات الصغيرة غير الآمنة التي ولدت من انهيار الامبراطوريات: وهي أنها دولة ديمقراطية. وهذا هو مصدر المعضلة الحالية. فبسبب احتلالها للأراضي التي استحوذت عليها في ١٩٦٧، تواجه إسرائيل اليوم ثلاثة اختيارات ليس بينها اختيار جذاب. فهي تستطيع أن تفكك المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة، وتعود إلى الحدود التي كانت عليها في ١٩٦٧ والتي يشكل اليهود فيها أغلبية واضحة. وبذلك تظل دولة يهودية وديمقراطية أيضاً. لديها مشكلة دستورية تتمثل في وجود طائفة من المواطنين العرب يعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية.

والوضع البديل هو أن تستمر إسرائيل في احتلال الضفة الغربية وغزة حيث يصبح الأهالي العرب، في إسرائيل الحالية، الأغلبية الديموجرافية خلال مدة خمس إلى ثماني سنوات. وفي هذه الحالة ستكون إسرائيل إما دولة يهودية (وبها أغلبية تتزايد باستمرار من غير اليهود المحرومين من الحقوق) أو أن تصبح دولة ديمقراطية. لكنها منطقياً لا تستطيع أن تجمع بين الصفتين.

والاحتمال الآخر (الثالث) هو أن تتمسك إسرائيل بالسيطرة على الأراضي المحتلة ولكن تتخلص من الأغلبية الساحقة من سكانها العرب: إما بالطرد القسري أو بحرمانهم من الأراضي ووسائل العيش، بحيث لا يعود أمامهم خيار غير الخروج إلى المنفى. وبهذه الطريقة تستطيع إسرائيل أن تظل يهودية وكذلك ديمقراطية من الناحية الشكلية: ولكن ذلك على حساب أن تصبح أول ديمقراطية عصرية تمارس التنظيف العرقي على نطاق واسع باعتباره مشروعاً للدولة، مما يجعل إسرائيل إلى الأبد دولة خارجة عن القانون، ومنبوذة دولياً.

وأي شخص يفترض أن هذا الخيار الثالث لا يمكن التفكير فيه بالنسبة لدولة يهودية، لم ينتبه إلى التوسع المستمر في المستوطنات والاستيلاء على الأراضي في الضفة الغربية خلال ربع القرن الماضي، أو لم يستمع إلى القادة العسكريين والسياسيين المنتمين إلى اليمين الإسرائيلي والذين يشغل بعضهم الآن مقاعد الحكومة. فحزب الليكود يشغل الآن المنطقة الوسطى في السياسة الإسرائيلية والجزء الرئيسي فيه هو حزب حيروت الذي أنشأه الراحل مناحم بيجين. وحزب حيروت هو وريث الصهيونيين المراجعين الذين ظهروا في فترة ما بين الحربين بقيادة فلاديمير جابوتنسكي، الذين أدى عدم اهتمامهم بالحقوق القانونية والحقوق في الأراضي إلى أن أطلق عليهم الصهيونيون ذوو الميول اليسارية وصف «الفاشيين». وعندما يسمع المرء ايهود أولمرت نائب رئيس الوزراء في إسرائيل يعلن متباهياً أن بلده لم يستبعد خيار اغتيال الرئيس

ترجمة: أسعد حليم

عن مجلة:
The NewYork Review of Books

من البحر إلى النهر!



أحمد اللباد

المنتخب للسلطة الفلسطينية، يغدو من الواضح أن هذا الوصف ينطبق على أولئك القادة بأكثر من اى وقت مضى. فالقتل السياسى هو ما يفعله الفاشيون.

إن الوضع فى إسرائيل ليس ميئوساً منه، ولكنه قريب من أن يكون مفقود الأمل، إن الفدائيين الذين يفجرون أنفسهم لن يسقطوا دولة إسرائيل، والفلسطينيون ليست لديهم أسلحة أخرى. ولا شك فى أن ثمة متطرفين عرباً لن يرتاح لهم بال حتى يتم إلقاء كل فرد من اليهود فى البحر المتوسط ولكنهم لا يمثلون خطراً استراتيجياً على إسرائيل، والعسكريون الإسرائيليون يعرفون ذلك. وما يخشاه العقلاء الإسرائيليون أكثر من حماس وكتائب الأقصى هو الظهور المستمر لأغلبية عربية فى «إسرائيل الكبرى» وفوق كل شىء تأكل الثقافة السياسية والروح المعنوية داخل مجتمعهم. وقد كتب السياسى العمالى البارز إبراهام بورج مؤخراً يقول: «بعد ألفى سنة من النضال من أجل البقاء على قيد الحياة، فإن واقع إسرائيل أنها دولة استعمارية، تقودها عصبة فاسدة تسخر من القانون والأخلاق المدنية وتستهزئ بهما. وما لم يتغير شىء، فإن إسرائيل خلال نصف عقد لن تكون يهودية ولا ديمقراطية.

وفى هذا الموضع تدخل إلى الصورة الولايات المتحدة. فقد كان سلوك إسرائيل كارثة للسياسة الخارجية الأمريكية. فمن خلال الدعم الأمريكى دأبت إسرائيل على التحدى السافر لقرارات الأمم المتحدة التى تطلب منها الانسحاب من الأراضى التى استولت عليها واحتلتها بالحرب. وإسرائيل هى الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط المعروف أنها تملك أسلحة حقيقية وفتاكة للتدمير الشامل. وبإغضاء الولايات المتحدة بصرها عن ذلك دمرت عملياً جهودها المحمومة لمنع وقوع هذه الأسلحة فى يد الدول الصغيرة الأخرى والتى يمكن أن تصبح لديها نزعات عسكرية. وتأييد واشنطن غير المشروط لإسرائيل بالرغم من اعتراضاتها (الصامتة) هو السبب الرئيسى فى أن معظم بقية دول العالم لم تعد تعتقد بأننا نتصرف بنية حسنة.

وقد أصبح الآن من المسلم به من جانب من يسمح لهم وضعهم بأن يعرفوا أن الأسباب التى دعت الولايات المتحدة لخوض الحرب فى العراق لم تكن بالضرورة هى الأسباب التى أعلنت وقت شن الحرب. وبالنسبة لكثيرين فى الإدارة الأمريكية الحالية، كان ثمة اعتبار استراتيجى رئيسى هو الحاجة إلى زعزعة الاستقرار فى الشرق الأوسط ثم إعادة تشكيله بطريقة يرونها مناسبة لإسرائيل. ومازالت هذه القصة مستمرة. فنحن الآن نثير صخباً وتهديدات موجهة إلى سوريا لأن المخابرات الإسرائيلية اكدت لنا أن أسلحة العراق قد نقلت إليها. وهو زعم ليس هناك دليل يؤيده من أى مصدر آخر. ولا شك فى أن سوريا تساند حزب الله والجهاد الإسلامى، وهما من الأعداء الألداء لإسرائيل ولكن يصعب القول بأنهما يمثلان خطراً دولياً. ومع ذلك فإن دمشق ظلت حتى الآن تزود الولايات المتحدة بمعلومات مهمة عن القاعدة.

فى ١٦ سبتمبر ٢٠٠٣ استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو لرفض قرار لمجلس الأمن الدولى يطلب من إسرائيل التخلى عن تهديدها بإبعاد ياسر عرفات. وحتى المسئولون الأمريكيون أنفسهم يسلمون، بعيداً عن الرسميات، بأن القرار كان منطقياً ومعقولاً، وأن التصريحات الهائجة المتزايدة من جانب إسرائيل الحالية، تؤكد مكانة عرفات فى العالم العربى، وتعتبر عائقاً أساسياً فى سبيل السلام. ومع ذلك فقد حالت الولايات المتحدة دون صدور القرار، لتزيد بذلك من ضعف

مصداقيتها كوسيط أمين في المنطقة. ولم يعد أصدقاء أمريكا وحلفاؤها في أنحاء العالم يستغربون منها هذه المواقف، ولكنهم مع ذلك يشعرون بالحزن وخيبة الأمل.

وإذا كان ساسة إسرائيل يعملون بنشاط على زيادة الصعوبات التي يواجهونها على امتداد سنوات، فلماذا نستمر في مساندتهم ودعمهم في أخطائهم؟ لقد حاولت الولايات المتحدة في وقت ما في الماضي أن تضغط على إسرائيل عن طريق التهديد بأن تحتجز من حزمة مساعداتها السنوية بعض الأموال التي تستخدم في تمويل المستوطنين في الضفة الغربية، ولكن في المرة الأخيرة التي جرت فيها تلك المحاولة أثناء إدارة كلينتون، تحايلت إسرائيل عليها بالحصول على المال باعتباره «نفقات الأمن»، وأغمضت واشنطن عينها عن هذه المراوغة، ومن بين ١٠ مليارات دولار من المساعدات الأمريكية على امتداد أربع سنوات بين ١٩٩٣ و ١٩٩٧ لم يتم احتجاز غير مبلغ أقل من ٧٧٥ مليون دولار، واستمر برنامج إقامة المستوطنات في مساره بلا عائق ونحن الآن لا نحاول حتى وقفه.

إن هذا الإحجام عن الكلام أو العمل ليس في مصلحة أحد، وقد أضر أيضاً بالحوار داخل الولايات المتحدة، فبدلاً من التفكير المستقيم بشأن الشرق الأوسط فإن الساسة والحكماء الأمريكيين يوجهون الشتائم إلى حلفائنا الأوروبيين عندما يرفضون، ويتحدث الأمريكيون بطريقة بعيدة عن المسئولية عن عودة العداء للسامية إلى الظهور عندما يوجه انتقاد لإسرائيل، ويوبخون بتحد أية شخصية عامة في الداخل تحاول الخروج عن الإجماع.

ولكن ذلك لن يؤدي إلى إنهاء الأزمة في الشرق الأوسط، ومن المتوقع أن ينأى الرئيس بوش بنفسه عن هذه المناقشات الساخنة خلال السنة المقبلة (انتخابات الرئاسة)، بعد أن قال ما يكفي عن «خريطة الطريق» في شهر يونيو الماضي لترضية توني بلير. ولكن طال المدى أم قصر سيضطر أحد الساسة الأمريكيين لأن يذكر الحقيقة لرئيس وزراء إسرائيل وأن يجد وسيلة لإلزامه بالاستماع له. فقد قضى الليبراليون الإسرائيليون والفلسطينيون المعتدلون عقدين من الزمان يؤكدون بلا جدوى أن الأمل الوحيد أمام إسرائيل هو تفكيك ما يقرب من جميع المستوطنات والعودة إلى حدود ١٩٦٧، في مقابل اعتراف حقيقي من جانب العرب بتلك الحدود وإقامة دولة فلسطينية خالية من الإرهاب، تساندها (وتعينها) الهيئات الغربية والدولية. ومازال هذا هو توافق الرأي السائد، وكان في وقت ما حلاً عادلاً وممكناً.

ولكني أتصور أن الوقت قد فات لتحقيق ذلك، فالمستوطنات قد تعددت، والمستوطنون اليهود زاد عددهم، وكذلك زاد عدد الفلسطينيين، وكلهم يعيشون معاً، وإن كانت الأسلاك الشائكة وقوانين تصاريح المرور تفصل بينهم. وأياً كان ما تقوله عن «خريطة الطريق» فإن الخريطة الحقيقية هي الخريطة الموجودة على الأرض، وهذه الخريطة، كما يقول الإسرائيليون، هي انعكاس للواقع. وقد يحدث أن يغادر ربع مليون من المستوطنين اليهود المدعومين بالمال والسلاح فلسطين العربية طائعين، ولكن ليس بين من أعرفهم شخص واحد يعتقد أن ذلك سوف يحدث، وكثيرون من هؤلاء المستوطنين سوف يموتون، ويُقتلون، بدلاً من أن يهاجروا. وكان آخر سياسي إسرائيلي أطلق النار على اليهود تنفيذاً لسياسة الدولة هو دافيد بن جوريون الذي استخدم القوة لنزع أسلحة ميليشيا أرجون غير الشرعية التي كان يقودها بيجن في ١٩٤٨ وأدمجها في «جيش الدفاع الإسرائيلي» المنشأ حديثاً. ولكن أرييل شارون ليس بن جوريون.

أخيراً، لقد جاء وقت التفكير فيما لم يكن مطروحاً للتفكير، فالحل القائم على وجود دولتين، وهو محور عملية أوسلو و«خريطة الطريق» الحالية، قد بات محكوماً عليه بالفشل، ففي كل يوم يمر نقوم بتأجيل ما لا مفر منه، وهو الخيار الأصعب الذي لم يعترف به حتى الآن غير أقصى اليمين وأقصى اليسار، كل منهما لأسبابه الخاصة. وستكون البدائل التي تواجه الشرق الأوسط في السنوات المقبلة هي بين «إسرائيل الكبرى» المطهرة عرقياً، ووجود دولة واحدة متكاملة مزدوجة القومية تضم اليهود والعرب، الإسرائيليين والفلسطينيين.

كان سلوك إسرائيل كارثة للسياسة الخارجية الأمريكية. وبالمساندة الأمريكية دأبت إسرائيل على التحدي السافر لقرارات الأمم المتحدة التي تطلب منها الانسحاب من الأراضي التي استولت عليها واحتلتها بالحرب



هذا ما يراه في الواقع المتشددون في مجلس وزراء شارون، وهو السبب في أنهم يتوقعون طرد العرب باعتباره الشرط الحتمي لبقاء الدولة اليهودية.

ولكن ماذا يكون الحال إذا لم يكن في عالم اليوم مكان لـ«دولة يهودية»؟ ماذا لو أن أمر الدولة الثنائية لم يعد فقط أمراً محتملاً بصورة مطردة، بل حلاً مرغوباً؟ فليس هذا الحل فكرة غريبة للغاية، فمعظم من يقرأون هذه المقالة يعيشون في دول تعددية أصبحت منذ أمد طويل متعددة الأعراق ومتعددة الثقافات، فقد قال فاليري جيكسار ديستان «إن أوروبا المسيحية لم يعد لها وجود» والحضارة الغربية اليوم هي نسيج من الألوان والأديان واللغات، من المسيحيين واليهود والمسلمين والعرب والهنود وكثيرين غيرهم.. وهو ما يعرفه أي زائر للندن أو باريس أو جنيف.

وإسرائيل نفسها مجتمع متعدد الثقافات من كل النواحي فيما عدا الاسم، ومع ذلك فهي تظل ذات طابع خاص بين الدول الديمقراطية من حيث لجوئها إلى معايير عرقية دينية تستخدمها للسيطرة على مواطنيها والتفرقة فيما بينهم، وهي كيان غريب بين الأمم العصرية ليس، كما يقول مؤيدوها المهووسون، بأنها دولة يهودية وليس هناك من يريد أن توجد دولة لليهود، بل لأن الدولة اليهودية التي تعيش فيها فئة واحدة، اليهود، فوق الآخرين، لا تعيش في عصر لم يعد فيه مكان لمثل هذه الدولة.

وعلى امتداد سنوات طويلة كان لإسرائيل معنى خاص لدى الشعب اليهودي، وبعد سنة ١٩٤٨ استقبلت مئات الآلاف من الناجين الذين لا حول لهم

ولا طول والذين لم يكن لديهم مكان آخر يذهبون إليه. وبدون إسرائيل كان موقفهم سيغدو يائساً إلى أقصى حد. كانت إسرائيل بحاجة إلى اليهود، واليهود بحاجة لإسرائيل. وربطت ظروف ميلاد إسرائيل هويتها ارتباطاً لا ينفصل بفكرة «الشواه» Shoah، أى المشروع الألمانى للقضاء على يهود أوروبا. ونتيجة لذلك، فكل الانتقادات الموجهة لإسرائيل ترجعها لذكريات ذلك المشروع، وهو أمر يسارع المدافعون الأمريكيون عن إسرائيل بلا حياء إلى استغلاله. ويقولون أن انتقاد الدولة اليهودية هو انتقاد لليهود، ويرون أن مجرد تصور وضع بديل فى الشرق الأوسط أمر مكافئ للقتل الجماعى.

وفى السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية، كان مجرد وجود إسرائيل عاملاً مطمئناً لملايين اليهود الذين لم يعيشوا فيها. سواء أكانوا يعتبرونها بوليصة تأمين ضد عودة ظهور المعاداة للسامية أو كمجرد تذكرة للعالم بأن اليهود يستطيعون أن يردوا أى اعتداء عليهم. وقبل وجود دولة يهودية، كانت الأقليات اليهودية فى المجتمعات المسيحية تتلفت حولها وتلتزم وضعاً هادئاً. أما منذ ١٩٤٨ فإن تلك الأقليات تسير رافعة هامتها. ولكن فى السنوات الأخيرة تغير الوضع تغييراً مؤسفاً.

إن اليهود من غير الإسرائيليين يشعرون اليوم بأنهم معرضون مرة أخرى للانتقاد والمهاجمة بسبب أشياء لم يقترفوها. ولكن فى هذه المرة بسبب الدولة اليهودية، التى تجعل منهم رهائن بأعمالها. ولا يستطيع يهود الشتات أن يؤثروا على سياسات إسرائيل، ولكنهم مربوطون بها. ومن دواعى ذلك إصرار إسرائيل نفسها على الحديث عن ولائهم لها. وسلوك الدولة التى تسمى نفسها الدولة اليهودية يؤثر على نظرة كل إنسان لليهود. وازدياد عمليات الهجوم على اليهود فى أوروبا وغيرها يرجع فى المقام الأول إلى جهود شاردة، غالباً من شبان مسلمين، للرد على أعمال إسرائيل. والحقيقة المحزنة هى أن سلوك إسرائيل الحالى ليس مضراً فقط بأمريكا، وهو ضرر مؤكد، وليس فقط مضراً بإسرائيل ذاتها، وهو ما يعترف به كثير من الإسرائيليين صامتين. الحقيقة المحزنة هى أن إسرائيل اليوم أصبحت مضرة لليهود.

ففى العالم الذى تتداخل فيه الشعوب والأمم بصورة مطردة وتتزاوج بمحض إرادتها، وحيث انهارت العوائق الثقافية والوطنية التى كانت قائمة فى سبيل التواصل والتفاهم، وأصبح لعدد متزايد منا هويات متعددة ونشعر بأننا نقيد بقيود زائفة إذا كان علينا أن نتمسك بهوية واحدة منها، فى مثل هذا العالم صارت إسرائيل حقاً مفارقة تاريخية. وهى ليست مجرد مفارقة بل إنها كيان عاجز عن العمل. فى عالم اليوم حيث «تتصادم الثقافات» بين الديمقراطيات التعددية المنفتحة والدول العرقية المدفوعة بالعقائد، ولا تقبل التسامح وذات النزعات العدوانية، فإن إسرائيل معرضة فى الواقع لأن تسقط فى المعسكر الخطأ.

ولن يكون تحويل إسرائيل من دولة يهودية إلى دولة ثنائية الجنسية أمراً سهلاً، وإن لم يكن مستحيلاً كما يبدو لأول وهلة: فقد بدأت العمليات بالفعل على أساس الأمر الواقع. ولكن من شأنها ألا تحدث اغتراباً لمعظم اليهود والعرب يزيد عما يدعيه أعداء هذا الحل على أساس دينى أو عرقى. وعلى أى حال، فليس بين الأشخاص الذين أعرفهم من لديه فكرة أفضل. إن أى شخص يفترض حقاً أن الجدار الإلكترونى المختلف بشأنه والذى يجرى بناؤه سوف يسوى الأمور، يبدو واضحاً أنه لم يدرك حقائق السنوات الخمسين الأخيرة من التاريخ. فهذا «الجدار». وهو فى الواقع منطقة مسلحة تشمل خنادق وحواجز وأدوات استكشاف وطرقاً ترابية (لتتبع الأثر) وجداراً يصل ارتفاعه إلى ثمانية وعشرين قدماً. يشغل، ويقسم، ويسرق المزارع العربية، وسوف يدمر قرى، ومصادر للرزق، وما تبقى من الاتصال بين العرب واليهود. وهو يتكلف ما يقرب من مليون دولار لكل ميل ولن يترتب عليه غير الإذلال والقلق لكلا الجانبين. وهو كجدار برلين يؤكد الإفلاس الخلقى والمؤسسى للنظام الذى يرمى لحمايته.

إن قيام دولة ثنائية الجنسية فى الشرق الأوسط يحتاج إلى قيادة أمريكية شجاعة عازمة على الوصول إلى حل. ولابد من ضمان الأمن لليهود والعرب معاً بوجود قوة دولية. إن قيام دولة ثنائية الجنسية فى الشرق الأوسط يتطلب ظهور طبقة سياسية جديدة بين اليهود والعرب على السواء. والفكرة فى نفسها هى مزيج من الواقعية واليوتوبيا، وليس من السهل العثور على نقطة بدايتها، ولكن البدائل أسوأ منها بكثير. ■

ما بعد الصهيونية

فيرجينيا تيلى



■ ■ هناك أنواع مختلفة من الأقليات. وما فكرة دولة مصرية للمصريين. ودولة يهودية لليهود، إلا تمرد على الواقع. إن ما نطلبه هو إعادة التفكير فى الحاضر فى ضوء التعايش والحدود التى يسهل عبورها واختراقها.

إدوارد سعيد، ١٩٩٩

ظل معظم المتعاطفين مع المطامح القومية الفلسطينية، أو مجرد المنتبهين لقدرتها على البقاء وللأخطار السياسية التى تشكلها، يفترضون على مدى بضع سنوات أن أى حل دائم للصراع الفلسطينى الإسرائيلى يتطلب تشكيل دولة فلسطينية فى المناطق (المتدهورة أحوالها) التى لم تضمها إسرائيل بعد، فيما تبقى من منطقة الانتداب البريطانى.

ومع ذلك فقد أصبح ذلك المبدأ الأساسى فى وقت ما من العقد المنصرم خيالاً يثير الارتباك والتشويش. فكما يعترف كثيرون فى السر، فقد قضى التقدم العنيد الذى لا رجعة فيه فى إنشاء المستوطنات فى الضفة الغربية وغزة على شروط الدولة الفلسطينية المستقلة.

طول الوقت، ويوماً وراء يوم، كانت طواقم البناء الإسرائيلية يعلو ضجيجها فى الضفة الغربية وغزة وهى تشق الطرق وتقيم الآلاف من الوحدات السكنية فى مجتمعات مخططة تخطيطاً جيداً. وتشير كلمة «مستوطنة» إلى بضع مقطورات سكنية فوق أحد التلال يحميها المتعصبون، ولكن ما لدينا هو شبكة ضخمة من المدن الصغيرة التى تخترق عمق الضفة الغربية وغزة وتضم حالياً ٢٠٠ ألف شخص (بالإضافة إلى ١٨٠ ألفاً فى مستوطنات القدس الشرقية التى لا يعتقد أحد أنها سوف تخلى). وهناك عشرات الآلاف من البيوت والشقق التى تخدمها المدارس ومراكز التسويق والمسارح ومراكز الفنون وتربطها طرق رئيسية وإمدادات المياه والكهرباء المعقدة والحواجز والأسوار والأسياج وأنظمة المراقبة المحيطة بها. وهذه الشبكة لا يمكن إزالتها بسبب بنيتها التحتية الضخمة، وبسبب الاستثمار النفسى الخاص بالمقيمين فيها. وربما كان من الممكن أن يؤدى الجهد الدولى المنظم إلى وقف نموها. غير أنها قطعت الآن شوطاً كبيراً ولا يمكن لشىء أن يقف فى وجه توسعها.

وبما أن قطاع غزة والضفة الغربية تمزقهما المستوطنات اليهودية الإسرائيلية كثيرة السكان، فإن أياً منهما لا يمكن أن تكون أرضاً قومية. ويترتب على ذلك أنه إذا لم يكن بالإمكان إلغاء سياسة الاستيطان، فلن تكون الدولة الفلسطينية ممكنة. ويعتقد جوت، ومعه الحق فيما يراه، أن حل الدولة الواحدة، مهما كان شكلها (ثنائية القومية أو مطهرة تطهيراً عرقياً)، هو الآن الحل الوحيد.

ترجمة: أحمد محمود

عن مجلة:
London Review of Books

إن بحث مستقبل المستوطنات فى ظل حل الدولتين يعنى أنه ليس حلاً بالمرة. فمن الناحية النظرية يمكن استيعاب المستوطنات وسكانها البالغ عددهم ٢٠٠ ألف فى الدولة الفلسطينية، حيث يحصل المستوطنون على المواطنة الفلسطينية أو على نوع من وضع الإقامة الدائمة. غير أنه فى ظل حجم الفساد الفلسطينى الرسمى، وكذلك صلات المستوطنين العاطفية والسياسية والاقتصادية بإسرائيل، لا تكون المواطنة خياراً جاداً. كما أن الإقامة الدائمة لن تؤدى إلا إلى تعقد الموقف الحالى: فستكون جيوباً لغير المواطنين داخل أراض فلسطينية غير متجاورة. وبديل ذلك هو تفكيك المبانى والبنية التحتية وإعادة استيعاب السكان اليهود داخل إسرائيل نفسها: وهى عملية مكلفة بالنسبة لإسرائيل، من الناحيتين المالية والسياسية. أو أن تسلم المستوطنات فى حالة سليمة كى يستفيد منها الفلسطينيون (مما يساعد على استيعاب العائدين الفلسطينيين) بينما ينقل السكان اليهود، مرة أخرى، إلى داخل إسرائيل نفسها: وهو ما يفرض كذلك تكاليف مالية وسياسية كبيرة على إسرائيل. واتفاق جنيف محاولة للتعامل بمرونة مع هذه الخيارات: حيث تسحب بعض المستوطنات، مع ترك بعض المستوطنات الكبيرة الأخرى. إلا أن أياً من الفاعلين الذين لديهم سلطة تطبيق الاتفاق. الحكومة الإسرائيلية والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى (أو جزء منه) . ليس لديه الرغبة فى أن يفعل ذلك.

ليس منتظراً بطبيعة الحال من الحكومة الإسرائيلية الحالية تنفيذ مثل هذا المشروع. وليست المشكلة هى فقط شارون الذى يخوض حملة نشطة من أجل السيادة الإسرائيلية على كل فلسطين التى كانت خاضعة للانتداب، بعد استكمال شبكة المستوطنات. ولا تكمن المشكلة فى تلك الأقلية من المستوطنين فى «يهودا والسامرا» الذين هم فى واقع الأمر متعصبون دينيون مدججون بالسلاح (معظمهم من الولايات المتحدة)، حتى ولو كان التأثير السياسى المحلى مروعاً. فإنهم إذا قاوموا النقل بالقوة، وهو ما سيفعله البعض، فإن السلطة الأخلاقية لأية حكومة تحاول نقلهم. وحتى مشروعية دولة إسرائيل نفسها . قد تكون موضع شك بالنسبة لهؤلاء الصهاينة الذين يفهمون السيادة اليهودية على الأرض على أنها حق وواجب، حيث تنبع فى المقام الأول من السلطة التوراتية وثانياً من ضرورة حماية اليهود من الأخطار المعاصرة المعادية للسامية بالحفاظ على الملاذ والوطن اليهودى. ولأن المستوطنين المتدينين يتسمون بالدهاء السياسى والإيمان الشديد بتلك المبادئ، فإنهم قد يستعينون بالأمرين معاً.

ويمثل المتعصبون نوعاً من التشويش. فعلى مدى عقدين أو أكثر، تعدى التواطؤ الحكومى مع مشروع الاستيطان ما هو ضرورى لإقامة المتطرفين، ولا يزال الالتزام به متأصلاً فى المؤسسات والسياسة الحكومية، بالقدر الذى يتعدى السياسة الانتخابية. وتولى شارون منذ عام ١٩٨٤ وزارات التجارة والصناعة، والتشييد والإسكان، والبنية التحتية القومية. وكان بذلك فى موقع يضمن توفير المنح والقروض منخفضة الفوائد لبناء البيوت وللصناعة الإسرائيلية الجديدة فى المناطق، وزاد من مشاركة الحكومة فى توفير الخدمات والأعمال المصرفية وإمدادات الكهرباء والمياه، ويسر الاستثمارات الخاصة فى الإسكان والبنية التحتية، وشجع التعاون الاستراتيجى بين الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية فى تطوير كتل الاستيطان الواقعة على جانبى الخط الأخضر. وعلى سبيل المثال، شاركت كل وزارة وهيئة حكومية تقريباً فى بناء كتلة الريهان التى ألغت الخط الأخضر على طول الحدود الشمالية الشرقية للضفة الغربية. وقد يتطلب إعادة ترتيب هذه الهيئات لوقف الدعم والخدمات وغيرها من الحوافز المقدمة للاستيطان فى المناطق تغيير تصميمها الأساسى (البنية والسياسات والعاملون)، وهى مهمة تتعدى قدرة أى سياسى إسرائيلى أو ائتلاف للساسة.

ليس هناك ما يوشك أن يحدث، وذلك لأسباب نجدها فى عمق النسيج السياسى الأمريكى، أو حتى استراتيجية أمريكا العسكرية التى طال أمدها وتفترض أن إسرائيل هى الحليف الأساسى.

إذن، فليست الولايات المتحدة محايدة، بل هى محيدة. فما زالت سياستها الخارجية ملتزمة بتأييد «رفاهية» إسرائيل مهما كانت الطريقة التى تراها بها الحكومة الإسرائيلية، مما لا يجعل لها تأثيراً محايداً على سياسة الاستيطان.

يقترب شارون من تحقيق هدفه الذى طالما حلم به، وهو السيادة الإسرائيلية على كل فلسطين التى كانت خاضعة للانتداب، مع وجود بعض الجيوب الفلسطينية المعزولة غير القادرة على البقاء وتوفر حكماً ذاتياً كئيباً معزولاً ومحاصراً تتحلل فيها بقايا المجتمع الفلسطينى ببطء. إلا أن هذا سوف يجعل فى حوزته حزمة غير مرغوب فيها إلى حد كبير، وهى منطقة تضم ما يزيد على المليونين من المسلمين والمسيحيين العرب المسيسين الذين ليست لهم دولة حقيقية خاصة بهم، الأمر الذى يؤدى إلى تفتيت إسرائيل مثلما فتتت هى مجتمعهم القومى. فالمشكلة قديمة قدم الصراع نفسه، وهى ماذا تفعل بالشعب إذا كان ما تريده هو الأرض؟

وبما أن الترانسفير: الترحيل بالقوة من الضفة الغربية، فى الغالب عبر الحدود الأردنية، سوف يطلق العنان للعنف الإقليمى على نطاق لا يدركه أحد الآن، وبما أن شارون أذكى من أن يسعى إلى ذلك، مهما كانت ضغوط الجناح اليمينى عليه، فقد يظل الفلسطينيون فى أجزاء محددة فى ظل سلطة فلسطينية «مستقلة» ما تكلف بالحفاظ على النظام. وكما أعلن شارون نفسه، فلن يهم الفلسطينيين الوضع النظرى للدولة فى هذه الخطة. ذلك أن اقتصادهم سيظل مشلولاً، وسوف تتلاشى مجتمعاتهم فى نهاية الأمر لتصبح آثاراً عرقية لا علاقة لها بشىء. وكما أشار چوت، ربما كان هذا الحل يتناسب مع الأيديولوجيات العرقية القومية فى القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين التى أفرزت الحركة الصهيونية، إلا أنه يتناقض مع المبادئ الديمقراطية التى تقوم عليها إسرائيل الحديثة. وسوف تستتبع سيادة إسرائيل على الضفة الغربية التى تضم جيوباً معزولة عوائق لوجيستية وأخلاقية تحول دون تماسكها.

يبقى حل الدولة الواحدة، وتصنيف العقبات التى تقف فى سبيله. ومن الواضح أنها عقبات ضخمة. فالمشكلات الخاصة بإسرائيل عميقة: ذلك أن التنازل عن يهودية «الدولة اليهودية» لن يتطلب تعديل قوانينها فحسب، بل إنه سيكون مخالفاً مخالفة صريحة للمعتقدات الصهيونية (والمسيحية اليمينية) الشائعة بشأن مبرر وجود إسرائيل. وليس هذا الصدام بجديد: فهو يعكس الانقسامات المبكرة داخل الفكر الصهيونى. فحل الدولة الواحدة يطرح فى وقت تتجمع فيه المناقشات الجديدة (وشديدة العاطفية) على مدى عقد أو يزيد بشأن الطابع اليهودى لإسرائيل، حيث تركز على مسائل «ما بعد الصهيونية» الخاصة بما إذا كان بالإمكان أو من الواجب إعادة تصور إسرائيل نفسها: ليس باعتبارها دولة يهودية على وجه التحديد (بمعنى تقديس المؤسسات العامة للهيمنة اليهودية العرقية القومية الدائمة)، بل على أنها دولة يضمن فيه لليهود الحريات العرقية والأمن على قدم المساواة مع المواطنين كافة. ومن المستحيل المبالغة فى مدى الخوف والأسى والحزن الذى يشيع فى تلك المناقشات بشأن مستقبل إسرائيل أو مشاعر توقع الشر والاستياء والرفض التى يثيرها الحديث عن الدولة العلمانية. ومع ذلك فليس صوت چوت بالصوت الخارج على الجماعة، حتى وإن أوحى ليون فيزيلتير بذلك فى رده الغاضب فى «ذا نيو ريبليك».

إذا كان على الفلسطينيين والإسرائيليين (من كل الخلفيات العرقية والدينية) أن يشاركوا بالفعل فى دولة واحدة باعتبارهم أنداداً، فلابد كذلك أن توضح الرؤية ما بعد الصهيونية الطابع غير العرقى للمكون الفلسطينى. فالدولة «ثنائية القومية» من الناحية الرسمية، التى تعترف بالقوميتين العرقيتين اليهودية والفلسطينية وتتعامل معهما على أنهما واقع عينى، يمكن أن توجد فحسب منافسة ثنائية الأقطاب توحى لفيزيلتير بهذا الذعر، وذلك فى ظل الثقل الديموجرافى الفلسطينى الأكبر. وهو يرى أن هيمنة

ليست الولايات المتحدة محايدة، بل هى محيدة. فما زالت سياستها الخارجية ملتزمة بتأييد «رفاهية» إسرائيل مهما كانت الطريقة التى تراها بها الحكومة الإسرائيلية، مما لا يجعل لها تأثيراً محايداً على سياسة الاستيطان

القومية الفلسطينية على اليهود أمر حتمى إلى الحد الذى يبرر هيمنة القومية اليهودية على الفلسطينيين.

التحدى الذى يواجه حل الدولة الواحدة هو العثور على ممر سياسى من خلال الانتقال من القوميات العرقية المتنافسة إلى الصيغ العلمانية الديمقراطية التى تحافظ على دور إسرائيل باعتبارها ملاذًا يهوديًا، فى حين تزيل الامتيازات التى تشبه الفصل العنصرى وتجعل غير اليهود فى الوقت الراهن مواطنين من الدرجة الثانية. وهذا التناقض تواجهه إسرائيل بالفعل داخل حدودها القانونية؛ ذلك أنه حتى السكان العرب الحاليين فى البلاد يرون أن هناك اتفاقًا كبيرًا على أن نظام القوانين الذى يحمى «الدولة اليهودية» ظالم وغير مستقر على المدى الطويل. وفى دولة علمانية ديمقراطية، يقتضى هذا تغيير نفس المفهوم الخاص بوضع الدولة اليهودية (وضمنيًا مدى نفوذ القومية اليهودية) تغييرًا جذريًا. ولابد من ضمان الحقوق والامتيازات القومية على الجانبين بتضمينها فى الامتيازات القومية الإسرائيلية. ولابد من إعادة تصور الفوائد المقصورة من الناحية القانونية على اليهود فى الوقت الراهن (عن طريق ربطها فى العادة بالخدمة العسكرية وبشكل أقل مباشرة بقانون العودة) مثل قروض الإسكان وقروض التعليم والتوظيف فى القطاع العام وهلم جرا، إلى جانب إعادة توزيع الموارد. ولابد من إعادة ترتيب استغلال الأراضى؛ حيث يخصص ٩٣ بالمائة من مساحة إسرائيل فى الوقت الراهن لاستخدام اليهود. ولابد من فصل الإسكان فصلاً رسميًا عن الإشغال اليهودى الحصرى (وسيكون من الواجب أن يتبخر الطابع «اليهودى فقط» للمستوطنات). ولابد من إعادة بحث الدور الراسخ للوكالة اليهودية التى تدير الموارد والامتيازات القومية اليهودية فى إسرائيل. ولابد كذلك من تغيير السياسة الانتخابية والتمثيل فى الكنيست بما يسمح بالمناقشة التشريعية على أساس الوضع العرقى المتكافئ. وقد تضمن تعديلات القوانين الأساسية، أو وضع دستور علمانى، أن تظل إسرائيل تحمى الأرواح والحقوق اليهودية، حيث تكون بمثابة الملاذ الذى يرغب الكثير من اليهود داخل إسرائيل وخارجها بشدة فى الحفاظ عليه. إلا أنه لابد أن يضمن القانون الأساسى نفسه الحقوق الإسلامية والمسيحية بل واللاغنوصية والإلحادية، ويقضى، على الأقل من الناحية التشريعية، على أى تراتب مؤسسى يقوم على المفاهيم العرقية والدينية. وسيحتاج هذا التحول إلى سنوات من النقاش والجدل والصراع؛ بل وإلى إرادة سياسية غائبة بشكل واضح فى الوقت الراهن. وقد تتغلب لجان تقصى الحقائق أو العفو العام فى نهاية الأمر على ميراث العنف والكراهية. ولكن كما هو الحال فى مثل هذه العواقب، سوف تستغرق العملية أجيالاً.

ستكون المشكلة بالنسبة للفلسطينيين ذات وضع مختلف. إذ هل ما يطمحون إليه بالفعل هو دولة علمانية ديمقراطية تقوم على السيادة الإقليمية؛ وهو النموذج الذى طالما اقترحه القوميون الفلسطينيون وطوره مفكرون مثل إدوارد سعيد؟ أم سيؤيد كثيرون فى الوقت الراهن إقامة دولة عرقية أو عرقية دينية تقوم على أفكار المحلية العربية أو الإسلامية من ذلك النوع الذى يتبنونه فى غزة؟ ليس مثل هذا النقاش الأساسى بالأمر الفريد، كما أنه ليس ميئوسًا منه كما قد يظن ظان (فقد وطأت جنوب أفريقيا ما بعد الفصل العنصرى بعضًا من هذه الأرض). بل إن الكثيرين من الفلسطينيين تحرروا من وهم «القيادة القومية» الخاصة بهم بالقدر الذى قد يجعلهم يرحبون بفكرة موتها، شريطة منحهم حقوقًا متكافئة باعتبارهم مواطنين فى دولة واحدة (سيكون العثور على الضمانات المناسبة لهذه الحقوق هو العقبة الأساسية).

قد يغير الأثر الأكبر والأوسع مدى لحل الدولة الواحدة هيئة التوترات الإقليمية، وكذلك التوترات المحلية، بإنهائه الاحتلال العسكرى وتوحيد الأرض واستعادة الفلسطينيين السيادة (المشتركة) فى وطنهم التاريخى. وسوف يمنحهم ما سعوا كثيرًا إليه من تمثيل وحقوق ملكية ونظام عدالة مدنية وحرية صحافة فى إطار النظام الديمقراطى المقصور حتى الآن على اليهود طالما أعجب به الكثيرون من الفلسطينيين وتمنوا محاكاته. ولكن هذا لن يحل كل المشاكل؛ فسوف يتعالى صوت توترات الحرم الشريف والهيكل، على سبيل المثال. إلا أنه سيعيد تشكيل تلك النزاعات باعتبارها خلافات عرقية داخل دولة ديمقراطية، وليس بين آخرين مستقطبين يجعل كل منهما الآخر شيطانًا. كما أنه سوف يعيد إسرائيل إلى ذلك الوضع الذى يحظى بالاحترام بين الأسرة الدولية، ويقضى على «المشكلة الفلسطينية» باعتبارها مصدر غضب المسلمين والقوميين العرب والجماعات المتطرفة فى أنحاء العالم الذين يشعرون باستياء شديد. وبما أن حل الدولتين لا يعد إلا بمزيد من المشاكل (وسوف تكون لفشله عقبات وخيمة)، فإن حل الدولة الواحدة هو الحل الوحيد الذى يمكن للمجتمع الدولى أن يفكر فيه حاليًا تفكيرًا مسئولاً. ■

كتاب الزاوية

بغداد فى الأيام الخوالى

هذه يوميات ومراسلات كتبها «كلوديوس جيمس ريج» الرحالة واللغوى وجامع العاديات الأثرية والمقيم البريطانى فى بغداد فى الفترة من ١٨٠٨ ـ ١٨٢١، جمعت تحت عنوان «بغداد فى الأيام الخوالى»، وصدرت عن المجمع العلمى الثقافى فى «أبو ظبى».

وقد طاف ريج بمدن وقرى العراق، بل وانطلق منها إلى بعض الدول الأوروبية والفارسية، وقد توفى فى مدينة شيراز الإيرانية عام ١٨٢٢، عن ستة وثلاثين عامًا.

وقد جمعت كونستانسى. م. الكسندر ما كتبه ريج من يوميات ومراسلات، وأعادت ترتيبها وتنظيمها لتصدر فى هذه الصورة، مستفيدة من صلة القربى التى جمعتها بريج، فقد كانت بمثابة حفيدته.

والكتاب الذى يمكن اعتباره عرضًا سياسيًا لحقبة زمنية بعينها مر بها العراق، يمكن كذلك النظر إليه باعتباره دراسة أثرية لمواقع شهيرة يضمها بلد كان مهدًا لحضارة عريقة، فضلاً عن كونه عرضًا تاريخيًا لصراع القوى فى هذا الجزء من العالم، أو استعراضًا لبعض الصور الفلكلورية أو رواية لسيرة ذاتية لرجل لعب دورًا فى مجريات الأحداث وكان شاهد عيان على بعضها.

والمؤلفة ـ بسبب صلة القربى التى جمعتها بصاحب اليوميات ـ جعلت منه بطلاً فى كثير من المواقف، وتغاضت عن دوره الرئيسى الملتبس الذى أملى عليه حركاته وسكناته، وهو انتماؤه إلى شركة الهند الشرقية، التى كانت بمثابة الواجهة التى تستتر خلفها الإمبراطورية البريطانية فى كل مكان فى العالم.

أمريكا وأوروبا

تمر العلاقات الأوروبية - الأمريكية حاليًا بمرحلة شديدة الحساسية والتوجس نتيجة للهجوم المتواصل من جانب المحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية وعلى رأسهم دونالد رامسفيلد وزير الدفاع على الدور الأوروبي في العالم. والخلاف الشديد الذي نشب بسبب الحرب الأمريكية على العراق. ورغم محاولات التقريب بين الجانبين إلا أن هذا التوتر مرشح للتصاعد مع تصاعد الخسائر الأمريكية في العراق واستمرار المطالب الأوروبية بتولي الأمم المتحدة زمام الوضع هناك بدلاً من القوات الأمريكية.

سوزان سونتاج الكاتبة الأمريكية البارزة والمعارضة الشديدة للحرب في العراق استكشفت أبعادًا جديدة للخلاف الأوروبي الأمريكي من منظور تاريخي - أدبي.. وقد ألقت سونتاج - ٧٠ عامًا - محاضرة بمناسبة تسليمها جائزة السلام الدولية على هامش معرض فرانكفورت الدولي للكتاب في أكتوبر الماضي تناولت هذه القضية المتفجرة.. وفيما يلي نص محاضرتها.

المحـرر

■ ■ إنها تجربة تبعث على الخشوع والإلهام أن يتحدث المرء في كنيسة القديس بولس، ذلك المكان الذي يفوح منه عبق التاريخ، وأمام هذا الجمهور، وأن يتسلم الجائزة التي يمنحها اتحاد الناشرين الألمان للكثير ممن أثاروا إعجابي من الكُتّاب والمفكرين والشخصيات العامة النموذجية. غير أنني أشعر فحسب بالمزيد من الأسف والأسى للتغيب المتعمد للسفير الأمريكي في ألمانيا دانييل كوتس الذي يدل رفضه الفوري لحضور تجمعنا هنا اليوم، على أنه أحرص على تأكيد الموقف الأيديولوجي والاهتمام بردود الأفعال المعادية لحكومة بوش منه على أداء واجبه الدبلوماسي العادي بتمثيل مصالح بلده، وبلدي، وسمعته.

إن من واجب أي سفير أمريكي تمثيل بلاده، كل بلاده. وأنا بالطبع لا أمثل أمريكا، ولا حتى الأقلية الكبيرة التي لا تؤيد البرنامج الإمبريالي لمستر بوش ومستشاريه. وأنا أفضل الاعتقاد بأنني لا أمثل شيئاً سوى الأدب، بل فكرة بعينها عن الأدب، والضمير، وفكرة بذاتها عن الضمير أو الواجب. ولكن إدراكاً مني لبراءة هذه الجائزة الممنوحة من دولة أوروبية كبرى، باعتباري «سفيرة فكرية» بين القارتين، فليس في وسعي مقاومة بعض الأفكار بشأن الفجوة التي يتباهون بأنها قائمة بين أوروبا والولايات المتحدة.

ولنسأل أنفسنا أولاً وقبل كل شيء، هل هي فجوة أم صراع؟ إن التصريحات الغاضبة بشأن أوروبا، والتي تستبعد دولاً أوروبية بعينها، هي العملة الرائجة الخاصة بالخطاب السياسي الأمريكي. وهنا، على الأقل في الدول الغنية على الجانب الغربي من القارة، نجد أن المشاعر المعادية لأمريكا أكثر رواجاً، وصوتها أكثر ارتفاعاً، ويزيد حجمها عن أي وقت مضى. فما هو هذا الصراع؟ هل له جذور عميقة؟ أظن أنه كذلك.

كان هناك على الدوام عداء مستتر بين أوروبا وأمريكا، وهو عداء معقد ومتناقض ظاهرياً، كذلك الذي بين الوالد وابنه. فأمريكا دولة أوروبية جديدة، وكانت حتى بضعة عقود قليلة مضت تسكنها في الغالب شعوب أوروبية. ومع ذلك فقد كانت الفروق التي بين أوروبا وأمريكا هي على الدوام ما يذهل المراقبين الأكثر إدراكاً، مثل الكسيس توكفيل الذي زار تلك الدولة الفتية في عام ١٨٣١ وعاد إلى فرنسا ليكتب «الديمقراطية في أمريكا» الذي لا يزال بعد مرور حوالي مائة وسبعين عاما أفضل ما كتب عن أمريكا. ودي إتش لورانس الذي نشر منذ سبعين عاماً كتاباً هو أكثر ما كتب عن الثقافة الأمريكية لفتاً للانتباه، وهو كتابه المهم المثير للغضب «دراسات في الأدب الكلاسيكي الأمريكي».. وقد فهم كلاهما أن الولايات المتحدة ابنة أوروبا في سبيلها لأن تكون ضداً لأوروبا، أو أنها باتت كذلك بالفعل.

روما الجديدة وأثينا، المريخ والزهرة، لم يخترع مؤلفو المطبوعات واسعة الانتشار الحديثة التي تروج لفكرة التصادم الحتمي للمصالح والقيم بين أوروبا وأمريكا تلك الأضداد. وقد أطال الأجانب التفكير بشأنها وتأملوها، فهي تمثل السمات الكامنة واللحن المتكرر في جزء كبير من الأدب الأمريكي طوال القرن التاسع عشر، من جيمس فينيمور ورالف والدو إيمرسون إلى والت ويتمان وهنري جيمس ووليليام دين هاولز ومارك توين. فهناك ثنائيات البراءة الأمريكية والتعقيد الأوروبي، والبراجماتية الأمريكية والعقلنة الأوروبية، والطاقة الأمريكية والسأم الأوروبي من الحياة، والسذاجة الأمريكية والاستهزاء الأوروبي، وطيبة القلب الأمريكية والحقد الأوروبي، والنزعة الأخلاقية الأمريكية وفنون التنازل الأمريكية: وأنتم تعرفون الألحان.

يمكن تصميم رقصات هذه الألحان بطريقة مختلفة. فالواقع أنهم رقصوا عليها بكل نوع من أنواع التقييم أو التحيز طوال قرنين عاصفين. ويمكن لمن يحبون أوروبا استخدام الأضداد القديمة لربط أمريكا بالبربرية التي تحركها التجارة وأوروبا بالثقافة الرفيعة، في حين يعتمد من يخافون من أوروبا على الرأي القائل بأن أمريكا نموذج للمثالية والانفتاح والديمقراطية، بينما أوروبا نموذج للضعف والتعالي والدقة البالغة. وقد لاحظ توكفيل ولورانس شيئاً شنيعاً، وهو أن الأمر لم يكن مجرد إعلان الاستقلال عن أوروبا والقيم الأوروبية فحسب، بل كان هناك تقويض مطرد للقيم الأوروبية والسلطة الأوروبية واغتيال لها. فقد كتب لورانس: «لا يمكنك الحصول على شيء دون تحطيم ما هو قديم. والحادث هو أن أوروبا هي الشيء القديم. وينبغي أن تكون أمريكا الشيء الجديد. والشيء الجديد هو موت القديم». وتنبأ لورانس بتولي أمريكا مهمة تدمير أوروبا مستغلة الديمقراطية - وخاصة الديمقراطية الثقافية وديمقراطية السلوك - أداة لتحقيق ذلك. وكتب يقول إنه عند الانتهاء من هذه المهمة، قد تترك أمريكا الديمقراطية إلى حد كبير لتذهب إلى شيء آخر. (وهو ربما ما يكون في سبيله للظهور الآن).

معذرة إذا كانت كل إحالاتي أدبية بحتة. فعلى أي الأحوال، إن إحدى وظائف الأدب - الأدب المهم والأدب الضروري - هي أن يتنبأ بما سيحدث. وما لدينا هنا هو، إلى حد كبير، المعركة الأدبية، أو الثقافية، الدائمة بين القدامى والمحدثين.

الماضي هو أوروبا، وتقوم أمريكا على فكرة الانفصال عن الماضي، الذي يُنظر إليه على أنه مؤخر ومعوِّق وغير ديمقراطي إلى حد كبير، بما فيه من أشكال الخنوع والأولوية والمعايير الخاصة بما هو أسمى وما هو أفضل: وهو في الأساس غير ديمقراطي أو «نخبوي»، وهو اللفظ البديل السائد حالياً. ولا يزال الذين يتحدثون باسم أمريكا المنتصرة يشيرون إلى أن الديمقراطية الأمريكية تنطوي على رفض أوروبا واحتواء شيء من البربرية الحميدة المحررة. وإذا كان معظم الأمريكيين في الوقت الراهن يعتبرون أوروبا اشتراكية أكثر منها نخبوية، فإن هذا ما يزال يجعل من أوروبا، طبقاً للمعايير الأمريكية، قارة متخلفة تتمسك بعناد بالمعايير القديمة، أي بدولة الرفاهية. وليس شعار «جددوها» خاصاً بالثقافة فحسب، بل إنه يصف آلة اقتصادية تشمل العالم بأسره ولا تتوقف عن التقدم.

ومع ذلك فإنه حتى «القديم» يمكن إعادة تعميده ليصبح «جديداً» إذا اقتضى الأمر.

ليست مصادفة أن وزير الدفاع الأمريكي العنيد دونالد رامسفيلد حاول دق إسفين بين دول أوروبا، بتفريقه بين أوروبا «القديمة» (الشريرة) وأوروبا

هناك ثنائيات البراءة الأمريكية والتعقيد الأوروبي، والبراجماتية الأمريكية والعقلنة الأوروبية، والطاقة الأمريكية والسأم الأوروبي من الحياة، والسذاجة الأمريكية والاستهزاء الأوروبي، وطيبة القلب الأمريكية والحقد الأوروبي، والنزعة الأخلاقية الأمريكية وفنون التنازل الأمريكية

ترجمة: أحمد محمود

... خلاف أم صراع؟!

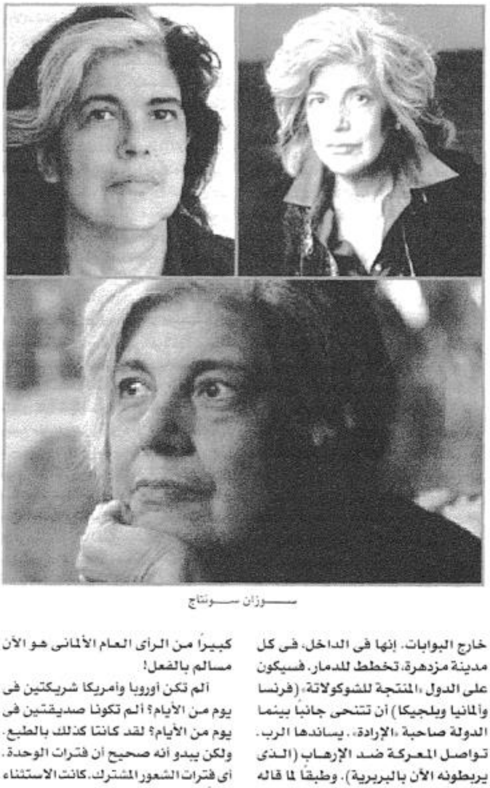
سوزان سونتاج

«الجديدة» (الطيبة). كيف حدث أن أحيلت ألمانيا وفرنسا وبلجيكا إلى أوروبا «القديمة»، بينما وجدت أسبانيا وإيطاليا وبولندا وأوكرانيا وهولندا والمجر وجمهورية التشيك أنفسها جزءاً من أوروبا «الجديدة»؟ الإجابة هى أن من يدعم الولايات المتحدة فى توسيعها الحالى لنفوذها السياسى والعسكرى يدخل بالقطع ضمن فئة «الجديد» الأكثر مرغوبية. فمن كان معنا فهو «جديد».

تصنَّف كل الحروب الحديثة، حتى وإن كانت دوافعها هى تلك الدوافع التقليدية كالتوسع الإقليمى أو الاستيلاء على الموارد النادرة، على أنها صدام حضارات. حروب ثقافية. حيث يدعى كل جانب أنه الأفضل ويصف الجانب الآخر بالبربرية. والعدو باستمرار خطر على «أسلوب حياتنا»، وهو كافر ومنتهك للمقدسات وملوِّث ومدنس للقيم الأسمى أو الأفضل. والحرب الدائرة حاليًا ضد التهديد الحقيقى جداً الذى تشكله الأصولية الإسلامية المتشددة مثال شديد الوضوح. والأمر الجدير بالملاحظة هو نسخة أخف من نفس الخطاب الذى يحط من القدر ويقلل من الشأن على نحو يدعم العداء بين أوروبا وأمريكا. ولابد أن نتذكر كذلك أنه من الناحية التاريخية لم يأت معظم الخطاب شديد الكراهية المعادى لأمريكا فى أوروبا. الذى يقوم فى الأساس على اتهام الأمريكيين بأنهم برابرة. مما يسمى باليسار، بل جاء من أقصى اليمين. فكم احتج هتلر وفرانكو على أمريكا (واليهود العالميين) المشاركة فى تلويث الحضارة الأوروبية بقيمها التجارية الوضيعة.

لا يزال جزء كبير من الجمهور الأوروبى، بطبيعة الحال، معجبًا بالطاقة الأمريكية، أى بالنسخة الأمريكية من «الحديث». ومن المؤكد أن هناك دائماً المتعاطفين الأمريكيين مع المُثل الثقافية الأوروبية. وأنا واحدة منهم. الذى يجدون فى آداب أوروبا القديمة تحريراً لتحيز الثقافة الأمريكية التجارية النشطة وتصحيحاً لها. وهناك دائماً المناظرون لهؤلاء الأمريكيين على الجانب الأوروبى؛ وهم الأوروبيون المفتونون بشدة بالولايات المتحدة ويأسرهم سحرها، وهو ما يرجع على وجه الدقة إلى اختلافها عن أوروبا.

إن ما يراه الأمريكيون يكاد يكون عكس القول المبتذل الذى يدل على حب أوروبا؛ فهم يرون أنفسهم مدافعين عن الحضارة. فلم تعد الجحافل البربرية



سوزان سونتاج

خارج البوابات. إنها فى الداخل، فى كل مدينة مزدهرة، تخطط للدمار. فسيكون على الدول «المنتجة للشوكولاتة» (فرنسا وألمانيا وبلجيكا) أن تتنحى جانبًا بينما الدولة صاحبة «الإرادة»، يساندها الرب، تواصل المعركة ضد الإرهاب (الذى يربطونه الآن بالبربرية). وطبقًا لما قاله وزير الخارجية الأمريكى كولين باول، فإنه من المثير للضحك أن تطمح أوروبا القديمة (ويبدو أحيانًا أن فرنسا وحدها هى المقصودة) إلى القيام بدور فى حكم الأراضى التى يكسبها الائتلاف الفاتح أو فى إدارتها. فهى لا تملك الموارد العسكرية، ولا أقل قدر من العنف، ولا دعم شعوبها المدللة شديدة الميل للسلم. والأمريكيون محقون فيما يقولون. فالأوربيون ليسوا فى حالة مزاجية تتسم بالحماس المتقد أو الولع بالقتال.

اضطر فى بعض الأحيان لأن أقرص نفسى كى أتأكد أننى لست فى حلم؛ ذلك أن ما يعتقده أناس كثيرون فى بلدى الآن ضد ألمانيا، التى أثارت ذلك الرعب فى العالم طوال قرن تقريبًا. «المشكلة الألمانية» الجديدة كما كانت تسمى. هو أن الألمان ينفرون من الحرب، وأن جزءاً كبيرًا من الرأى العام الألمانى هو الآن مسالم بالفعل!

ألم تكن أوروبا وأمريكا شريكتين فى يوم من الأيام؟ ألم تكونا صديقتين فى يوم من الأيام؟ لقد كانتا كذلك بالطبع. ولكن يبدو أنه صحيح أن فترات الوحدة، أى فترات الشعور المشترك، كانت الاستثناء بدلاً من أن تكون قاعدة. وكانت إحدى تلك الفترات منذ الحرب العالمية الثانية حتى الحرب الباردة، حين كان الأوروبيون يشعرون بالامتنان لتدخل أمريكا وإغاثتها ودعمها. ويشعر الأمريكيون بالراحة حين يرون أنفسهم يقومون بدور مخلِّص أوروبا ومنقذها. ولكنهم يتوقعون بعد ذلك أن يظل الأوروبيون معترفين بالجميل على الدوام، وهو ما لا يشعر به الأوروبيون فى الوقت الراهن.

يبدو من وجهة نظر أوروبا «القديمة» أن أمريكا تميل إلى إهدار الإعجاب والامتنان، الذى يشعر به الأوروبيون. فقد كان التعاطف الشديد مع الولايات المتحدة فى أعقاب هجوم الحادى عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١ صادقًا وأصيلاً. (وأنا أشهد على حرارته وإخلاصه فى ألمانيا، حيث كنت فى برلين فى ذلك الوقت.) إلا أن ما أعقب ذلك كان تباعداً متزايداً على الجانبين.

ولابد أن يعرف مواطنو أغنى وأقوى دولة فى التاريخ أن أمريكا محبوبة، ومحسودة، بل ومستاء منها. ويعرف القليلون الذين يسافرون للخارج أن أوروبيين كثيرين ينظرون إلى الأمريكيين على أنهم أجلاف وغير مثقفين، ولا يترددون فى وضع هذه التوقعات موضع المقارنة بالسلوك الذى يوحى بالاستياء ممن كانوا مستعمرين فى يوم من الأيام. ويعزو عدد لا بأس به من الأوروبيين المثقفين، الذين يبدو أنهم يجدون إلى حد كبير متعة فى زيارة أمريكا أو العيش فيها، إلى الولايات المتحدة تلك القيم التحريرية الخاصة بالمستعمرة التى يتخلصون فيها من القيود وأعباء ثقافة «العودة للوطن» الرفيعة. وأذكر أن مخرجاً ألمانيا يعيش الآن فى سان فرانسيسكو قال لى إنه يحب العيش فى الولايات المتحدة «لأن المرء لا يجد أية ثقافة هنا». وكان عدد لا بأس به من الأوروبيين، الذين لابد أن نذكر أن بينهم دى إتش لورانس (الذى كتب إلى أحد أصدقائه فى عام ١٩١٥، حين كان يخطط للعيش فى الولايات المتحدة: «الحياة هناك تنبع من الجذور، وهى تتسم بالفظاظة ولكنها تتسم كذلك بالحيوية»)، يرى أن أمريكا هى المهرب الكبير. والعكس صحيح: فقد كانت أوروبا المهرب الكبير لأجيال من الأمريكيين الذين يبحثون عن «الثقافة». وأنا أتحدث هنا عن الأقليات فحسب، أى أقليات المتميزين. (فالكاتب أو المخرج السينمائى هو بالقطع أحد المتميزين.)

وهكذا ترى الولايات المتحدة نفسها الآن المدافع عن الحضارة ومنقذ أوروبا، وتتساءل عن سبب عدم إدراك الأوروبيين لذلك. بينما يرى الأوروبيون الأمريكيين على أنهم دولة من المحاربين المتهورين، وهو الوصف الذى يرد عليه الأمريكيون بالنظر إلى أوروبا على أنها عدو أمريكا؛ فالكلام الذى نسمعه كثيراً فى الولايات المتحدة هو أن أوروبا تتظاهر بحبها للسلام كى تساهم فى إضعاف القوة الأمريكية. وهم يظنون أن فرنسا على وجه الخصوص تخطط لأن تكون نداً لأمريكا فى تشكيل الشئون العالمية، بل وتتفوق عليها فى ذلك. وكان الاسم الذى اخترعه أحد كُتّاب صحيفة «نيويورك تايمز» لوصف

☞

الرغبة الفرنسية فى الهيمنة هو «عملية لابد من فشل أمريكا» Operation America Must Fail. بدلاً من أن يدركوا أن أية هزيمة أمريكية فى العراق سوف تشجع «الجماعات المسلمة المتشددة» من بغداد إلى أحياء باريس المسلمة، على مواصلة جهادها ضد التسامح والديمقراطية.

من الصعب ألا يرى الناس العالم من الناحية القطبية («هم» و«نحن») وهذه الناحية هى التى قوت فيما مضى الفكرة الانعزالية فى السياسة الخارجية الأمريكية مثلما تقوى الفكرة الإمبريالية فى الوقت الراهن. لقد تعود الأمريكيون على التفكير فى العالم من ناحية الأعداء. فالأعداء فى مكان ما، ويكاد القتال يكون «هناك» دائماً. حيث استعيض بالأصولية الإسلامية عن الشيوعية الروسية والصينية باعتبارها تهديداً لـ«أسلوب حياتنا». كما أن كلمة إرهابى أكثر مرونة من كلمة شيوعى. فمن الممكن أن توحد عدداً أكبر من المعارك والمصالح. وما قد يعنيه هذا أن الحرب لن تكون لها نهاية: حيث سيكون هناك إرهاب ما باستمرار (مثلما سيكون هناك فقر وسرطان على الدوام)، ذلك أنه ستكون هناك باستمرار صراعات غير متماثلة يستخدم فيها الجانب الأضعف ذلك الشكل من العنف، الذى عادة ما يستهدف المدنيين. وقد يؤيد الخطاب الأمريكى، إن لم يكن المزاج الشعبى، هذا الاحتمال البغيض، إذ إن الكفاح من أجل الاستقامة وصلاح الأمور لا ينتهى.

إن عبقرية الولايات المتحدة، الدولة شديدة التحفظ بطريقة يصعب على الأوروبيين سبر غورها، هى أنها ابتدعت شكلاً من أشكال التفكير المحافظ الذى يحتفى بالجديد وليس بالقديم. ولكن هذا يعنى كذلك أنه مثلما تبدو الولايات المتحدة شديدة التحفظ، على سبيل المثال فى القوة غير العادية الخاصة بالإجماع وسلبية الرأى العام وامتثاله (كما أشار توكفيل فى عام ١٨٣١) والإعلام، فهى كذلك متشددة، بل وثورية، بأشكال يجد الأوروبيون صعوبة فى سبر غورها.

من المؤكد أن جزءاً من اللغز يكمن فى الفصل بين الخطاب الرسمى والواقع المعاش. فالأمريكيون يمجدون «التقاليد» على الدوام ويعلون من شأنها: فالحديث عن القيم الأسرية هو محور كل خطاب سياسى. ومع ذلك تلحق ثقافة أمريكا ضرراً بالغاً بالحياة الأسرية، بل وبالتقاليد كلها، فيما عدا تلك التى عُدلت بحيث تشجع «الهويات» التى تتناسب مع الأنماط الكبرى الخاصة بالتميز والتعاون والانفتاح على التجديد والاستحداث.

ربما كان أهم مصدر للتشدد الأمريكى الجديد (وهو ليس بالجديد جداً) هو ما كان ينظر إليه على أنه مصدر القيم المحافظة، أى الدين. ولاحظ الكثير من المعلقين أنه ربما كان أكبر فرق بين الولايات المتحدة والدول الأوروبية (القديم منها والجديد طبقاً للتمييز الأمريكى الحالى) هو أن الدين فى الولايات المتحدة لا يزال يقوم بدور أساسى فى المجتمع والخطاب العام. ولكن هذا هو الدين على الطريقة الأمريكية، أى فكرة الدين أكثر من الدين نفسه.

صحيح أنه أثناء حملة جورج بوش الانتخابية فى عام ٢٠٠٠ خطر ببال أحد الصحفيين أن يطلب من المرشح ذكر اسم «الفيلسوف المفضل» لديه. فكان الرد الذى تلقاه هو «يسوع المسيح». وهو الرد الذى كان سيجعل من أى مرشح لمنصب رفيع من أى حزب من أحزاب الوسط هنا فى أية دولة أوروبية مادة للضحك. ولكن بوش لم يكن يعنى بالطبع أنه فى حال انتخابه سوف تكون حكومته ملتزمة بأى من المبادئ أو المشروعات الاجتماعية التى فسرها يسوع بالفعل. ولم يفهم أحد أن هذا هو ما يعنيه.

الولايات المتحدة مجتمع دينى بصورة عامة. ويعنى هذا أنه لا يهم فى الولايات المتحدة أى دين تعتنق، مادام لك دين. أما أن يكون هناك دين سائد، أو حتى حكومة من رجال الدين، أى الدين المسيحى (أو مذهب بعينه من مذاهب المسيحية)، فأمر مستحيل. وهذه الفكرة الحديثة الخالية نسبياً من مضمون الدين، التى بُنيت طبقاً للاختيار التجارى، هى أساس التوافق وصلاح الذات والنزعة الأخلاقية الأمريكية (التى يخلط الأوروبيون بينها وبين البيورتانية «التطهرية» البروتستانتية). ومهما كانت العقائد التاريخية التى تزعم الكيانات الدينية الأمريكية أنها تمثلها، فهى جميعاً تدعو إلى الشىء نفسه، وهو إصلاح السلوك الفردى، وإلى قيمة النجاح، والتعاون بين أفراد المجتمع، والتسامح مع الاختيارات الأخرى. (وهى كل القيم التى تعمل على







تحسين أداء الرأسمالية الاستهلاكية لوظيفتها وتيسيره.) وتضمن فكرة كون المرء متديناً نفسها أن يحظى بالاحترام، كما أنها تشجع النظام، وتوفر النوايا الفاضلة لمهمة قيادة العالم التى تقوم بها الولايات المتحدة وتضمنها.

إن ما يجرى نشره الآن. سواء أسمود ديمقراطية أم حرية أم حضارة. هو جزء من عمل قيد التنفيذ، كما أنه جوهر التقدم نفسه. فما من موضع فى العالم يجد فيه حلم التنوير موقعاً خصباً كالذى يجده فى أمريكا.

فهل نحن مختلفون اختلافاً كبيراً بالفعل؟ الغريب أنه فى الوقت الذى لم تكن فيه أوروبا وأمريكا على قدر كبير من التشابه من الناحية الثقافية، لم يكن هناك وجود لهذا الانقسام الكبير.

ومع ذلك، ورغم كل التشابهات فى حياة المواطنين اليومية فى الدول الأوروبية الغنية وحياة الأمريكيين اليومية، فإن الفجوة القائمة بين التجربة الأوروبية والتجربة الأمريكية فجوة حقيقية تقوم على اختلافات مهمة خاصة بالتاريخ، وبالأفكار المتعلقة بدور الثقافة، وبالذكريات الحقيقية والمتخيلة. ولا يمكن إزالة العداء. فالعداء موجود. فى المستقبل القريب، رغم النوايا الحسنة لدى كثير من الناس على جانبى الأطلنطى، إلا أن المرء لا يسعه إلا أن يرثى لحال من يرغبون فى تعميق تلك الاختلافات، فى الوقت الذى نشترك فيه فى أشياء كثيرة جداً.

إن هيمنة أمريكا حقيقة واقعة. ولكن لا يمكن لأمريكا أن تفعل كل شىء بمفردها، الأمر الذى بدأت الحكومة الحالية تدركه الآن. فمستقبل عالمنا. ذلك العالم الذى نتقاسمه. مستقبل توفيقى وأطيافه مختلطة. ذلك أننا لسنا معزولين عن بعضنا، وينفذ كل منا إلى الآخر أكثر وأكثر.

وفى النهاية يكمن نموذج أى تفاهم. أو إعادة للمياه إلى مجاريها. فى أن نتوصل إليه من التفكير بقدر أكبر فى التقابل القديم، أى «القديم» و«الجديد». ذلك أن التقابل بين «الحضارة» و«البربرية» يفرض شروطاً بعينها، والتفكير فيه يفسد الأمور، مهما بلغ احتمال كونه يعكس واقعاً بعينه. أما التقابل بين «القديم» و«الجديد» فحقيقى، ولا يمكن القضاء عليه، وهو موجود فى قلب ما نفهمه على أنه التجربة نفسها.

«القديم» و«الجديد» هما القطبان الأبديان لكل شعور أو إحساس بالتوجه فى العالم. فنحن لا يمكن أن نحيا بدون القديم، حيث استثمرنا فى هذا القديم كل ماضينا وحكمتنا وذكرياتنا وإحساسنا بالواقع. كما أنه لا يمكننا الحياة بدون الإيمان بالجديد، لأننا نستثمر فيما هو جديد كل طاقتنا، وقدرتنا على التفاؤل، ونزوعنا البيولوجى الأعمى، وقدرتنا على النسيان؛ وهى القدرة الشافية التى تستحيل بدونها كل أشكال المصالحة.

تميل الحياة العقلية إلى الشك فى الجديد. وسوف تكون الحياة العقلية التى جرى تكوينها بقوة مقاومة إلى حد كبير للجديد. فهم يقولون لنا إن علينا أن نختار: إما القديم أو الجديد. والواقع أنه من الواجب اختيار الاثنين. فما هى الحياة إن لم تكن سلسلة من المساومات بين القديم والجديد؟ يبدو لى أنه ينبغى لنا دائماً مناقشة هذه التقابلات شديدة الوضوح باستفاضة.

القديم مقابل الجديد، والطبيعة مقابل الثقافة: ربما كان من المحتم عرض الخرافات الكبرى الخاصة بحياتنا الثقافية باعتبارها جغرافيا، وليس على أنها تاريخ فحسب. ومع ذلك فهى لا تزيد على كونها خرافات وأقوالاً مبتذلة وقوالب منمطة. أما الواقع فهو أعقد من ذلك بكثير.

أمضيت جزءاً كبيراً من حياتى أحاول حل لغز طرق التفكير التى تخلق القطبية والتقابل. وإذا ما ترجمنا هذا إلى سياسة فهو يعنى دعم ما هو تعددى ودنيوى. وكشأن بعض الأمريكيين والكثير من الأوروبيين، فإننى أفضل إلى حد كبير العيش فى عالم متعدد الأطراف: عالم لا يهيمن عليه بلد واحد (بما فى ذلك بلدى). وقد عبرت عن تأييدى فى هذا القرن، المتوقع أن يكون قرناً آخر من التطرف والرعب، لمجموعة كاملة من الاتجاهات التحسينية: وعلى الأخص ما تسميه فيرجينيا وولف «قيمة التسامح الحزينة».

ولتسمحوا لى أن أتكلم أولاً وقبل كل شىء باعتبارى كاتبة، وباعتبارى على علاقة بعالم الأدب، ذلك أن هذا وحده هو ما تكمن فيه السلطة الوحيدة التى فى أيدينا.

لا تشق الكاتبة التى داخلى فى المواطنة الصالحة، و«السفيرة الفكرية»، والناشطة فى مجال الدفاع عن الحقوق؛ أى تلك الأدوار التى جاء ذكرها فى براءة الجائزة، رغم التزامى بها. فالكاتبة أكثر شكًا، وأكثر شكًا فى ذاتها، من تلك الإنسانة التى تحاول أن تفعل الشىء الصحيح (وتدعمه).

إحدى مهام الأدب هى صياغة الأسئلة وترتيب البيانات المضادة للبيانات التقليدية السائدة. وحتى حين لا يكون الفن تقابليًا، فإن الآداب تنجذب نحو الضد. فالأدب حوار، وتجاوب. قد يوصف الأدب بأنه تاريخ التجاوب الإنسانى مع ما هو حى وما يوشك على الموت حين تتطور الثقافات وتتفاعل مع بعضها البعض.

ويمكن للكُتّاب أن يفعلوا شيئًا ما لمناهضة تلك الأقوال المبتذلة الخاصة بانفصالنا واختلافنا؛ ذلك أن الكُتّاب صناع للخرافات وليسوا ناقلين لها فحسب. ولا يقدم الأدب الخرافات وحدها، بل يقدم كذلك الخرافات المضادة، مثلما تقدم الحياة التجارب المضادة؛ أى تلك التجارب التى تدحض ما كنا نظنه، أو نشعر به، أو نعتقده.

أظن أن الكاتب شخص يولى اهتمامًا بالعالم. وهو ما يعنى محاولة فهم الشر الذى تقدر عليه الكائنات البشرية واستيعابه والاتصال به، وألا يفسد هذا الفهم الكاتب ويجعله مستهترًا وسطحيًا.

فالأدب يخبرنا بما عليه العالم.

كما يقدم الأدب المعايير وينشر المعرفة العميقة المجسدة فى اللغة وفى السرد.

ويمكن للأدب أن يدرب قدرتنا على البكاء على من ليسوا نحن أو منا ويعرضها.

من عسانا نكون إن نحن لم نتعاطف مع من هم نحن أو منا؟ من عسانا نكون إن لم ننس أنفسنا، لبعض الوقت على الأقل؟ من عسانا نكون ما لم يكن بمقدورنا أن نتعلم، وأن نعفو، وأن نصبح شيئًا غير ما نحن عليه؟

فى مناسبة الحصول على هذه الجائزة الرفيعة، اسمحوا لى أن أحكى لكم شيئًا عن مسارى.

لقد ولدت ضمن الجيل الثالث من الأمريكيين الذين ينحدرون من أصول يهودية بولندية ولتوانية قبل أسبوعين من تولى هتلر السلطة. نشأت على أرض أمريكية (أريزونا وكاليفورنيا)، بعيدًا عن ألمانيا، ومع ذلك كانت ألمانيا تراودنى طيلة



طفولتى، وأعنى بذلك وحشية ألمانيا، والكتب الألمانية والموسيقى الألمانية التى أحببتها وكانت بالنسبة لى المعيار لما هو جاد ومكثف.

وحتى قبل باخ وبيتهوفن وشوبيرت وبرامز، كانت هناك بضعة كتب ألمانية. أذكر أحد المدرسين فى المدرسة الابتدائية فى بلدة صغيرة بأريزونا، وهو مستر ستاركى الذى أثار الرهبة فى نفوس تلاميذه بإخبارنا أنه حارب مع جيش بيرشنج فى المكسيك ضد بانشو بيا. ويبدو أن ذلك المحارب القديم ذو الشعر الأشهب الذى شارك فى إحدى المغامرات الاستعمارية الأمريكية المبكرة تأثر، من خلال المترجمات، بمثالية الأدب الألمانى.

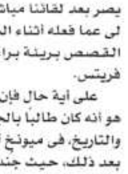
بعد وقت قصير، وأثناء نهمى الشديد للقراءة أثناء طفولتى، قادتنى المصادفة إلى كتب ألمانية أخرى بينها «فى المستوطنة العقابية»، حيث اكتشفت الرعب والظلم. وبعد ذلك ببضع سنوات، حين كنت طالبة فى المدرسة الثانوية بلوس أنجلوس وجدت أوروبا كلها فى رواية ألمانية. فلم يكن هناك كتاب أهم فى حياتى من «الجبل السحرى» الذى كان موضوعه على وجه التحديد هو صراع المُثل فى قلب الحضارة الأوروبية. وهكذا كان الحال خلال حياة طويلة مشبعة بالثقافة الألمانية الرفيعة. والواقع أنه بعد الكتب والموسيقى، التى كانت تجارب سرية بالفعل فى ظل الصحراء الثقافية التى عشت فيها، جاءت التجربة الحقيقية. فلأننى مستفيدة متأخرة كذلك من الشتات الثقافى الألمانى، فقد كان لى حظ معرفة بعض لاجئى هتلر الذين كانوا على قدر كبير من النبوغ، معرفة جيدة، وكان هؤلاء هم الكُتّاب والفنانون والموسيقيون الذين استقبلتهم أمريكا اعتبارًا من ثلاثينيات القرن العشرين، وعلى الأخص فى جامعاتها. واسمحوا لى أن أذكر اثنين خصانى بأن أكون فى عداد أصدقائهما، حين كنت فى نهاية عقدى الثانى وبداية العقد الثالث، وهما هانز جيرت وهربرت ماركوزه. وهؤلاء الذين درست معهم فى جامعة شيكاغو وفى هارفارد، وحنا أرندت التى التقيت بها فى نيويورك.

ولنعد إلى حين كنت طفلة فى العاشرة من عمرها تجد بعض الراحة من الواجبات المتعبة الخاصة بكونها طفلة عندما تقرأ بتمعن نسخ مستر ستاركى الممزقة من عملى جوته وشتورم. فى ذلك الوقت الذى أتحدث عنه، وهو عام ١٩٤٣، كنت أعرف أن هناك معسكرًا للأسرى فى الجزء الشمالى من الولاية به الآلاف من الجنود الألمان، وكنت أحسبهم بالطبع جنودًا نازيين. ولمعرفتى بأننى يهودية (اسمًا فقط، حيث كانت عائلتى علمانية تمامًا وكان قد جرى استيعابها منذ جيلين، ولكنى كنت أعرف أن «اسمًا» فيها الكفاية بالنسبة للنازيين) فقد كان ينتابنى كابوس متكرر يهرب فيه الجنود النازيون من الأسر ويشقون طريقهم عبر الولاية إلى حيث يوجد كوخ على أطراف البلدة أعيش فيه مع أمى وأختى ويوشكون أن يقتلونى.

ولنتقدم إلى سنوات عمرى اللاحقة، فى السبعينيات من القرن العشرين، حين بدأت دار هانزر فيرلاج نشر كتبى وتعرفت على فريتس أرنولد المحترم (وكان قد انضم للشركة فى عام ١٩٦٥) الذى كان محررى فى هانزر حتى وفاته فى فبراير ١٩٩٩.

فى إحدى المرات التى كنا فيها معًا، قال فريتس إنه يريد أن يخبرنى، مفترضًا، كما أظن، أن هذا شرط لأية صداقة قد تنشأ بيننا، بما فعله أثناء الحرب. قلت له إنه ليس ملزمًا من الناحية الأدبية بتقديم مثل هذا التفسير لى، إلا أننى تأثرت بالطبع بإثارته للموضوع. وينبغى أن أشير إلى أن فريتس أرنولد لم يكن وحده الألمانى الذى ينتمى إلى جيله من الألمان (هو من مواليد ١٩١٦) الذين كان الواحد منهم يصر بعد لقائنا مباشرة على أن يحكى لى عما فعله أثناء الحرب، ولم تكن كل القصص بريئة براءة ما سمعته من فريتس.

على أية حال فإن ما رواه لى فريتس هو أنه كان طالبًا بالجامعة يدرس الأدب والتاريخ، فى ميونخ أولاً ثم فى كولونيا بعد ذلك، حيث جند فى بداية الحرب برتبة عريف فى القوات المسلحة الألمانية Wehrmacht. لم تكن أسرته نازية بحال من الأحوال، فقد كان والده كارل أرنولد





رسام كاريكاتير سياسى أسطورى فى صحيفة «سيمبليسيسموس» Simplicissmus، إلا أنه بدا أن الهجرة كانت غير واردة، وقبل على مضض الاستدعاء للخدمة العسكرية، آملاً ألا يقتل أحدًا أو يقتله أحد.

كان فريتس واحدًا من المحظوظين. كان محظوظًا لأنه تمركز أولاً فى روما (حيث رفض دعوة الضابط الأعلى منه ترقيته إلى رتبة ملازم)، ثم فى تونس، وكان محظوظًا لأنه ظل خلف الخطوط ولم يطلق النار من سلاحه قط. وأخيرًا كان محظوظًا، إن كانت تلك هى الكلمة الصحيحة، لأن يأسره الأمريكيون فى عام ١٩٤٣، وأن تنقله سفينة عبر الأطلنطى مع غيره من الجنود الأمريكيين الأسرى إلى نورفولك بولاية فيرجينيا، ثم نُقل بالقطار عبر القارة ليقضى بقية فترة الحرب فى معسكر الأسرى فى بلدة صغيرة شمالى أريزونا.

حينذاك سرنى أن أقول له، وأنا أتنهد تعجبًا، ذلك أننى كنت قد بدأت بالفعل أعجب بهذا الرجل، وكانت تلك بداية صداقة عظيمة وكذلك علاقة مهنية مكثفة، لأنه بينما كان هو أسيرًا فى شمال أريزونا، كنت أنا فى جنوبها أشعر بالرعب من الجنود النازيين الذين كانوا هناك، أقصد هنا، ولم يكن منهم مهرب.

قال لى فريتس إن ما هوّن عليه فترة الثلاث سنوات تقريبًا التى أمضاها فى معسكر الأسرى فى أريزونا هو السماح له بالوصول إلى الكتب. فقد أمضى تلك السنوات الثلاث فى قراءة الأعمال الكلاسيكية الإنجليزية والأمريكية وإعادة قراءتها. فى حين أخبرته أنا أن ما أنقذنى كتلميذة فى أريزونا تنتظر أن تكبر، وتنتظر الهروب إلى واقع أكبر، هو قراءة الكتب: الكتب المترجمة وكذلك المكتوبة بالإنجليزية.

كان الوصول إلى الأدب، وأقصد الأدب العالمى، هروبًا من سجن الغرور القومى، وسجن النزعة المادية المبتذلة، وسجن المحلية الإجبارى، وسجن التعليم المدرسى الفارغ، وسجن الأقدار الناقصة وسوء الحظ. كان الأدب جواز المرور لدخول الحياة الأكبر؛ أى منطقة الحرية.

كان الأدب هو الحرية. ويكون الأدب هو الحرية على وجه الخصوص فى الزمن الذى تواجه فيه قيم القراءة والاستغراق فى الحياة العقلية والروحية تحديات صعبة. ■

[١]

■ ■ تعتبر تجربة التنمية فى ماليزيا تجربة مهمة بالنسبة للبلدان العربية باعتبارها تجربة تمت فى بلد إسلامى بهدف التنمية والنهوض الاقتصادى، فى ظل سياسة منفتحة على العالم الخارجى. وتستمد هذه التجربة خصوصيتها من أنها محاولة جريئة للدخول فى دائرة العولمة مع الحفاظ على درجة كبيرة من هامش الوطنية الاقتصادية، ولقد نجح تطبيق تلك المعادلة الصعبة، فى ظل القيادة الحكيمة لرئيس الوزراء الماليزى الدكتور محاضير محمد، حيث ركزت قيادة محاضير محمد منذ عام ١٩٨١ على ثالوث «النمو، التحديث، التصنيع»، باعتبار تلك القضايا الثلاث أولويات اقتصادية وطنية. كما تم التركيز على مفهوم: ماليزيا كشراكة (Malaysia Incorporated)، أى باعتبارها شراكة بين القطاع العام والقطاع الخاص، من ناحية، وشراكة بين الأعراق والفئات الاجتماعية المختلفة التى يتشكل منها المجتمع الماليزى، من ناحية أخرى.

ويعتبر «محاضير محمد» إحدى القيادات التاريخية فى العالم الثالث التى تستلهم روح باندونج. وقد تأكدت هذه الروح فى صيف ١٩٩٧، عندما اصطدمت المصالح الوطنية الاقتصادية لماليزيا فى النمو والتطور بسلبيات العولمة، ولاسيما فى ظل عمليات العولمة المالية، حيث أدت حركة رؤوس الأموال القصيرة الأجل «الأموال الساخنة» إلى الأزمة المالية المعروفة فى صيف ١٩٩٧، الأمر الذى أدى إلى قيام محاضير محمد بالتمرد على قواعد العولمة، والقيام بإجراءات أوائل سبتمبر ١٩٩٨ الشهيرة التى أدت إلى فرض القيود على خروج رؤوس الأموال القصيرة الأجل التى تقودها روح المضاربة، وتم تثبيت سعر صرف العملة الماليزية، وتخفيض أسعار الفائدة بهدف الدفاع عن الاقتصاد القومى وإنعاشه وإخراجه من دائرة الأزمة.

ورغم محاولة الغرب ودوائر المال العالمية إثارة الاضطرابات السياسية لزعزعة نظام محاضير محمد، تحت شعار حركة الإصلاح السياسى (Reformasi)، فى محاولة للانتقام منه باعتباره يضرب مثلا قد يحتذى فى عدد من البلاد النامية فى مجال التمرد على قواعد العولمة وعدم الانصياع لبرامج «صندوق النقد الدولى» فى عملية الإنقاذ المالى والخروج من الأزمة، على غرار ما حدث فى تايلاند وإندونيسيا وكوريا الجنوبية، فلقد نجحت ماليزيا فى تجاوز الأزمة، وواصلت مسيرة التنمية بشروطها الوطنية.

[٢]

بدأت مسيرة التنمية فى ماليزيا غداة الحصول على الاستقلال عام ١٩٥٨، حيث تم اللجوء إلى الاستراتيجيات التقليدية وهى الإحلال محل الواردات. وكانت البداية التركيز على صناعات السلع الاستهلاكية التى كان معظمها مملوكاً لشركات أجنبية. وسرعان ما تبين قصور استراتيجية «الإحلال محل الواردات» كمحور أساسى لعمليات التنمية المتواصلة، نظراً لضيق السوق المحلية وضعف حجم الطلب المحلى، الذى عزز من ضعفه سوء توزيع الدخول بين فئات المجتمع المختلفة. ورغم تحقيق قدر من التنويع فى منتجات القطاع الزراعى، فقد ظلت عمليات التصنيع خلال الستينيات محدودة ولم تحقق طفرة كبيرة فى حجم العمالة والقيمة المضافة.

وقبل وصول «محاضير محمد» إلى السلطة، تم إنجاز الخطة الماليزية الثانية «١٩٧١ . ١٩٧٥» والخطة الماليزية الثالثة «١٩٧٦ . ١٩٨٠». وقد اتسم التحول فى هذه الفترة بتطوير دور الدولة التدخلى، وتوسيع رقعة القطاع العام فى الحياة الاقتصادية الماليزية. ولقد ساعدت الزيادة فى عائدات النفط فى تمويل الحجم المتزايد للنفقات العامة. كما شهدت تلك الفترة بداية التوجه التصديرى فى عمليات التصنيع، حيث بدأ التركيز على صناعة المكونات الإلكترونية وبعض المنتجات التصديرية الأخرى. وقد اتسمت هذه الصناعات التصديرية بأنها كثيفة العمالة، مما نتج عنه التوسع الكبير فى حجم العمالة، وبالتالى انخفاض معدل البطالة وتحسين إنتاجية العمل. كما رافق هذه الفترة تحسين توزيع الدخول والثروات

محاضير محمد.. الطبيب



الذى ضمد جراح ماليزيا!

محمود عبد الفضيل

بين الأعراق المختلفة التى يتكون منها المجتمع الماليزى، ولاسيما فى ما بين النخبة الصينية، التى كانت تسيطر على معظم نشاط الأعمال فى الاقتصاد الماليزى خلال فترة الاستعمار البريطانى، والسكان ذوى الأصل الملايى الذين يشكلون الأغلبية.

ثم بدأت فترة التصنيع الكثيف فى الثمانينيات، وكانت الخطة الماليزية الرابعة «١٩٨١ - ١٩٨٥» تمثل بداية مسيرة التنمية التى تم تصميمها فى ظل قيادة محاضير محمد، حيث تركزت عملية التنمية فى محورين:

- موجة جديدة من الصناعات التى تقوم بعمليات الإحلال محل الواردات.
- الصناعات الثقيلة فى إطار ملكية القطاع العام.

وتمثل هذه الفترة مرحلة تعميق القاعدة الصناعية فى الاقتصاد الماليزى، قبل الانطلاق إلى آفاق التصدير الجديدة.

ثم دخل مشروع «محاضير محمد» دائرة التطبيق بجدية خلال الفترة ١٩٨٧ - ٢٠٠٠، إذ اتسمت تلك الفترة بإنجاز ثلاث خطط خمسية مترابطة وهى: الخطة الماليزية الخامسة «١٩٨٦ - ١٩٩٠»، الخطة الماليزية السادسة «١٩٩١ - ١٩٩٥»، الخطة الماليزية السابعة «١٩٩٦ - ٢٠٠٠».

وهكذا شهدت الفترة الممتدة بين منتصف الثمانينيات ونهاية التسعينيات، تبلور مشروع محاضير محمد فى التنمية الاقتصادية المنفتحة على العالم الخارجى، من دون التخلى عن مقومات الوطنية الاقتصادية. وقد تميزت هذه الفترة بإفساح المجال للقطاع الخاص وتشجيعه وإعطائه المزيد من الحوافز على الاستثمار والمشاركة الفعالة فى مسيرة التنمية. كما تم السماح لرأس المال الأجنبى المباشر بالاستثمار فى الاقتصاد الماليزى وفقاً لضوابط معينة. وقد أدت هذه الحزمة من السياسات إلى:

- تنشيط عمليات النمو الصناعى.
- تعميق التوجه التصديرى فى عمليات التصنيع.
- تحديث البنية التحتية للاقتصاد الماليزى.
- مزيد من التعاون الاقتصادى الإقليمى فى إطار مجموعة بلدان الآسيان.
- تطوير طبقة من رجال الأعمال الماليزيين من «ذوى الأصول الملاوية».

شهدت الفترة الممتدة بين منتصف الثمانينيات ونهاية التسعينيات، تبلور مشروع محاضير محمد فى التنمية الاقتصادية المنفتحة على العالم الخارجى، من دون التخلى عن مقومات الوطنية الاقتصادية. وقد تميزت هذه الفترة بإفساح المجال للقطاع الخاص وتشجيعه وإعطائه المزيد من الحوافز على الاستثمار والمشاركة

[٣]

لم يكن الاجتماع السنوى للبنك الدولى وصندوق النقد الدولى المنعقد فى هونج كونج فى أواخر سبتمبر من عام ١٩٩٧ اجتماعا عاديا أو روتينيا، بل كان اجتماعا عاصفا يمثل أول مواجهة بين بلدان «العالم الأول» وبلدان «آسيا الناهضة» حول بعض الآثار والتداعيات السلبية لعمليات العولمة فى المجال المالى. ولعل أهم موقعة جرت على هامش هذا الاجتماع هى تلك التى دارت بين «محاضير محمد» رئيس وزراء ماليزيا وبين «جورج سوروس» أكبر مضارب مالى فى العالم حول مضار الإتجار فى العملات فى ظل عمليات التحرير المالى المصاحب للعولمة. إذ تعرضت ماليزيا خلال شهور صيف عام ١٩٩٧ لمضاربات شديدة أدت إلى تخفيض قيمة العملة بنحو ٢٥٪ خلال ثلاثة شهور، وهو انخفاض لا علاقة له بالأداء الحقيقى للاقتصاد الماليزى.

ولهذا اعتبر «محاضير محمد» فى خطابه أمام الاجتماع السنوى للبنك والصندوق أن عمليات المضاربة فى العملات «غير مبررة وغير منتجة ولا أخلاقية» حسب نص قوله، بل إن تلك المضاربات تصبح أكثر خطورة وضررا فى حالة البلدان النامية المنفتحة على السوق العالمية التى لا تحتمل تلك الهزات فى قيمة عملاتها، وما يصاحب ذلك من اضطرابات اقتصادية تمس جوهر الاقتصاد الحقيقى، وتدفقاته العينية من عمالة وإنتاج وإستيراد وتصدير.

وقد أثارت تصريحات «محاضير محمد» وتهديداته هياج دوائر المال الغربية، وبدأت «العمليات التأديبية» تتتابع من خلال مزيد من التخلص من العملة الماليزية وللأسهم المقوّمة بالدولار فى سوق المال الماليزية، وبدأت التقارير الغربية تتحدث عن توقعات التدهور فى أوضاع الاقتصاد الماليزى مستقبلاً، بل إن مؤسسة «ستاندارد آند بور» التى تقوم بتقويم مخاطر الاستثمار فى البلدان النامية، قامت بتخفيض مرتبة ماليزيا خلال بضعة أشهر فقط من «اقتصاد إيجابى» إلى «اقتصاد مستقر» ثم إلى مرتبة «اقتصاد سلبى».

كانت تلك الحملة المنظمة تهدف إلى تخويف وإرهاب كل زعيم سياسى يجرؤ على التصدى لبعض الآثار الضارة الناجمة عن عمليات التحرير المالى. بل بدأت بعض الصحف الغربية والمجلات المتخصصة تتحدث عن فضائل المضاربة وأن المشاكل إنما تعود إلى سوء الإدارة الاقتصادية فى ماليزيا، وأنها ليست من صنع المضاربين العالميين. حتى أن مجلة «الإيكونوميست» اللندنية، وجهت إحدى افتتاحياتها إلى «محاضير محمد» بعنوان: «عليك أن تتعلم أن تحب جورج» فى إشارة إلى «جورج سورس» المضارب الكبير، باعتبار أن تلك هى قواعد اللعبة. فإذا فتحت أسواق العملات وأسواق الأسهم والسندات على الغارب للمتعاملين والمستثمرين الأجانب، فلا تشكو بعد ذلك من مضارباتهم!

بيد أن تلك المناوشات كانت تشير إلى ما هو أعمق وأخطر من تطورات فى بنية الاقتصاد العالمى الجديد، وهو أن حجم الإتجار فى العملات قد فاق بما يقاس حجم التجارة الحقيقية فى السلع والخدمات فى السنوات العشر الأخيرة. ففى عام ١٩٩٥، على سبيل المثال، كان حجم التعامل فى «تجارة العملات» يصل إلى ٢،١ تريليون دولار أمريكى فى اليوم الواحد، وهذا ما يمثل ٥٠ ضعفاً من قيمة التجارة الدولية فى السلع والخدمات، بينما كان هذا الرقم يصل إلى ستة أضعاف فقط فى أوائل السبعينيات. ولذا فإن الجانب الأكبر من التعاملات المالية فى مجال الإتجار فى العملات والأسهم والسندات تحكمه قرارات المضاربين أو من يمثلهم من وكلاء محترفين.

ورافق هذا التطور، حصول «محاضير محمد» على غطاء نظرى هام من أحد كبار الاقتصاديين الأمريكيين، بول كروجمان أستاذ الاقتصاد المرموق فى معهد ماسوستش للتكنولوجيا (MIT)، الذى حبذ لجوء البلدان الآسيوية التى تعانى من أزمة مالية حادة إلى فرض قيود على العملة وعلى حركة دخول وخروج رؤوس الأموال قصيرة الأجل، إذ قال: «إذا كانت النيران مشتعلة فى بيتك، فلا تسكب مزيداً من الزيت لإلهاب الحريق»، من خلال فتح أبواب الاقتصاد الوطنى على مصراعيه أمام المزيد من هجمات المضاربين والمغامرين الماليين!

كذلك كان أهم ما ساعد «محاضير محمد» هو أنه تحرر من قيود ومشروطية صندوق النقد الدولي التي تضمنتها برامج الإنقاذ في إندونيسيا، وتايلاند، وكوريا الجنوبية، ومن هنا فقد كانت له حرية الحركة والاجتهاد، دون أن تكون يده مغلولة كما هو الحال بالنسبة لصانعي القرار في البلدان المجاورة.

وقد أثبتت التطورات اللاحقة نجاحاً نسبياً للسياسات الاقتصادية التي طبقها «محاضير محمد» وفريقه، إذ:

* زادت الاحتياطيات الرسمية لماليزيا من النقد الأجنبي بمقدار بليون دولار أمريكي خلال الأسابيع الأولى من شهر سبتمبر، نتيجة عودة الأرصدة المملوكة للماليزيين في حسابات «غير مقيمة» في البلدان المجاورة «لا سيما سنغافورة».
* ارتفعت أسعار الأسهم في بورصة كوالالمبور «عاصمة ماليزيا».
* أعلن أصحاب الاستثمارات الأجنبية المباشرة طويلة الأجل، أنهم يرحبون باستقرار سعر الصرف للعملة الماليزية، وأن عدم تقلبات سعر الصرف يساعد على تخطيط الاستثمارات واستقرار المعاملات بشكل أفضل.

ويكمن «عنصر المهارة» في حزمة السياسات التي طبقها الطاقم الاقتصادي الجديد رغم ما تنطوي عليه من مخاطر في أن تخفيض سعر الفائدة، تزامن مع تثبيت سعر الصرف للعملة الوطنية، وقطع الطريق على المضاربات في العملة والأسهم الماليزية من خلال وقف التعامل على العملة والأسهم في الأسواق الخارجية، وبالتالي عزلها مؤقتاً عن غارات المضاربين والمغامرين الماليين الذين يستفيدون من ضعف الاقتصادات الوطنية في لحظات الأزمة.

كذلك تمت مطالبة المواطنين الماليزيين بإعادة توطين أرصدتهم من العملة الوطنية المودعة في البنوك الخارجية في موعد أقصاه شهران من تاريخ القرارات، حتى لا تكون ساحة للمضاربات في الخارج، ولضخ مزيد من السيولة في الاقتصاد المحلي. وقد تم تخفيض نسب الاحتياطي التي تحتفظ بها البنوك لدى البنك المركزي، الأمر الذي يساعد على ضخ مزيد من السيولة والتوسع في الإقراض للمشروعات المنتجة، ذات الطاقة التصديرية الجيدة.

[٤]

ورغم ذلك، جرت محاولات محمومة لفتح ثغرات في دفاعات النظام الماليزي، الذي يقوده «محاضير محمد»، لإفشال التجربة، وذلك من خلال محورين:

* استغلال قضية الصراع السياسي على السلطة الذي تفجر إثر عزل «أنور إبراهيم» من منصبه كنائب لرئيس الوزراء ووزير المالية، من خلال خلق حالة من الاضطراب السياسي والإرباك المؤسسي. وقد حاول «أنور إبراهيم» وأنصاره تصعيد حركة الاحتجاج تحت شعار «الإصلاح السياسي» (Reformasi)، بتشجيع واضح من دوائر غربية، والهدف هو إزاحة «محاضير محمد» من السلطة لإسقاط سياساته الاقتصادية التي تعتبر معادية لدوائر رأس المال المالي العالمي.

وكان هذا الأمر يتطلب معالجة حكيمة وماهرة من «محاضير محمد»، للحد من التجاوزات وقطع الطريق على استغلال بعض الأخطاء السياسية والإجرائية لخلق حالة من الاضطراب والانقسام السياسي في البلاد. وجدير بالذكر أن الاضطرابات الأخيرة أدت إلى تقلص الدخل السياحي بنسبة ٣٠٪، مما يشير إلى أن توقيت التصعيد مقصود بذاته لإفشال التجربة الاقتصادية «الخارجة عن الطوع» في ماليزيا.

* محاولة فتح ثغرات في الدفاعات الخاصة بحماية «العملة الماليزية» من المضاربات الخارجية، من خلال خلق «أسواق سوداء» للعملة الماليزية في البلدان المجاورة في سنغافورة وتايلاند، حيث توجد تجارة ومعاملات مالية بين مواطنين وتجار ومستثمرين من تلك البلدان وماليزيا.

وهكذا فإن «محاضير محمد» كان يسير على حبل مشدود، لأن سياساته الجديدة تقوم على توازن دقيق بين «العام» و«الخاص» من ناحية، وبين «الداخل» و«الخارج» من ناحية أخرى، وخاصة في بلد قطع بعض الشوط في مجال الانفتاح على آليات العولمة. ولذا أخذ الجميع يرقب هذه التجربة باهتمام كبير، وهناك من كان يتمنى لها النجاح ويتعاطف معها كما أعرب عن ذلك العديد من المسئولين في الصين وتايلاند، وإندونيسيا، وتايوان، وكذلك العديد من بلدان العالم الثالث. وكان هناك آخرون ممن يتمنون لها الفشل الذريع في دوائر المال الغربية، لتكون عبرة لكل من يريد التمرد على قواعد العولمة وشبكتها العنكبوتية.

وقد ركزت الولايات المتحدة هجومها على «محاضير محمد»، وقد أخذ الهجوم شكلاً دراميا على لسان نائب الرئيس الأمريكي «آل جور» في خطاب ألقاه في مأدبة غداء عشية الافتتاح الرسمي لأعمال المنتدى الاقتصادي «إيبك» المنعقد في العاصمة الماليزية «كوالالامبور» إذ اختتم نائب الرئيس الأمريكي خطابه بأسلوب درامي وجه فيه التحية للمعارضين الشجعان الذين يطالبون بالإصلاح السياسي (Reformasi) في ماليزيا، ويعارضون حكم وقيادة «محاضير محمد» رئيس الوزراء وزعيم الحزب الحاكم وكانت لهجة الخطاب تمثل تحدياً سافراً للدولة المضيفة وقياداتها السياسية، إذ أن إلقاءه تم في حضور رئيس الوزراء «محاضير محمد» نفسه.

وقد أثار هذا الخطاب سلسلة من ردود الفعل الغاضبة والصاخبة داخل ماليزيا وخارجها، بما في ذلك بين أعضاء الوفود الآسيوية التي تحضر أعمال المنتدى. واعتبر المراقبون المحايدون أن نائب الرئيس الأمريكي لم يحسن تقدير الموقف، ومارس «غطرسة القوة» دون أدنى لياقة أو اعتبار لأصول الدبلوماسية. وقد عبرت السيدة «رافيده عزيز» «وزيرة التجارة الماليزية» عن دهشتها واشمئزازها مما جاء في خطاب نائب الرئيس الأمريكي. وقالت في تصريح فوري «أنها تتمنى ألا تعيش لكي تستمع إلى مثل هذه العبارات الوقحة وغير اللائقة مرة أخرى في حياتها».

وبالطبع لم يأخذ أحد مأخذ الجد دفاع نائب الرئيس الأمريكي «آل جور» الحار عن «الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والتعددية، في آسيا .. وأنها ضرورة لدعم عمليات «الانتعاش الاقتصادي» على حد قوله. فالسجل الأمريكي في هذا المجال لا يؤيد موقفاً مبدئياً ثابتاً بهذا الصدد، بل على العكس لم تحرك الولايات المتحدة ساكناً عندما وقع انقلاب عسكري قاده «بنوشيه» في تشيلي عام ١٩٧٣ ضد حكومة منتخبة بإرادة الشعب الحرة، وتم قتل رئيس الجمهورية المنتخب «سالفادور الليندي» في قصره الرئاسي. وكذلك كان الحال في إندونيسيا، عندما قام الجنرال «سوهارتو» بانقلابه العسكري الدموي عام ١٩٦٥، الذي ذهب ضحيته عشرات الآلاف من السياسيين والكوادر المهمة في إندونيسيا. وكلها أحداث جسام، تم فيها اغتيال الديمقراطية وانتهاك حقوق الإنسان بوحشية وفي وضح النهار.

فالكل كان يعلم أن جوهر الخلاف مع ماليزيا، والسبب الحقيقي وراء تصعيد الضغوط على قيادتها السياسية الراهنة، هو الضيق الشديد للولايات المتحدة ودوائر رأس المال المالي العالمي من السياسات الاقتصادية التي تتبعها حكومة ماليزيا منذ بداية سبتمبر ١٩٩٨ لحماية اقتصادها الوطني من غارات المضاربين، ومحاولة تنشيط وإنعاش الاقتصاد الوطني باستقلالية بعيداً عن مشروطية صندوق النقد الدولي. إذ إن نجاح هذه التجربة، سوف يحرص العديد



أخذ الجميع يرقب هذه التجربة باهتمام كبير، وهناك من كان يتمنى لها النجاح ويتعاطف معها، وكذلك العديد من بلدان العالم الثالث. وكان هناك آخرون ممن يتمنون لها الفشل الذريع في دوائر المال الغربية

من بلدان آسيا البازغة على مزيد من التمرد على قواعد العولمة وسياسات صندوق النقد الدولي. ولذا لابد من إسقاط هذه التجربة في المهد، بأي ثمن قبل أن تنجح.

[٥]

كان مشهد خروج «محاضير محمد» من قصر رئاسة الحكومة في كوالالامبور مشهداً غير مألوف في أنحاء العالم العربي والإسلامي. فكثيرا ما ارتبطت صورة الحكام في العالم الثالث بالاستبداد والتخلف. لكن تقاعد «محاضير» ، دون مرض عقلي أو جسدي أو انقلاب، أو قلاقل اجتماعية وسياسية، كان يقدم صورة مغايرة.

نعم لقد استعار «محاضير» ، خلال مسيرة التنمية في ماليزيا، الكثير من عناصر الرأسمالية من أجل بناء «المعجزة الماليزية». لكنه ابتكر مزيجاً فريداً من نوعه، بين تلك «الرأسمالية الموجهة» وإثارة الحمية الوطنية والإسلامية والخصوصية الماليزية «والقيم الآسيوية». وأضاف إلى هذه المعادلة خليطًا من المفاهيم والسياسات التي تؤكد على تغليب صيغة المصلحة المجتمعية، على المصالح والنوازع الفردية.

وقد أكد «محاضير» ، أكثر من مرة أن سياسة ماليزيا تكمن في تحقيق مقومات «التنافسية» في الأسواق العالمية، مع تحقيق السلام الاجتماعي والسياسي في الداخل.

وقد ختم «محاضير» ، مسيرته السياسية الطويلة، بكلمته التي ألقاها خلال قمة المؤتمر الإسلامي المنعقد مؤخراً في «كوالالامبور»، حيث قال: «قتل الأوروبيون ستة ملايين يهودي من أصل ١٢ مليوناً، إلا أن اليهود اليوم يحكمون هذا العالم بالوكالة. إنهم يجعلون الآخرين يحاربون ويقتلون عنهم».

وفي أعقاب هذا التصريح، قام مجلس الشيوخ الأمريكي بتجميد المساعدات العسكرية لماليزيا، ورد «محاضير محمد» على هذا الإجراء بقوله: بأن ذلك «لا يشكل أي فارق بالنسبة إلينا، لأننا لا نحتاج إلى ذلك المال». وأضاف «محاضير محمد» متهكماً: «لا جدوى من أن يكون لدينا انتخابات خاصة بنا، والأفضل لنا أن نصوت في الانتخابات الأمريكية وعندئذ سنكون متأكدين من أن لدينا الممثل الصحيح هناك»!

وجدير بالذكر أن «ماليزيا» لا تحصل على مساعدات اقتصادية أو للتنمية من الولايات المتحدة، وهنا يكمن سر قوتها في مقاومة الضغوط الخارجية، ولاسيما الضغوط الأمريكية.

وقد ظلت المرارة من آثار الاستعمار والتدخلات الغربية بدءاً من البرتغاليين ثم الهولنديين والبريطانيين، تلازم «محاضير محمد» طوال حياته. وقد وُلد «محاضير محمد» عام ١٩٢٥، ودرس الطب في سنغافورة، وعاد لوطنه لممارسة الطب في إطار وزارة الصحة الماليزية، ثم استقال وفتح عيادة خاصة لممارسة الطب في مسقط رأسه (Alor Setar).

وكان «محاضير محمد» قد بدأ ممارسة السياسة من خلال نشر كتابه «معضلة ماليزيا» عام ١٩٧٠، حيث دعا لضرورة تدخل الدولة بشكل جدي للخروج من حالة التخلف في ماليزيا، وقد تم منع هذا الكتاب من التداول، الأمر الذي أثار جدلاً طويلاً في ذلك الوقت.

***

وكان «محاضير محمد» متمرداً طوال حياته، سواء في الداخل أو في الخارج، حيث كتب عام ١٩٦٩ خطاباً نقدياً شديد اللهجة إلى رئيس الوزراء آنذاك «تنكو عبد الرحمن»، الأمر الذي أدى إلى طرده من الحزب الحاكم (UMNO)، ثم أعيدت إليه عضويته في الحزب عام ١٩٧٢ ، ومنذ عام ١٩٧٤، تفرغ تماماً للعمل السياسي حتى وصل إلى منصب رئيس الوزراء في ١٦ يوليو عام ١٩٨١ حتى تقاعده.

ولعل آخر أعمال «محاضير محمد»، الذي يعتبر بمثابة «المؤلف الوصية»، هو (New Deal for Asia A)، حيث يطرح «محاضير محمد» رؤيته بالنسبة لآسيا الجديدة الناهضة لاستعادة مكانتها تحت الشمس، في ظل النظام الاقتصادي المعولم، ويرسم خطى الطريق نحو المستقبل.

ومهما اختلف المحللون والمؤرخون في تقييم سياسات ومواقف ومقولات «محاضير محمد»، فسوف يظل هذا الرجل من أعظم زعماء آسيا الحديثة. فهو الطبيب الماهر الذي ضمد جراح ماليزيا في أوائل الثمانينيات وعالج أدواءها ووضعها على طريق النمو والارتقاء مع بداية القرن الواحد والعشرين، في ظل ظروف دولية صعبة وموارد محلية محدودة.

فتحية لهذا الرجل الذي قد يعتبر بحق آخر زعماء العالم الثالث المحترمين. ■

الغـــــرب والإســـــلام..

محـمـــــد الســـمــاك

■■ المواعظ الدينية التى ألقاها الجنرال وليام بويكين نائب وزير الخارجية لشئون الاستخبارات فى عدد من الكنائس الأمريكية وهو بالزى العسكرى لم تأتِ من فراغ. صحيح أنها تعرضت لانتقادات شديدة من شخصيات سياسية فى الحزبين الجمهورى والديموقراطى، ومن شخصيات دينية مرموقة تمثل عدداً من الكنائس الأمريكية الكبيرة، إلا أن الصحيح أيضاً أن اتهام المسلمين بأنهم يعبدون الأصنام وأنهم يستهدفون الولايات المتحدة لأنها أمة مسيحية، وأن الإسلام يمثل الشيطان، إن هذه الاتهامات تعكس ثقافة دينية عميقة الجذور فى التربية المدنية والسياسية.

فى منتصف القرن التاسع نشر المؤرخ البيزنطى جورج هامر تولوس كتاباً عن تاريخ الإنسانية، فى الفصل ٢٣٥ من هذا الكتاب وصف المسلمين بأنهم «رجال أغبياء مشوشو العقول». ومن بعده وجه الراهب الفرنسى هيو كلونى رسالة إلى أحد الأمراء المسلمين دعاه فيها إلى الارتداد عن الإسلام واعتناق المسيحية، مبرراً دعوته بقوله: «لقد خدع الشيطان أحفاد إسماعيل بالنسبة لإيمانهم بمن يعتقدون انه نبى، فكان طبيعياً أن يكون عقابهم نار جهنم».

وفى أواسط القرن التاسع عشر حرمت الحكومة الإنجليزية على رعاياها شرب القهوة. كانت حبات البن تُعرف يومذاك باسم «حبات محمد». وكان هناك اعتقاد بأن من يشرب القهوة يرتد عن مسيحيته إلى الإسلام وان الأتراك المسلمين يتآمرون على المسيحية فى بريطانيا من خلال القهوة.

وقد تمكن رئيس أساقفة كانتربرى الأسقف لاند من استصدار قانون عن مجلس العموم فى عام ١٦٣٧ يمنع أى بريطانى من اعتناق الإسلام.

قبل وفاة الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون صدر له كتاب عنوانه «اقتناص اللحظة». كشف فيه بكثير من الوضوح عن ثقافة كراهية الإسلام. فقال فى الصفحة (١٩٥):

«يحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يكون قوة جغرافية متعصبة ومتراصة، وأن نمو عدد أتباعه ونمو قوته المالية سوف يفرضان تحديا رئيسيا. وأن الغرب سوف يضطر لتشكيل حلف جديد مع موسكو من أجل مواجهة عالم إسلامى معاد وعنيف. إن وجهة النظر هذه، يضيف نيكسون، تعتبر أن الإسلام والغرب على تضاد • وأن المسلمين ينظرون إلى العالم على أنه يتألف من معسكرين لا يمكن الجمع بينهما، دار الإسلام، ودار الحرب».

عكس نيكسون فى كتابه صورة بشعة عن العالم الإسلامى عندما قال: (ص ١٩٤): «إن معظم الأمريكيين ينظرون نظرة موحدة إلى المسلمين على أنهم غير متحضرين، قذرون، برابرة، غير عقلانيين، لا يسترعون انتباهنا إلا لأن الحظ حالف بعض قادتهم وأصبحوا حكاما على مناطق تحتوى على ثلثى الاحتياطى العالمى المعروف من النفط».

ولا شك فى أن كثيرين فى الولايات المتحدة وفى الغرب يشاركون نيكسون وجهة نظره التى يقول فيها (ص ١٩٦) «إنه يوجد فى العالم الإسلامى عاملان اثنان مشتركان فقط: هما الدين الإسلامى والاضطراب السياسى».

بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتى وانحلال حلف وارسو، جرى تصعيد متعمد للعدوانية الغربية ضد الإسلام، حتى أن مدير معهد بروكنجز فى واشنطن Brookings Institution هيلموت سوننفيل يقول: إن حلف شمال الأطلسى سوف يعيش، وأن الغرب سيبقى مجموعة دول لها قيم أساسية مشتركة. وستبقى هذه المجموعة متماسكة معا من خلال الشعور بخطر خارجى: الموقف من الفوضى أو التطرف الإسلامى».

وفى ربيع ١٩٩٠ ألقى هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق خطابا أمام المؤتمر السنوى لغرفة التجارة الدولية، قال فيه: «إن الجبهة الجديدة التى يتحتم على الغرب مواجهتها هى العالم العربى الإسلامى، باعتبار هذا العالم هوالعدو الجديد للغرب». وأن حلف الأطلسى باق، رغم انخفاض حدة التوتر بين الشرق والغرب فى أوروبا، ذلك أن «أكثر الأخطار المهددة للغرب فى السنوات القادمة آتية من خارج أوروبا، وفى نهاية التسعينيات فإن أخطر التحديات للغرب ستأتى من ناحيتى الجنوب (أى المغرب العربى) والشرق الأوسط».

وكانت مجلة الإيكونوميست البريطانية المعروفة برصانتها قد نشرت فى الوقت نفسه على الغلاف موضوعا بعنوان: «الإسلام الأيديولوجية البربرية المعادية للغرب». وجاء فى دراسة أخرى نشرتها مجلة ألمانية متخصصة فى الدراسات الاستراتيجية إثر انتهاء الحرب الباردة وسقوط الشيوعية فى عام ١٩٩٠ أعلن الأمين العام لحلف شمال الأطلسى ولى كلايس (تولى منصب وزير الاقتصاد فى بلجيكا فيما بعد): «لقد حان الوقت الذى يجب علينا فيه أن نتخلى عن خلافاتنا وخصوماتنا السابقة وأن نواجه العدو الحقيقى لنا جميعاً وهو الإسلام.. إن الأصولية الإسلامية هى على الأقل فى مستوى خطورة الشيوعية سابقاً».

وفى يونيو من عام ١٩٩٤ انتهت مهمة الجنرال جون كالفان القائد الأعلى لقوات حلف شمال الأطلسى. وفى الاحتفال التكريمى الذى أقيم له فى بروكسل، ألقى كلمة تحدث فيها عن الآفاق المستقبلية للحلف ولدوره. تستوقفنا من كلمته العبارة الآتية: «لقد ربحنا الحرب الباردة وها نحن نعود بعد ٧٠ عاماً من الصراعات الضالة إلى محور الصراع القائم منذ ١٣٠٠ سنة. إنه صراع المجابهة الكبيرة مع الإسلام».

الواقع أن المشاعر المعادية للعرب وللمسلمين تجعل من هذه الصورة الجديدة للعدو، المقررة سلفاً والمخطط لها أسرع انتشاراً وأكثر قدرة على الاستقطاب. يبدو ذلك واضحا من إسراع مجموعات من منظمة الخضر بألمانيا اثر إحراق آبار النفط الكويتية على يد قوات الغزو العراقى فى عام ١٩٩٠ للحديث لا عن صراع بين الإسلام والغرب فقط، بل بين الإسلام والتنوير أو التحرير أيضاً. وطالب آخرون من الخضر الألمان ببوليس دولى لحماية البيئة من العرب!!.

وفى أعقاب المحاولة الإرهابية الأولى التى استهدفت برجى التجارة العالمية فى نيويورك فى عام ١٩٩٣، نشرت مجلة نيوزويك الأمريكية بتاريخ ١٥ آذار - مارس ١٩٩٣ دراسة مطولة، عنونت لها على الغلاف بما يلى:

«الرعب البارد، الإرهاب اليوم: الدور الإسلامى». وقد تصدرت الغلاف صورة لشاب ملتح يحمل غلافا خارجيا للمصحف الشريف مكتوب عليه الله ومحمد.

وفى الداخل، وتحت عنوان: «غضب الإسلام» تساءلت المجلة: هل جذور الضربة الإرهابية فى نيويورك تنمو فى تربة غضب المسلمين الأصوليين ضد الغرب فى شمال أفريقيا وآسيا؟».

وتساءلت المجلة عن الدوافع الكامنة وراء استهداف الولايات المتحدة من قبل الأصوليين الإسلاميين. وقالت إن لائحة الدوافع طويلة، منها أن الدول الغربية مجتمعة تعمل على إخضاع العراق (قبل عملية الغزو) وهو دولة عربية إسلامية، ومنها أن الصهيونية تتربع فوق الأراضى العربية بمساعدة أمريكية، ومنها إبعاد قياديين مسلمين عن الأراضى المحتلة إلى جنوب لبنان حيث يواجهون البرد فى الجبال الجرداء (مرج الزهور). ومنها منع الإسلاميين من الوصول إلى السلطة بوسائل سلمية وديمقراطية كما حدث فى الجزائر، ومنها مطاردة الإسلاميين فى مصر، إلخ».

فى ذلك الوقت دعا رئيس مجلس النواب أمريكية نيوت جينجريتش، المجلس «إلى وضع استراتيجية متكاملة لمحاربة التوتاليتارية الإسلامية».

يلاحظ المفكر الأمريكى صموئيل هنتنجتون فى دراسة نشرتها مجلة الشئون الخارجية (فورن أفيرز) الأمريكية ونقلت مقتطفات منها صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية (عدد الثامن من يونيو ١٩٩٣) أن المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية تفصل الشعوب عن هوياتها المحلية. وفى معظم أنحاء العالم يتقدم الدين لملء هذا الفراغ على يد حركات غالبا ما تتصف بالأصولية كالمسيحية الغربية، واليهودية، والبوذية، والهندوسية والإسلام.

وفى مقابلة أجرتها معه مجلة تايم الأمريكية (٢٨ يونيو ١٩٩٣) سألت المجلة البروفيسور هنتنجتون: إنك تؤكد أن الصراع المقبل الذى سيواجهه الغرب سوف يأتى من العالم الإسلامى. لماذا؟

يجيب هنتنجتون على السؤال بقوله: «إن الإسلام هو الديانة الأشد صرامة فى العالم خارج المسيحية. لا يوجد فصل بين الدين والسياسة. ثانياً، هناك شعور بأن العالم الإسلامى قد تعرض للضرب واستغل على يد الغرب، وأن ثمة نوعاً من الصحوة فى طريقها إلى البروز. إن الصراع سيأخذ عدة أشكال. والواحد منا لا يريد أن يظن بأن

هذا يعنى قيام حرب ماحقة بين الإسلام والغرب».

قبل حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كان قساوسة الحركة الصهيونية المسيحية فى الولايات المتحدة يعبّرون عن كراهيتهم للأسلام ويصبّون جام حقدهم عليه، ومن أبرزهم جيرى فولويل وبات روبرتسون وفرانكلين جراهام وهول ليندسى وكثير غيرهم. فهم يعتبرون أن المسلمين بوقوفهم فى وجه الإسرائيليين يعطلون المشيئة الإلهية ويؤخرون العودة الثانية للمسيح.

وقد ازداد نفوذ هؤلاء القساوسة السياسى فى عهد الرئيس جورج بوش. فالرئيس الأمريكى مدين لهم بالانتقال من حالة الإدمان على المسكرات إلى الإيمان بـ«الولادة الثانية»، وبالعمل من أجل تسريع العودة الثانية للمسيح. وتحت مظلة هذه العلاقة فإن القس ليندسى حذر من «أن المسلمين لا يريدون فقط تدمير دولة إسرائيل ولكنهم يريدون تدمير الثقافة اليهودية - المسيحية التى تشكل أساس الحضارة الغربية. إنهم كالشيوعيين فى أعماق فلسفتهم توق شديد لدفننا جميعاً».

كذلك فإن القس بات روبرتسون وصف الإسلام بأنه «دين الإرهاب»... وأنه «يهدف إلى السيطرة على العالم». كما اتهم المسلمين الأمريكيين بأنهم ينظمون خلايا إرهابية لتدمير الولايات المتحدة». وجاءت تلك الاتهامات من خلال برنامجه التلفزيونى الواسع الانتشار «نادى السبعمائة».

ووصف القس جيرى فاين Jerry Vine النبى محمد عليه السلام فى مؤتمر المحفل المعمدانى الجنوبى الذى عُقد فى فلوريدا فى عام ٢٠٠٢ بأنه الشيطان نفسه.

وكان فرانكلين جراهام Franklin Graham وهو نفسه أيضاً الذى ترأس الصلاة الخاصة بمناسبة أداء القسم الدستورى للرئيس جورج بوش الابن، قد قال عن الإسلام أنه دين شيطانى وشرير، وقال عنه القس جيرى فولويل إنه دين «مزور».

إن هؤلاء القساوسة الذين يجاهرون بعدائهم للإسلام ويطلقون يومياً الشتائم بحق النبى محمد عليه السلام، يشكلون الجسر الدينى السياسى يربط بين الرئيس جورج بوش والـ أرييل شارون، وبين إسرائيل والولايات المتحدة.

إن كاتب خطابات وتصريحات الرئيس بوش هو واحد من هؤلاء القساوسة وهو مايكل جيرسون. ومن السهل تتبع العبارات الدينية - التوراتية فى كلام الرئيس الأمريكى خاصة عندما يتحدث عن الشرق الأوسط.

على أن أشد مظاهر العداء للإسلام لدى هؤلاء القساوسة تظهر عندما يتحدثون عن أى أمر يتعلق بإسرائيل. فقد رفعوا الصوت عالياً ضد اتفاق أوسلو. وضد اتفاق واى ريفر وكذلك ضد قرارات الأمم المتحدة (٢٤٢ و ٣٣٨). فالقس والتر ريجانز مثلاً Walter Reggans دعا إلى محاربة اتفاقى أوسلو وواى ريفر بحجة أن الاتفاقين يمنحان الشرعية «للطموحات» الفلسطينية فى القدس وفى الضفة الغربية. وحذر من أن ذلك سوف يشكل الخطوة الأولى فى مسيرة الفلسطينيين «الإرهابيين» نحو القضاء على إسرائيل. وحتى يعطى هذا الموقف السياسى خلفية دينية أعلن القس ريجانز: «أن اتفاقات السلام هى خيانة لله ولنواياه نحو الشعب اليهودى.. فالسلام كاذب لأن جذوره تنطلق من الشيطان».

لا يتفرد القس ريجانز بهذا الربط بين السياسى والدينى. ذلك أن هذا الربط يشكل القاعدة الثانية فى التأويلات التوراتية لأحداث الشرق الأوسط، بل لصناعة هذه الأحداث فى ضوء هذه التأويلات.

فالقس كلارنس واجنر Clarence Wagner يقول: «علينا أن نشجع الآخرين على فهم الخطط الإلهية وليس الخطط التى هى من صنع الإنسان فى الأمم المتحدة أو حتى فى الولايات المتحدة، أو الاتحاد الأوروبى، أو فى أوسلو أو فى واى ريفر إلخ.. إن الله بعيد عن أى مخطط يعرّض مدينة القدس للصراع بما فى ذلك منطقة جبل الهيكل وجبل الزيتون وهو أبعد ما يكون عن إعطائها للعالم الإسلامى. إن المسيح لن يعود إلى مدينة إسلامية تدعى القدس، ولكنه سيعود إلى مدينة يهودية موحدة تدعى «جروزالم».

وفى الأول من يناير ٢٠٠٢ حذّر القس بات روبرتسون فى برنامجه التلفزيونى «نادى السبعمائة» من تدخل الولايات المتحدة فى النبوءات الدينية وانتزاع إعطائها إلى ياسر [illegible] سريعت الولايات المتحدة القدس الشرقية وجعلتها عاصمة لدولة فلسطينية. فإن معنى ذلك أننا نسعى وراء غضب الله.

وذهب القس روبرتسون إلى أبعد من ذلك عندما وصف اغتيال إسحق رابين رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق الذى وافق على اتفاق أوسلو مع الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات بأنه . أى الاغتيال. عمل من أعمال الله، وأنه حكم إلهى نفذ فيه لخيانته شعبه. إن هذه الأرض هى أرض الله، وأن لله كلمات قوية تجاه من يقسّم أرضه. لقد استحق رابين غضب الله عندما بدأ يقسم أرض الله.

فى مطلع شهر مارس ٢٠٠٣ نشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية تصريحاً لوزير السياحة الإسرائيلى بنلى الون قال فيه: «من الواضح أن الإسلام فى طريقه إلى الزوال.. فما نشاهده اليوم فى العالم الإسلامى ليس انتفاضة إيمان قوية. بل انطفاء جذوة الإسلام. أما كيف سيزول. فبكل بساطة، بقيام حرب مسيحية صليبية ضد الإسلام فى غضون بضع سنوات ستكون الحدث الأهم فى هذه الألفية. وطبعاً سنواجه مشكلة كبرى حين لا يبقى فى الساحة سوى الديانتين الكبيرتين، اليهودية والمسيحية. غير أن ذلك ما زال متروكاً للمستقبل البعيد».

وفى مطلع الشهر التالى، أبريل تجمعت أمام الحدود الأردنية - العراقية، وأمام الحدود الكويتية - العراقية، مجموعات من «المبشرين المسيحانيين»، التابعين للحركة الصهيونية المسيحية مزودين بمساعدات إنسانية غذائية وطبية، مع كميات كبيرة من الكتب والمنشورات الدينية التبشيرية. وتنضوى هذه المجموعات تحت لواء مؤسسة يترأسها فرانكلين جراهام نفسه تدعى Samaritan's Purse أى «الجيب السامرى»، وهو اسم دينى يشير إلى الشهود الأوائل على ظهور المسيح. ولا يقتصر أعضاؤها على الأمريكيين وحدهم، ولكنها تضم «مؤمنين» من جنسيات أوروبية مختلفة، وخاصة من النرويج وهولندا وبريطانيا.

وإذا كانت مهمة القوات العسكرية الأمريكية هى البحث عن أسلحة الدمار الشامل فى العراق وتدميرها، فإن هؤلاء المبشرين يؤمنون بأن سلاح الدمار الشامل فى العراق، الذى يجب تدميره، هو الإسلام الذى يتهمونه بأنه مصدر الفكر الإرهابى، والحافز على ارتكاب العمليات الإرهابية، كالتى جرت فى الولايات المتحدة (نيويورك وواشنطن) وفى إسرائيل (العمليات الاستشهادية).

فالقس جراهام هو الذى قال عن المسلمين فى الولايات المتحدة بأنهم «أيا كانت أصولهم فإنهم أعداء للديموقراطية والليبرالية ولطريقة عيشنا»... وعندما احتج المسلمون الأمريكيون على هذه الأقوال لأنها تحرض الأمريكيين الاخرين عليهم، ردّ جراهام بقوله: «إن الذين هاجموا الولايات المتحدة ودمروا برجى مركز التجارة الدولى فى نيويورك لم يكونوا من اللوثريين ولا من الميثوديين، بل كانوا من المسلمين.. ولذلك فإن وجودهم يشكل خطراً على المجتمع الأمريكى».

إن ثقافة العداء للإسلام ليست ثمرة جريمة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وإن كانت هذه الجريمة قد وظفت على أوسع نطاق لتعميم هذه الثقافة وتعميقها وتجذيرها فى العقول والقلوب. وما سياسة «العقاب الجماعى» التى يعانى منها المسلمون خاصة فى الولايات المتحدة سوى أحد مظاهر هذه السياسة التى تتناقض مع القيم الإنسانية التى يقوم عليها المجتمع الأمريكى والتى تقول بها الكنائس الأمريكية الكبرى.

على أن القضية الكبرى هى أن العالم الاسلامى لم يفعل شيئاً يذكر طوال العقود الخمسة الماضية لتصحيح ثقافة الاستعداء المنغرسة فى الفكر الغربى. كأن يكتفى بالإدانة عن بعد، متكئاً على وسادة نظرية المؤامرة. ثم جاءت جريمة ١١ أيلول - سبتمبر ٢٠٠١ لتعطى هذه الثقافة مبررات وأبعاداً جديدة تلهب مشاعر الكراهية واللا ثقة. ورغم أن بعض الأصوات الإسلامية العاقلة ترتفع من هنا أو من هناك مصححة أحياناً، ومنبهة أحياناً أخرى، فإن صدى أصوات النشاز الإسلامى تذهب بعيداً جداً مثل ضربات الطبل الفارغ.. الأمر الذى يعمق الهوة بين الإسلام وثقافة كراهيته واستعدائه.

لقد قررت قمة منظمة المؤتمر الإسلامى فى اجتماعها الأخير الذى عقدته فى ماليزيا التصدى لهذا الأمر. إنه قرار حكيم نأمل أن ينفذ بحكمة. ■

ثقافة الكراهية !!

الجزائر.. إلى أين

قبل شهور من الانتخابات الرئاسية فى أبريل المقبل، احتدمت الساحة السياسية فى الجزائر بالخلافات والصراعات العلنية. فقد لاحت فى الأفق بوادر الشقاق داخل جبهة التحرير الوطنى الجزائرية مع استقالة أمينها العام على بن فليس من رئاسة الحكومة وإعلانه ترشيح نفسه فى الانتخابات ضد الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة. وجاء إخراج بوتفليقة ٤ وزراء من الجبهة من حكومته ثم انسحاب ٧ وزراء من الجبهة بعد ذلك لتتفاقم الأزمة التى تكاد تعصف بالاستقرار النسبى الذى عاشته الجزائر مؤخراً. ورغم أن الجيش الجزائرى لم يعلن موقفه صراحة إلا أنهم يعتقدون أنه فى قلب «الصورة» معربين عن تخوفهم من انتقال الانقسام إلى الجيش نفسه.

المقال التالى مراجعة لدور الجيش من خلال الاقتراب من أحد كبار قادته..

المحرر

■ ■ **الجنرال خالد نزار.. ليس فقط من أعلام الجزائر، إنما هو «أبوها الروحى»، ذلك اللقب الذى التصق به كثيراً وليس دوماً؛ والذى استمده بحكم منصبه المتميز، الذى وكل إليه بعد الثورة الجزائرية. فهو العضو الأكبر مقاماً وسناً من ضمن «مجموعة الجنرالات»، التى تهيمن عسكرياً واقتصادياً.. من وراء الكواليس. يسكن فى أرقى أحياء الجزائر («الباردو»)، وأكثرها ثراء، حيث الفيلات الشامخات والأشجار الباسقات. ورياح «الباردو» لا تحمل فقط رائحة الثراء، وإنما تحمل أيضاً رائحة الاحتلال الفرنسى، الذى ظل جاثماً على أنفاس الجزائريين حتى عام ١٩٦٢ ففى فيلات «الباردو» كان المستعمرون الفرنسيون يسكنون. يأكلون ويستمتعون بالخيرات التى لم تكن فى متناول أيدى أصحاب البلد. وما إن ترك المستعمرون تلك الخيرات، حتى انتقلت برمتها إلى زعماء «جبهة التحرير الوطنى»؛ الذين ما إن وطأت أقدامهم جنة «الباردو» حتى نسوا أو تناسوا أنهم فى الجزائر.. ولكن الجزائر لم ولن تنساهم أبداً.**

«عندما يأتى الصحفيون لزيارة (الباردو)، لا يصدقون بأنهم فى الجزائر».. قالها نزار بملء فيه، بصوته الأجش، وبضحكته الخشنة المبحوحة التى تعكس شيخوخته وكبر سنه. وما عليك إلا أن تدخل مسكنه الفخم، حتى ترى هذه الحقيقة مجسمة أمام عينيك. ذلك المسكن، الأسطورة، ذو الطابع الفرنسى الملكى، والبلاط الرخامى، والسجاجيد الشرقية، والنجف العملاق المصنوع من الكريستال. لقد كانت النتيجة الطبيعية، أن حظى نزار وأمثاله . من ساكنى «الباردو»، بسخط تلك الجماهير الغفيرة التى تكابد شظف العيش فى الأحياء السفلى: «القصبة»، «بيلكورت»، «باب الواد»؛ تلك الأحياء الهشة الهزيلة التى ضربها زلزال ٢١ مايو، فأخلف من ورائه أكثر من ألفى صريع وألف مشرد. ولا عجب بعد ذلك، أن نجد الكثيرين من تلك الجماهير، يعطون أصواتهم، بثقة وحماس، إلى الحزب الأصولى، جبهة الإنقاذ الإسلامية، فى الانتخابات التشريعية فى ديسمبر ١٩٩١، ولكن بالرغم من أن هذا الحزب قد حظى بتأييد واسع من قبل الجزائريين، وبالرغم من تحوله إلى متنفس لسخط الجزائريين تجاه فساد «الباردو»، إلا أنه كانت هناك مخاوف من وأد هذا الحزب للتجربة الديمقراطية الجزائرية، التى كانت قد بدأت فى البزوغ مع أواخر الثمانينيات.

لقد سعى نزار سعياً حثيثاً ليحول بين جبهة الإنقاذ الإسلامية وبين وصوله إلى السلطة. فكانت أولى خطواته، وهو الذى كان وزيراً للدفاع فى ذلك الوقت، هى إرغام الرئيس بن جديد على الاستقالة؛ ثم إلغاء الانتخابات؛ وأخيراً حظر الحزب، ومنعه تماماً من مزاولة نشاطه، مع إعلان حالة الطوارئ. وطبعاً، لنا أن نتصور رد حزب الخلاص الإسلامى.. حيث اندفع جناحه العسكرى إلى مهاجمة قوات أمن الدولة؛ ثم انضمت إليه جماعات راديكالية منشقة، أمثال الجماعة الإسلامية المنشقة، التى قامت باغتيال المثقفين العلمانيين، والسيدات غير المحجبات.

حاول «المصلحون»، منهم الوزراء ومنهم القادة السياسيون، تلطيف الأجواء من خلال عقد المفاوضات مع حزب الخلاص؛ إلا أن نزار، الذى كان متزعماً لجبهة «الاستئصال»، لم يمهلهم هذه الفرصة. فذهب هو ومن معه من «مجموعة الجنرالات» ليضربوا بيد من حديد على الشعب الجزائرى؛ واستخدموا نفس أساليب التعذيب والاعتقالات فى غيابات الصحارى، التى كان يستخدمها الاحتلال الفرنسى ضد جبهة التحرير. عشرات آلاف الجزائريين ،منهم الإسلاميون الراديكاليون وأكثرهم المواطنون العاديون، تم قتلهم منذ عام ١٩٩٢؛ سبعة آلاف تم إخفاؤهم على أيدى قوات أمن الدولة. (هذه المعلومات تم نشرها فى تقرير «الهيومان رايتس ووتش» فى فبراير ٢٠٠٣). وبالرغم من أن



1 - La Sale Guerre

(الحرب القذرة)

Habib Souaïdia

La Decouverte, 204pp, 14. 48

2 - The Bathlefield Algeria, 1988 - 2002,

Studies in a Broken Polity

(الجزائر، ساحة القتال، من ١٩٨٨ إلى ٢٠٠٢)

Hugh Roberts

Verso, 402pp. $ 25.00

3 - Time for Reckoning:

Enforced Disappearances in Algeria

(وقت الحساب: الاختفاءات القسرية فى الجزائر)

The Human Rights Watch, 98pp.

www.hrw.org/reports/Algeria 2003/

ترجمة/ شيرين حامد فهمى

بترتيب خاص مع نيويورك ريفيو أوف بوكس

حدة التصادم قد قلت تدريجياً منذ عام ١٩٩٧ . بعد أن وضعت جبهة الإنقاذ سلاحها . إلا أن الجماعة الإسلامية المسلحة، وغيرها من الجماعات المتمردة، ما زالت متواجدة على الساحة.

لقد صار مشهد التصادم السياسى فى شوارع الجزائر مشهداً مألوفاً، لدرجة أنه صار غير لافت للنظر. والعجيب. أن النظام الحالى، الذى يرأسه بوتفليقة منذ عام ١٩٩٩، ليس لديه أدنى رغبة فى وقف هذا العنف. فكما أخبرنى أحد رجال السلطة القدامى: «إن الدولة (الجزائرية) لا تستطيع أن تترك الإرهاب يموت. فهو الشىء الوحيد الذى يبقيها على السطح».

فى أثناء زيارته الأخيرة للجزائر، قام «وليام برنز» (مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشئون الشرق الأدنى) بإخبار الرئيس بوتفليقة التالى: «إن واشنطن عليها أن تتعلم الكثير من الجزائر فى فنون مكافحة الإرهاب». وهنا يرد نزار ضاحكاً، بصوته الجهور: «لو كنا تركنا الإسلاميين يفوزون فى الانتخابات، لكانت الجزائر تحولت إلى أفغانستان، ولصار لزاما عليكم (يقصد الولايات المتحدة) أن تقصفونا». وهنا يتدخل حسين آيت أحمد، زعيم جبهة القوات الاشتراكية وهى من الأحزاب المعارضة، التى يتكون معظمها من البربر، ليدحض ما صرح به نزار، قائلاً: «إذا نظرت إلى الجزائر اليوم، دولة المائة ألف قتيل، وربما أكثر؛ والآلاف المعوقين؛ والمليون مشرد، لأدركت أن هؤلاء الجنرالات هم وحدهم الذين حولوا هذه البلاد إلى أفغانستان».

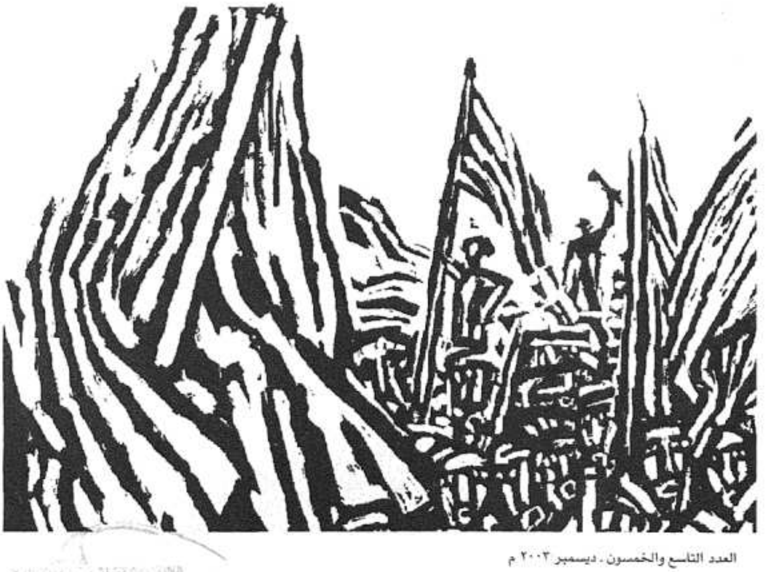
ولكن من هو نزار؟ وما هى جذوره؟ باختصار، ولد نزار فى عام ١٩٣٧، فى داخل أسرة بربرية، تشتغل بالزراعة، فى جبال الأوراس Aures. التحق فى شبابه بالجيش الفرنسى؛ وعمل كضابط غير مفوض؛ متحولاً بعد ذلك إلى الجبهة المتمردة ضد الاستعمار فى أبريل ١٩٥٨، مع جماعة من الشباب الذى يسمون الآن بـ «تاركى الجيش الفرنسى»، أى الذين هجروا الجيش الفرنسى، والتحقوا بصفوف المقاومة. وقد اعتمد عليهم، بعد ذلك، الرئيس الجزائرى «هوارى بومدين»، اعتماداً أساسياً، فى أثناء فترة رئاسته التى امتدت من عام ١٩٦٥ إلى ١٩٧٨. وكانت وجهة نظر بومدين تتلخص فى أن هؤلاء «التاركين» أو «المهاجرين» قد التحقوا مؤخراً بحركات التحرير والكفاح ضد المستعمر الفرنسى؛ ومن ثم فهم يفتقدون الخصائص الوطنية التى يتمتع بها الضباط المحنكون والمتمرسون؛ ومن ثم فيسهل التحكم فيهم والسيطرة عليهم. ولم يخب ظن بومدين؛ فحينما حاولت مجموعة من هؤلاء الضباط المحنكين قلب نظامه فى عام ١٩٦٧، سارع «المهاجرون» إلى إحباط تلك المحاولة.

لقد حظى هؤلاء «المهاجرون» على مناصب عليا فى الجيش الجزائرى، خلال العقدين الأخيرين. هذا إلى جانب التدعيم الذى يلاقونه من قبل الحكومة الفرنسية؛ ومن ثم ارتباط مصالحهم بالشركات الفرنسية الموجودة فى الجزائر، وإرسال أبنائهم للدراسة فى باريس. هذه «الامتيازات» كلها أعطت لهم مسمى «متميزاً» وسط الجزائريين: وهو «حزب فرنسا».

عبر السنوات الأخيرة، «وهب» نزار نفسه للدفاع عن سمعة الجنرالات وعن سمعة الجيش، فى مواجهة التهم المتصاعدة ضدهم، التى تحدثت عن الانتهاكات الشرسة، من قبل الجنرالات، لحقوق الإنسان. وكان «حبيب سوعيدية»، وهو ضابط قديم فى القوات الخاصة، قد فجر هذه القضية فى ربيع ٢٠٠١، على صفحات كتابه La Sale Guerre أو «الحرب القذرة»: حيث قص فيها على القراء ما شهده من زملائه فى الجيش، الذين انخرطوا فى عمليات التعذيب، والاغتصاب، والقتل، تحت أقنعة المتمردين الإسلاميين. وما شهده من تسلل أعضاء كثيرين من الجيش والمخابرات فى داخل صفوف «الجماعة الإسلامية المسلحة»، والقيام باعتداءات لا حصر لها على المصالح والمنشآت الفرنسية. وكذلك ما شهده من الحيرة على وجوه الجزائريين، الذى باتوا يتساءلون عن الفشل الغريب، من قبل الجيش الجزائرى، فى حمايتهم من المذابح المروعة التى حدثت فى عامى ١٩٩٦ و١٩٩٧، والتى انتشرت خاصة فى القرى. ومما كان يثير الانتباه حقاً، هو أن ترتكب تلك المذابح بجانب ثكنات الجنود، وتحت أنظار طائرات الهليكوبتر العسكرية، التى كانت تحلق فوق مواقع المذابح والمجازر. باختصار، لقد كان الجيش يرى أنه ليس مخولاً لحماية القرى التى تعطى صوتها لحزب الخلاص الإسلامى. المهم، أنه تم فى النهاية نفى حبيب سوعيدية إلى فرنسا.

طبعاً، كان هذا الكتاب مبعث ضيق لنزار، الذى قدر له التواجد فى فرنسا، فور نشره وظهوره وسط القراء. وكان سبب تواجده هناك، هو ترويجه لكتابه هو عن «مذكراته»، الذى كتبه فى عام ٢٠٠١. وفى أثناء قيامه بهذه المهمة، فوجئ بثلاثة جزائريين، مقيمين فى باريس، وأقارب لبعض الإسلاميين «المختفين»، يقومون برفع قضية ضده، بسبب عمليات التعذيب، وغيرها، التى قام بها فى حق الشعب الجزائرى. ولم ينتظر نزار طويلاً فى فرنسا، بل سارع إلى مغادرتها فى نفس الليلة، عائداً إلى الجزائر. وفى شهر يونيو الماضى، فى أثناء الاحتفال بمرور أربعين عاماً على الاستقلال الجزائرى، عاد نزار إلى فرنسا، رافعاً قضية تشهير ضد أحد الجزائريين الثلاثة. وبالرغم من أنه خسر القضية، إلا أنه أعلن أمام الملأ قائلاً: «إن قضية التشهير كانت فرصة لى كى أظهر للعالم كله بأن هناك تفسيراً آخر لما يحدث فى الجزائر. هذا هو المهم. ومن ثم، فأنا أعتبر نفسى منتصراً».

عندما سألت نزار عن السبعة الاف جزائرى، الذين اختفوا فى غيابات الجب ولم نعد نسمع عنهم شيئاً، رد علىّ غاضباً وقائلاً: «هذا خطأ. الرقم الصحيح ما يقرب الأربعة الاف: منهم ٢١٣ حالة فقط، لم يتم حلها حتى الآن. أما الباقى، فهم إما مع المتمردين، أو مع الموتى، أو مع المعتقلين». ثم أكمل مصرحاً: «أنا ديمقراطى، لست استئصالياً». فبادرته سريعاً: «لست استئصالياً؟؟» فرد علىّ باسماً: «نعم، بالنسبة لأولئك الذين يقبعون تحت



الأرض. مع أولئك، لا يوجد إلا حل واحد: «الاستئصال». نزار يرى أن الاستئصال آتى بثماره: فقد انحسر الإرهاب عن ذي قبل، وقل عدد المصوتين للأحزاب الإسلامية المعترف بها. إلا أن نزار ما زال مؤمناً بأن ظاهرة الإسلام السياسي لم تنته بعد. فالإسلاميون المعتدلون ما زالوا موجودين؛ وهم من وجهة نظره، لا يختلفون كثيراً عن الإسلاميين الراديكاليين.

منذ عام ١٩٦٢، والجزائر تخضع للحكم العسكري. فالانتخابات ـ سواء للرئيس أو البرلمان ـ يهيمن عليها زعماء الجيش. إن هيمنة الجيش في الجزائر تعود إلى حرب الاستقلال، حيث كانت المنافسة على أشدها بين «قوات الداخل»، وهي القيادة السياسية في داخل الجزائر، وبين «قوات الخارج» المتمركزة في المغرب وتونس. وفي خلال حرب الاستقلال في عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧، تم إقصاء معظم الكوادر الفذة من قوات الداخل، على يد الفرنسيين؛ وكان على المتبقين من تلك الكوادر، الاستسلام التام لقوات الخارج. أما من كان يفكر فيهم في «الخروج» عن الاستسلام، فكان مصيره الحتف. وهذا ما حدث لـ«أبان رمضان»، الذي أعدمه «زملاؤه» في ديسمبر ١٩٥٧، لأنه أصر على إعطاء الأولوية لقوات الداخل.

لقد تم اغتيال «رمضان»، الذي كان يمثل المخطط المحترف لحرب استقلال الجزائر، على يد قبيلة «عوجة»، التي كان يتزعمها «عبد الحفيظ بوسوف»، الذي كان يحتل منصباً رفيعاً في «جيش الخارج». وكان من ضمن هذه القبيلة: الكولونيل بومدين؛ أحمد بن بيلا وهو الرئيس الأول للجزائر؛ الرئيس بوتفليقة. أما بن بيلا، فقد رفع إلى الرئاسة في عام ١٩٦٢، على يد قوات بومدين التي قلبت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. وأما بومدين، فقد رفع نفسه للرئاسة في عام ١٩٦٥، بعد انقلابه على بن بيلا، ووضعه تحت الحجز لمدة عشرين سنة. وبعد وفاة بومدين في عام ١٩٧٨ ـ على أثر مرض غير معروف ـ شهدت الجزائر «تشنجات» و«اهتزازات» عنيفة؛ ولكنها لم تؤثر أبداً على قوة الجيش، ولا على هيمنة قبيلة عوجة، ولا على المخابرات التي كانت تشكل «العمود الفقري» للنظام الجزائري.

وعندما سقطت «جبهة التحرير الوطني» (FLN) في عام ١٩٨٩، اعتقد الكثير من المراقبين الغربيين أن فئة «الجنرالات»، التي تضم أمثال نزار، سوف يتم إحباطها؛ كما حدث مع التجربة السوفيتية. ولكن شتان الفرق بين «جبهة التحرير الوطنية» في الجزائر، وبين الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي. فالأولى لم تكن سوى أداة من أدوات الجيش؛ ومن ثم فلم تكن تحتكم على قدر كبير من السلطة، كما هو الحال في الحزب الشيوعي. فدستور ١٩٨٩ ـ كما يقول العالم البريطاني هوغ روبرتس في دراسته الفذة The Battlefield أو «أرض المعركة» ـ لم يفلح إلا في تحويل الواجهة الأحادية إلى واجهة تعددية. فصحيح، أنه بعد عام ١٩٨٩، صار الجزائريون أكثر قدرة على التعبير عن أنفسهم؛ ولكنهم ما زالوا يتصرفون وكأن هناك من يراقبهم ويستمع إليهم في كل لحظة وفي كل همسة ـ وكان هذا موجوداً دائماً. صحيح أنه صارت هناك صحف متعددة، ولكنها لم ولن تجرؤ أبداً على توجيه أي نقد لمؤسسة الجيش، أو بلغة أخرى «المافيا السياسية الاقتصادية». صحيح أنه صارت هناك أحزاب متعددة؛ ولكنها تقف مشلولة أمام مؤسسة «المافيا». ملخص القول هو: أن مجموعة «البوفوار» استطاعت البقاء، بالرغم من عملية «التحول الديمقراطي»، وبالرغم من الانتقال من نظام «الحزب الواحد» إلى نظام «تعدد الأحزاب». لقد استمرت مجموعة «البوفوار» في الهيمنة، كما كانت دائماً؛ ولكن هذه المرة في الظل ـ ومن وراء أعين الجمهور.

والنظام الاقتصادي في الجزائر لا يفرق كثيراً عن نظيره السياسي؛ فالاثنان يعانيان من الشلل والمرض. البطالة تهيمن على أكثر من ٣٠ بالمائة من الشعب الجزائري؛ نقص شديد في المساكن؛ المصانع تقع تحت سيطرة الجنرالات؛ السوق السوداء تنتشر بحكم كونها أكثر المجالات ديناميكية في الجزائر.

وفي أوج الحرب الأهلية في تسعينيات القرن العشرين، قام الإسلاميون بحرق مصانع الدولة، التي صار عدمها مثل وجودها. وبدأت نظريات المؤامرة تنتشر في أوساط الجزائريين، زاعمة بأن الإسلاميين يقفون في صف المافيا، للتحكم في اقتصاد البلاد. وما الخصخصة التي تجتاح البلاد، إلا وسيلة أو مؤامرة لتمكين المافيا من الهيمنة والسيطرة على الإرث الصناعي للدولة. باختصار، إن المافيا لا تريد الاستغناء عن الإرث العائلي.

ليست هذه الثغرة الوحيدة في «قانون الوئام المدني»؛ فهناك أيضا ثغرة «المختفين» أو «المفقودين»، الذين وصل عددهم إلى سبعة آلاف جزائري. فالحق يقال.. أن بوتفليقة لم يتخذ أي إجراء جاد تجاه هذه القضية، المهمة جداً على صعيد الرأي العام، والمهمشة جداً على الصعيد الحكومي

وبينما أنا جالس في يوم من الأيام، أشاهد التلفاز الجزائري، إذ بي أستمع إلى تقرير طويل عن بناء فندق «شيراتون»، على الحدود الليبية، وبتكلفة ٩٠ مليون يورو، على يد شركة صينية، الأمر الذي يدلل ـ كما يقول التقرير ـ على «روح الجزائر الطيبة في التعاون مع جيرانها». ثم ـ استمع بعدها إلى قصة «الخليفة جروب»، وسقوطها التراجيدي بعد ست سنوات من الازدهار الإمبراطوري في أعمال النشر، والبنوك، والنقل الجوي، وصناعة الأدوية. وكان صاحب هذه الإمبراطورية هو «رفيق خليفة»، ذو الستة والثلاثين عاماً، الذي اشتهر بصلاته وعلاقاته، أكثر مما اشتهر بقدراته كرجل أعمال. فرفيق هو ابن لأحد أعضاء قبيلة عوجة المعروفين، الذي ساهم في إعداد الخدمات المخابراتية في أثناء حرب الاستقلال. أما «عبد الغني بوتفليقة»، فهو شريك «خليفة»، وهو أيضاً أخو الرئيس الحالي «عبد العزيز بوتفليقة».

وفي ٢٤ فبراير ٢٠٠٣ ـ خمسة أيام قبل وصول جاك شيراك إلى الجزائر في أول زيارة رسمية لرئيس فرنسي منذ الاستقلال ـ كان خليفة على ميعاد مع حظه السيئ، عندما تم وقف ثلاثة من زملائه في مطار بومدين، لمنعهم من السفر إلى باريس، بعد القبض عليهم متلبسين، بحيازة أموال مزورة (٢مليون يورو). وكان خليفة وقتها في باريس؛ والآن يقال أنه انتقل إلى لندن؛ المهم أن قدميه لم تطئا الجزائر، منذ ذلك الحين، خوفاً من ملاقاة نفس مصير زملائه. وكانت نتيجة ذلك، أن تم وضع «بنك خليفة»، وهو البنك الخاص الوحيد في الجزائر، تحت الوصاية. وتبعاً لمصدر قريب من وزارة المالية، كان «بنك خليفة» يحصل ـ من خلال طرق غير شرعية ـ على مئات الملايين من الدولارات، تحت سمع وبصر الحكومة. ومن ثم، فإن تصرف الحكومة الأخير والمفاجئ بصدد خليفة، يشكل علامة استفهام كبيرة؛ خاصة أنه حدث مع قدوم الرئيس شيراك إلى الجزائر. وخاصة أيضاً، إذا علمنا أن الصحف الفرنسية قد انهالت على شخص خليفة باللعنات، لتصب عليه وابلاً من النقد والتوبيخ؛ واصفة إياه بـ«إمبراطور الجزائر».



والشيء العجيب أن الجزائر، مع هذا الفقر الشديد، تعتبر ثالث أكبر مصدر عالمي للغاز الطبيعي؛ بالإضافة إلى كونها دولة منتجة للبترول، تتصاعد أهميتها يوماً بعد يوم. «هذه البلاد بقيت على قيد الحياة بفضل البترول».. قالها لي «لامين شيخي» صحفي بجريدة «الخبر» الناطقة بالعربية، والقريبة جداً من الاستئصاليين. وأكبر دليل على ذلك، هو تنافس شركات البترول الفرنسية وشركات البترول الأمريكية، من ضمنها هاليبرتون، للسيطرة على أكبر مساحة من الصحاري الجزائرية. لقد أخبرني «شيخي» أن نائب الرئيس الأمريكي «ديك تشيني»، وهو الذي تقلد منصباً رفيعاً في شركة هاليبرتون للبترول، «يعرف الجزائر معرفة جيدة».

إن الفشل الأسطوري الذي مني به بومدين في مجال التصنيع، في فترة الستينيات، جعل الجزائر أكثر اعتماداً على عوائد البترول والغاز، التي تمثل حوالي ٩٠ في المائة من محتوى صادرات البلاد. «البترول يمكن أن يكون أمراً محموداً لأولئك الذين ليس لديهم ثروات أخرى، أما بالنسبة لنا.. فهو لعنة وامتهان». قالها لي أحد الجزائريين، الذي برر مقولته بعد ذلك، مشيراً إلى «أن الجزائر لديها ٢ مليون كيلومتر من الأراضي الصحراوية التي يمكن أن تستغل أحسن استغلال في السياحة. منذ ثلاثين عاماً، كنا نصدر الطعام؛ أما الآن فنحن نستورده. نحن لسنا بصدد أزمة إيكولوجية؛ وإنما نحن بصدد أزمة تخطيط وإدارة». وأضيف قائلاً: إنها أيضاً مشكلة سياسة. فمادام البترول والغاز متوفرين في الجزائر، سيظل زعماء الجزائر غير راغبين في إصلاح وتفكيك، النظام، الذي يوفر لهم حياة الثراء والبذخ؛ خاصة إذا كان الإصلاح سيهدد الامتيازات التي يتمتعون بها.

أما عبد العزيز بوتفليقة، المنتمي منذ عهد طويل إلى عوجة، فهو لم ينجح في إصلاح الداخل، كما نجح نسبياً على الصعيد الخارجي، خاصة مع الولايات المتحدة. وقد كان بوتفليقة مؤهلاً للحكم منذ السبعينيات، حينما كان يشغل منصب وزير الخارجية في حكومة بومدين. في تلك الفترة، التي كانت الجزائر تشهد فيها أوج ثرائها، كان بوتفليقة مرشحاً ليكون الخليفة المميز لبومدين. ولكن الجيش خيب ظنه، واختار الجنرال الشاذلي بن جديد، الذي سارع في رسم علاقة متهورة أو شراكة طائشة مع إسلاميي الجزائر. فبن جديد والإسلاميون اجتمعوا على أرضية واحدة، وهي: العمل على إضعاف القوميين اليساريين في داخل جبهة التحرير الوطنية، وفي اتحادات العمال. وبينما كان منطلق بن جديد هو إضعافهم لأنهم يعارضون خطط الإصلاح الاقتصادي التي كان يتبناها؛ كان منطلق الإسلاميين فكرياً من الدرجة الأولى. وتبعاً لذلك، تمتع الإسلاميون بامتيازات، خلال فترة حكم بومدين، لم يكونوا يحلمون بها؛ وخاصة الامتيازات الحزبية. ولكن هذا لم يستمر طويلاً.. فسرعان ما أعلن النظام عن رفضه ومعاداته الصريحة للأصولية في عام ١٩٩١.

وإذا كانت الفرصة لم تواتِ بوتفليقة، ليصير حاكماً للجزائر في السبعينيات، فقد جاءته أخيراً في أبريل ١٩٩٩، بعد أن فاز بـ٧٤ في المائة من أصوات الناخبين. ولكنه مثل جميع الذين سبقوه، كان بوتفليقة مرشح الجيش؛ كما هو الحال دائماً في الجزائر. وبعد تولي بوتفليقة الرئاسة، علق عليه جموع الجزائريين الآمال والأحلام في اجتثاثهم من الواقع الأليم الذي يعيشون فيه؛ ليجتثهم من سواد الحرب إلى نور السلام، ومن ضباب العزلة والوحدة إلى رحابة الاتصال والاحتكاك والامتزاج مع الخارج؛ حتى تصير بلادهم واحة لجذب السياحة والاستثمار. وقد استلزم ذلك، بالطبع، شخصية محنكة في العلاقات الدبلوماسية، وذات خبرة عميقة في التعامل مع الآخر، لكي تستطيع إزالة المخاوف والهواجس التي تسيطر على عقلية الخارج.. من البعبع الجزائري. وكان بوتفليقة هذه الشخصية؛ فبالرغم من حضوره الضعيف، إلا أنه يتميز بشخصية دبلوماسية فذة وذكية. والدليل على ذلك، قدرته على مخاطبة الجمهور الأمريكي في واشنطون، والجمهور الفرنسي في باريس؛ الأمر الذي أسفر عن مقابلته لبوش مرتين في البيت الأبيض؛ والذي أعلن بمقتضاها تعاونه مع الولايات المتحدة ضد الإرهاب؛ وكذلك إعلانه مؤخراً في جريدة «الواشنطون تايمز» عن كونه «صديقاً» للولايات المتحدة؛ وهو الأمر الذي لاقى سخطاً كبيراً من لدن الشعب الجزائري، الذي تزايدت لديه المشاعر المناهضة للولايات المتحدة منذ حرب العراق الأخيرة.

وبالرغم من هذا النجاح الواضح، الذي حققه بوتفليقة على الصعيد الخارجي ومع أكبر دولة في العالم، إلا أنه لاقى فشلاً ذريعاً على الصعيد الداخلي. فالخطوات التي انتهجها بهدف «الإصلاح الوطني» لم تحقق الغرض المنشود. فبعد أن تم التصديق على «قانون الوئام المدني»، من خلال استفتاء جماهيري في سبتمبر ١٩٩٩، صارت هناك حماية للمتمردين الراغبين في تسليم أنفسهم، بشرط ألا يكونوا قد انخرطوا في عمليات قتل أو اغتصاب. وكانت نتيجة ذلك، أن تم العفو عن آلاف، والتغاضي عن جرائمهم الإرهابية السابقة بمنتهى السهولة والبساطة؛ الأمر الذي خلف شعوراً مريراً بالظلم والقهر لدى الجزائريين، الذين ما زالوا يرون أيدي هؤلاء المجرمين وهي ملطخة بالدماء. ولا عجب أن يذهب معظمهم إلى الشك في هذا القانون؛ ولا غرابة أن تجنح عقولهم إلى تفكير المؤامرة... وهو أن هذا القانون ليس إلا حجرة خلفية يتفق فيها المتمردون مع فئة «البوفوار» أي «رجال السلطة».

ليست هذه الثغرة الوحيدة في «قانون الوئام المدني»؛ فهناك أيضاً ثغرة «المختفين» أو «المفقودين»، الذين وصل عددهم إلى سبعة آلاف جزائري. فالحق يقال.. أن بوتفليقة لم يتخذ أي إجراء جاد تجاه هذه القضية، المهمة جداً على صعيد الرأي العام، والمهمشة جداً على الصعيد الحكومي. فلا هو أخبر أسر هؤلاء المختفين عن أية معلومات وراء اختفائهم أو عن مصائرهم؛ ولا هو قام بتعويض الأسر مالياً؛ ولا هو قام بتقديم اعتذار رسمي إليهم؛ ولا هو قام بتأمين حياة الجزائريين، بهدف حمايتهم من أي «اختفاء» مستقبلي. وعندما قامت مجموعة من الأمهات بسؤاله عن أبنائهن المفقودين، في أثناء تحدثه عن «قانون الانسجام المدني»، أجابهن قائلاً: «إن أبناءكم ليسوا في جيبي. كيف تضعون هذه الحرب وراء ظهوركم، وأنتم مصرون على عدم نسيانها؟».

إن الوضع الجزائري، كما هو موصوف عاليا، لا يبشر أبداً ببوادر أي صلح كان. فمازال الطريق طويلاً.. خاصة أن الجزائريين ما زالوا حتى هذه اللحظة متفرقين، بين الرغبة في التصالح مع الإسلاميين، وبين الرغبة في استئصالهم، دفعة واحدة. فأما الاستئصاليون، فيصفهم صديق لي، يعمل صحفياً، بأنهم «فرانكفونيون يكرهون أهلهم وقومهم». وأما الإسلاميون، فيصفهم «محفوظ بنون»، وهو باحث اجتماعي، بأنهم «أفاعي». وبالرغم من كرهه «للبوفوار» إلا أنه يفضل دائماً اختيار «السارقين» عن «القاتلين».

وفي غمرة هذا التخبط الذي يعيشه الجزائريون اليوم، تقفز ذاكرتهم إلى الوراء، ليسترجعوا عهد بومدين المجيد، الذي يصفه لي أحد الصحفيين الجزائريين البارزين والمعدودين، إحسان القاضي، قائلاً: «لقد كنا نعيش في رغد وترف؛ وكان لدينا شعور بوحدتنا القومية؛ لقد كنا نشعر بعزتنا تحت ولاية بومدين. لم نكن في حاجة إلى نشر مقالات في «الواشنطون تايمز» لكي نخبر الأمريكيين بأن لديهم صديقاً في الجزائر. وبالرغم من أن كثيراً مما



تعانيه الجزائر اليوم، يمثل نتيجة مباشرة لأخطاء سابقة وقع فيها بومدين. مثل استثماره فى الصناعات الثقيلة التى خلفت خسائر فادحة، ومثل تشغيله للإخوان المسلمين المصريين لتعليم اللغة العربية للطلاب الجزائريين، الأمر الذى خلف ظاهرة الإسلام السياسى. إلا أن الشعب الجزائرى لا يتذكر، أو لايريد إلا أن يتذكر، حسنات بومدين، التى تجلت فى إطعام الجزائريين؛ فى تعليمهم القراءة والكتابة؛ فى إدراج الجزائر ضمن القوى المحايدة. وفوق كل ذلك، فى الحفاظ على النسيج الداخلى، والسيطرة على الخصوصات الإثنية والدينية، والإقليمية، والأيديولوجية.

ومن ثم، فبعد وفاة بومدين فى عام ١٩٧٨، بدأت الاختلافات تسرى فى الأراضى الجزائرية؛ كل مجموعة تعطى للجزائر هوية متميزة، نابعة من فكرها وعرقيتها. فالجزائريون العرب يرون الجزائر عربية، باعتبارها جزءاً من الشرق الأوسط. والجزائريون البربر يرون الجزائر بربرية، غير عربية، باعتبارها على صلة وثيقة بجنوب أوروبا .وخاصة أسبانيا. أكثر مما هى على صلة بالمنطقة العربية. والجزائريون الإسلاميون يرون الجزائر أولاً وأخيراً. وقبل كل شيء. دولة مسلمة. وأخيراً الجزائريون الناطقون والمتحدثون بالفرنسية. الذين ينتمون إلى النخبة. يرون الجزائر جمهورية علمانية. العجيب أن كل هذه المجموعات تؤمن بشدة أنها تمثل الوريث الأصيل «لجبهة التحرير الوطنية»، التى كانت تكافح فى حرب الاستقلال؛ أعنى «الجبهة الوطنية» بمعناها الحقيقى، وليس بمعناها المضلل.

وإذا أردت أن تشهد مثالاً واضحاً للتفسخ الإثنى فى الجزائر، فعليك أن تقوم بزيارة سريعة إلى «منطقة القبائل» .معقل البربر فى الجزائر. منذ أول وهلة، ستلحظ ألسنة الغاز المتصاعد؛ الشوارع المرصوفة بالكاد؛ البيوت المترهلة؛ البطالة المتفحشة؛ اللغة الأمازيغية فى كل مكان .وليس العربية. ومنطقة القبائل، ليست مختلفة عن بقية المناطق فى الجزائر؛ التى يتكالب عليها العفن والإهمال من كل جانب، نتيجة للمعاملة القاسية وغير الآدمية التى تتلقاها من جانب السلطات المسئولة. ولكن، ربما الفارق الوحيد بينها وبين بقية المناطق، يتجلى فى الشعور المتعمق لدى البربر بالدونية وبالاضطهاد. فما يحز فيهم، أنه بالرغم من كل ما قدموه من تضحيات فى حرب الاستقلال، إلا أن الحكومة خذلتهم فى النهاية، ووضعت الجزائر تحت التصنيف العربى الإسلامى فقط. هذا فضلاً عن اضطهاد اللغة الأمازيغية حتى وقت قريب.

والبربر لديهم سوابق عديدة فى التظاهر، والخروج إلى الشوارع لإعلان رفضهم وسخطهم. ولكن شتان الفرق بين مظاهرات الأمس ومظاهرات اليوم. فمظاهرات الأمس. مثل التى حدثت فى عام ١٩٨٠. كانت منظمة ومحددة لمطالبها. أما مظاهرات اليوم. وآخرها التى اندلعت فى «تيزى أوزو» أكبر مدن «منطقة القبائل» فى عام ٢٠٠١. فليس فيها تنظيم ولا حتى أدنى تخطيط؛ بل يشوبها العنف والغوغائية؛ فتعبر عن المرار والكبت أكثر مما تعبر عن مطالب وأولويات. وقد قالها لى عضو سابق فى «جبهة التحرير الوطنية» يوماً: «إذا لم تُحل مشاكل منطقة القبائل. فيمكنها أن تتحول إلى كوسوفا أخرى».

وفى إحدى الليالى، كنت أمر بإحدى باعة الخضار فى شوارع العاصمة الجزائرية؛ فإذا بى أرى مجموعة من البائعين الشباب، فى ملابس أفغانية، وذقون طويلة، وأثواب فضفاضة متطايرة. «لقد قُصت أجنحتهم».. قالها لى سائقى، الذى كان من ضمن المكافحين فى حرب الاستقلال. «هل تعلم كيف عاملهم التونسيون؟ لقد خلعوا أعينهم بملاعق الشاى. لقد كانت الطريقة المثلى لتهدئتهم هى إرهابهم وترويعهم حتى الموت. لقد بدأنا أخيراً فى التنفس ثانية». وعندما سألته، عن الحزب الذى اختاره فى انتخابات ١٩٩١، رد علىّ قائلاً: «جبهة



الإنقاذ الإسلامية. كيداً فى الشاذلى بن جديد». صحيح أنه ندم فى اليوم التالى، ولكن كثيرين غيره لم يندموا.

لقد كان لسياسة الدولة الباطشة أثر كبير فى أفول نجم الأصوليين. فلم يعد زعماء الإسلام السياسى يتحركون بنفس الحماسة، التى كانوا يتحركون بها من قبل. وصار ما هو مصرح به الآن، يتمثل فى حركة «النهضة الإسلامية»، التى يتزعمها الشيخ «عبد الله جاب الله»، والذى فاز بـ٤٣ مقعداً بالمجلس الوطنى، فى انتخابات العام الماضى. وبالطبع، يترصد بوتفليقة الآن الشيخ جاب الله، ليرد له الجميل فى انتخابات ٢٠٠٤ القادمة.

ويجىء هنا العالم البريطانى «هوُخ روبرتس» ليحلل تلك الظاهرة، فيقول: «أن هناك توجهاً لإعادة امتصاص الإسلاميين الجزائريين فى داخل النسيج الوطنى الأوسع». ولكن بالرغم من ذلك، ستظل «الحدود» موجودة، فجبهة الإنقاذ الإسلامية ما زالت غير شرعية: وزعماؤها ما زالوا موقوفين عن الحركة، بل عن الخروج من منازلهم، وحزب مثل حزب «الوفا» محظور من الاشتراك فى الانتخابات. بالرغم من كونه أقل «راديكالية» من حزب الشيخ جاب الله. لأن الكثيرين من زعماء هذا الحزب كانوا من نشطاء جبهة الإنقاذ الإسلامية: بالإضافة إلى شخصية «أحمد طالب إبراهيمى». وهى الشخصية المحورية فى داخل الحزب، التى لديها مقدرة على جمع القوميين والإسلاميين الوسطيين، المعارضين سوياً للدبوفوار، فى صف واحد.

فى نهاية ديسمبر الماضى، نشرت صحيفة «ليبرتيه» اليومية مقالاً تحت عنوان «٥٠ مليون جزائرى فى ٢٠٥٠». العدد ليس بسيطاً، خاصة إذا ما قارناه بما كانت عليه الجزائر فى عام ١٩٦٢، حيث كان تعداد السكان أقل من عشرة ملايين نسمة. أما الآن، فقد وصل التعداد إلى ثلاثين مليوناً: منهم ٨٠ فى المائة ليس لهم كلمة ولا دور فيما يحدث.. فهم أقل من الثلاثين.. ومن ثم، فهم لا يصلحون. وكما أخبرنى عبد العزيز رحابى ذات يوم: «إن الرجال الذين قاموا بالثورة، ما زالوا يعتبرون أنفسهم جيل النار: ويعتبرون أن كل من ولد بعد الثورة من جيل الرماد». لقد ترعرع جيل الرماد على تعاليم الثورة.. وأهمها أن التغيير السياسى لا يتحقق إلا بالكفاح المسلح. لم يعط جيل الرماد الفرصة، لكى يفكر. فى التغيير. بطريقة أخرى. وبالرغم من أن جيل النار قد فشل سياسياً واقتصادياً. بعد الاستقلال، إلا أنه مصر على تلقين جيل الرماد مبادئ الثورة وتعاليمها. وكانت النتيجة المنطقية لهذا الإصرار، هى هروب جيل الرماد خارج البلاد. لعلهم يجدون متنفساً. فتعال.. لكى ترى معى هذه الحقيقة مجسدة أمام السفارة الفرنسية. ليس بعيداً عن فيلا خالد نزار. حيث الجموع الغفيرة من الشباب الجزائرى، تنتظر كل ليلة من السادسة مساء حتى نهار اليوم التالى. منتظرين تأشيرات العمل. وعندما زار شيراك العاصمة مؤخراً، صعق بمشهد تلك الجموع، التى أخذت تصرخ فى وجهه. «فيزا. فيزا!». ومن لم يفلح منهم فى السفر، كان مصيره إما الدخول فى مستنقع الجريمة، وإما الدخول فى مستنقع المتمردين فى كهوف الجبال.

لقد قالها لى يوماً، صديق فى العقد السادس من عمره: «إن شباب الجزائر لا يعبأ بالثورة: ولا يعبأ بما حدث لأبان رمضان، مهندس الثورة. فالذين يحتكمون على بعض المال يذهبون إلى الخمارة: والذين يحتكمون على قدر أكبر من المال يذهبون لشراء المخدرات. حتى الآن، يوجد جزائريون كثيرون، قد وصلوا إلى سن الأربعين، ولم يتزوجوا بعد، لأنهم لم يستطيعوا توفير مسكن للزوجية. ومنهم من لم يستطع الصبر، فتورط فى علاقات غير شرعية...».

وفى يوم مغادرتى للجزائر، جاءنى هذا الصديق بخبر جديد: «لقد قام بتقديم أوراقه للحصول على تأشيرة عمل فى جنوب أفريقيا». ■



كتاب الزاوية

بغـــــداد ١٨٠٨

بغداد مدينة ألف ليلة وليلة التى يستحضر اسمها السحرى فى الذهن صورة رومانسية مدهشة. وخيال الإنسان يرسم منظرها الرائع بأنه منظر لمدينة ذات بياض يشبه بياض المرمر، تبرز من خلاله القباب الذهبية الصقيلة لكثير من المساجد. فتتلألأ كخيط من أحجار كريمة ملونة فى شمس الظهيرة الملتهبة. وتشمخ منائرها الهيفاء بوضوح فى قلب السماء اللازوردية العميقة. ولعلها ذات قصور تخفى صورًا أخاذة لحريم الباشا. يرتدى فيها الخدم الملابس الجذابة الآسرة. ويندفعون هنا وهناك فى الأفنية الواسعة أو يحرسون بوابات تلك القصور حراسة مشددة فى وقت تزدحم فيه الشوارع والأسواق بحشد مندفع طلق الأسارير لتجار الأقاليم وأثرياء الشرق.

هى بالتأكيد سوق تجارية كبيرة ومدينة مهمة.ولم يكن النفوذ البريطانى كبيرًا فى هذه الفترة الزمنية من عام ١٨٠٨.

كانت بغداد تعج بالجواسيس والوكلاء الخاصين والوكلاء المضادين، ووضعها كان يعد مفتاحًا لجعلها مدينة ملائمة. ونظرًا إلى وقوعها على ضفتى نهر دجلة، فقد أصبحت ملتقى للطرق الرئيسية بالإضافة إلى طرق القوافل خلال صحارى ما بين النهرين الموحشة.

ومن الأراضى الجبلية للأناضول حتى موانئ الخليج العربى البحرية، ومن سورية إلى بلاد فارس. التقى تجار من جميع الجنسيات الشرقية. فلا عجب والحال هذه أن تكون بغداد فى ذلك الوقت، مركزًا لقيادة الجيش البريطانى الذى سيجتاح الهند.

اقتصاد المعرفة

المعنى والمغزى

نبيل على

أفرزت تكنولوجيا الصناعة مجتمعا مختلفا عن مجتمع الزراعة وأفرزت تكنولوجيا المعلومات مجتمعا مختلفا عن مجتمع الصناعة.. ولكن شتان ما بين الاختلافين

أولاً: مقدمة عن نشأة مجتمع المعرفة وطبيعة اقتصاده

١ : ١ نظرة تاريخية

عبر مراحل ارتقائها المتعاقبة، ظلت التكنولوجيا فى تعاملها مع المادة تتحرك من الصلادة صوب الليونة. من الصلد (الأحجار والمعادن) إلى الهش (فحم عصر البخار)، ثم إلى المائع (كالنفط وسوائل الكيمياء الصناعية وغازاتها)، وصولاً إلى أدنى حالات التماسك المادى، ونقصد بذلك فيض الإلكترونيات والجسيمات النووية والأشعة والموجات والإشعاعات والفوتونات أو الجسيمات الضوئية وغيرها مما تتعامل معها تكنولوجيا الكهرباء والذرة والليزر، ولم تتوقف رحلة النزوع إلى الليونة عند هذا الحد، بل استمرت مع ظهور تكنولوجيا المعلومات لتصل إلى ذروة الليونة القصوى بعد أن تسامت المادة الخام فى صورة عناصر لامادية لا محسوسة، والتى جرى العرف على ترتيبها وفقاً للرباعية الرمزية التالية:

. البيانات data

. المعلومات information

. المعارف Knowledge

. الحكمة Wisdom

وكما أفرزت تكنولوجيا الصناعة مجتمعاً مختلفاً عن مجتمع الزراعة، كذلك أفرزت تكنولوجيا المعلومات مجتمعاً مختلفاً عن مجتمع الصناعة، ولكن شتان بين هذا الاختلاف وذاك، فالنقلة النوعية إلى مجتمع المعلومات تفوق سابقتها بكثير، سواء من حيث عظمة الآمال التى تبشر بها أو جسامة المخاطر التى تنطوى عليها، وقد تعددت أسماء هذا المجتمع الجديد، واتخذت سلسلة مترادفاته نمطاً متصاعداً من حيث درجة الارتقاء الاجتماعى تمثله الثلاثية التالية:

❖ مجتمع المعلومات: وليد الفيض الكثيف من المعلومات وتطبيقات المعلوماتية التى تسرى داخل المجتمع لدعم أنشطته، وتفسير ظواهره، وحل مشكلاته، وتصويب أدائه.

❖ مجتمع المعرفة: القائم على استغلال المعرفة كأهم مورد للتنمية الاقتصادية والنماء الاجتماعى بصفة عامة.

❖ مجتمع التعلم: وهو يمثل . فى سياقنا الراهن . ذروة الارتقاء المجتمعى، حيث يزخر المجتمع بكثير من الموجودات القادرة على التعلم ذاتياً، وذلك بعد أن أصبحت ملكة الذكاء غير مقصورة على الإنسان فقط، بل أصبحت خاصية موزعة على الآلات والأدوات والنظم والمؤسسات، وذلك بفضل انتشار نظم المعلومات وهندسة الذكاء الاصطناعى وآليات التحكم التلقائى، ومجتمع التعلم المنشود له ذكاؤه الجمعى، وذاكرته الجمعية، وشبكة أعصابه الجمعية (وتمثلها شبكة الإنترنت فى الوقت الراهن)، وله كذلك وعيه الجمعى المتمثل فى معارفه ومدركاته وخبراته، بل له لاوعيه الجمعى أيضاً، الذى يعمل تحت طبقات متراكمة من القيم والعقائد والأيديولوجيات والأعراف وما شابه.

تنطوى هذه التعريفات الثلاثة على قدر كبير من التداخل، ربما يزول بعض منه من خلال تناولنا للفروق بين عناصر الرباعية الرمزية السالفة الذكر.

١ : ٢ رباعية: البيانات . المعلومات . المعرفة . الحكمة

يعد إدراك الفروق بين عناصر رباعية: (البيانات . المعلومات . المعرفة . الحكمة) مدخلاً أساسياً لرصد مراحل تطور تكنولوجيا المعلومات من جانب، وفهم طبيعة المجتمع الذى انبثق منها من جانب آخر. يلخص (شكل ١) المسار الذى تتدرج فيه البيانات وصولاً إلى الحكمة، وكما يوضح الشكل تتم عملية الارتقاء الرمزى هذه من خلال ثنائيات من العمليات الذهنية الأساسية والتى تمكن الكمبيوتر من القيام ببعضها، ويسعى مصمموه حالياً لإكسابه القدرة على محاكاة كثير مما بقى منها.

وهذه تعريفات موجزة لعناصر هذه الرباعية:

❖ البيانات: هى المادة الخام، هى المعطيات البكر. إن جاز التعبير، البيانات هى بنود البطاقة الشخصية ومادة



أصبحت المعرفة قوة دافعة، أو محركاً رئيسياً للاقتصاد الحديث؛ فهى التى توفر معظم الوسائل الخاصة بزيادة إنتاجية عمالة المصانع والمكاتب والفصول، وهى مصدر محتوى الرسائل المتبادلة عبر شبكات المعلومات والمقوم الرئيسى للبرمجيات التى تعالج هذا المحتوى

استيفاء النماذج، وقراءات أجهزة القياس، والإشارات التى تنبعث من أجهزة الإرسال وتلتقطها أجهزة الاستقبال. البيانات هى ما ندركه مباشرة بحواسنا، هى إشارات اليد وحركة العين، وإيماءة الرأس، وتغير ملامح الوجه، وهذا بالطبع على سبيل المثال لا الحصر.

◆ المعلومات: هى ناتج معالجة البيانات من خلال عمليات التحليل والتركيب، وذلك من أجل استخلاص ما تتضمنه البيانات من مؤشرات وعلاقات وتعالقات ومقارنات وكليات وموازنات ومعدلات وغيرها، وذلك من خلال تطبيق العمليات الحسابية والطرق الإحصائية والرياضية والمنطقية، أو من خلال إقامة نماذج المحاكاة وما شابه، وعليه فالبيانات هى ركيزة المعلومات، هى المتغير المستقل الذى لا يستحدث، والمعلومات هى المتغير التابع.

◆ المعرفة: هى حصيلة هذا الامتزاج الخفى بين المعلومات والخبرة والمدركات الحسية والقدرة على الحكم، فنحن نتلقى المعلومات، ونتمثلها فى عقولنا، نطبق عليها آليات الاستنباط deduction لاستخلاص المعرفة الضمنية الكامنة بها، وآليات الاستقراء induction لتوليد معرفة جديدة انطلاقاً منها. استنتاجاً من ذلك فالفرق بين المعلومات والمعرفة يفوق بكثير الفرق بينها، أى المعلومات، وبين البيانات.

◆ الحكمة: أخيراً، نصل إلى ذروة الهرم المعرفى، حيث نواجه أعقد العمليات التى يمارسها الذهن البشرى لـ «تقطير» المعرفة إلى حكمة مصفاة، و«تجاوز» المتاح من المعرفة، وانتهاك السائد، وزعزعة الراسخ، من أجل فتح آفاق معرفية جديدة، ومن أجل كسر القيود واقتناص الفرص، وترشيد استغلال الموارد واستخدام الوسائل والموازنة بين تحقيق الغايات وكلفة الوصول إليها.

وفقاً لهذه الرباعية يتم رصد تطور الكمبيوتر من آلة لمعالجة البيانات data processing إلى آلة لمعالجة المعلومات information processing، ثم إلى آلة لمعالجة المعارف knowledge processing قادرة على محاكاة وظائف الذهن اللغوية: فهماً وتعبيراً، قراءة وكتابة، تصنيفاً وتلخيصاً، وعلى القيام بمهام الخبراء من مصممين ومحللين ومعلمين، وعلى اتخاذ القرارات ومقارنة السيناريوهات، والتحكم فى النظم والآلات، وإقامة العوالم الميكروية الخائلية virtual micro-worlds، بل برهنة النظريات وتأليف المقالات أيضاً.

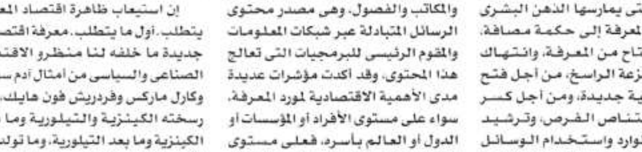
خلاصة، لقد فجر الكمبيوتر طاقة المعرفة الكامنة فى جوف المعلومات، ونستهدى فى مجازنا هنا بما خلص إليه بروكز Brookes [1] فى محاولته لوضع أساس نظرى لعلم استرجاع المعلومات حيث طرح بجرارة مفهوم العالم الإدراكى cognitive كنظير معرفى للعالم الفيزيائى (المادى) physical. وكما حدد أينشتين للفيزيائى علاقته الحاكمة بمعادلته الشهيرة التى تربط بين الكتلة والطاقة، اقترح بروكز، فى المقابل، ثنائية «المعلومات: المعرفة» كأساس للعالم الإدراكى، لتصبح فى إطارها المعلومات فى مقام الكتلة والمعرفة بمثابة طاقتها الكامنة، وهكذا أصبحت المعرفة قوة دافعة، أو محركاً رئيسياً للاقتصاد الحديث؛ فهى التى توفر معظم الوسائل الخاصة بزيادة إنتاجية عمالة المصانع والمكاتب والفصول، وهى مصدر محتوى الرسائل المتبادلة عبر شبكات المعلومات والمقوم الرئيسى للبرمجيات التى تعالج هذا المحتوى، وقد أكدت مؤشرات عديدة مدى الأهمية الاقتصادية لمورد المعرفة، سواء على مستوى الأفراد أو المؤسسات أو الدول أو العالم بأسره، فعلى مستوى الأفراد تضاعف ثقل العمالة الذهنية، وتعاظمت سطوة الرأسماليين الذهنيين الجدد صنيعة اقتصاد المعرفة، ويكفى سنداً لذلك أن ثلاثة من أغنى أغنياء العالم العشرين بنوا ثرواتهم من صناعة البرمجيات، أما على مستوى المؤسسات فيكفى مثالاً هنا أن إجمالى القيمة الرأسمالية لخمس شركات تعمل فى مجال صناعة المعلومات قد تضاعف ٥٠ ضعفاً خلال عشر سنوات من ١٢ بليون دولار سنة ١٩٨٧ إلى ٧٠ بليون دولار عام ١٩٩٧[٢]، وعلى مستوى اقتصاد الدول، نكتفى بمثالين هنا: المثال الأول من الولايات المتحدة حيث يفوق حالياً إجمالى عائد صناعات البرمجيات والنشر والتسجيل الصوتى والمرئى عائد قطاعات الزراعة وصناعتى الفضاء والسيارات، والمثال الثانى من الهند حيث حقق قطاع صناعة البرمجيات عام ٢٠٠٠ ثمانية مليارات دولار وناهز حجم عمالته رقم المليون عامل، أما عالمياً فيؤكد أهمية اقتصاد المعرفة ارتفاع نصيب التكنولوجيا المتقدمة فى التجارة العالمية من ١٢٪ عام ١٩٨٠ إلى ٢٤٪ عام ١٩٩٤.

١ : ٣ الحاجة الماسة لمعرفة اقتصادية جديدة

إن استيعاب ظاهرة اقتصاد المعرفة يتطلب، أول ما يتطلب، معرفة اقتصادية جديدة ما خلفه لنا منظرو الاقتصاد الصناعى والسياسى من أمثال آدم سميث وكارل ماركس وفردريش فون هايك، وما رسخته الكينزية والتيلورية وما بعد الكينزية وما بعد التيلورية، وما تولد عن التوجه الاقتصادى لليبرالية الجديدة من «تاتشرية وريجانية»، وما يطرحه كذلك خطاب العولمة المضادة من مفاهيم اقتصادية بديلاً عن رأسمالية التكنولوجيا المتقدمة التى يتبناها خطاب العولمة الراهن. لقد بات الفكر الإنسانى فى أمس الحاجة لمعرفة اقتصادية جسورة تتصدى للركائز الأساسية التى تقوم عليها المنظومة الاقتصادية، وتعيد النظر فى الأسس التى انطلق منها الفكر الاقتصادى الكلاسيكى. لقد مضى الاقتصاد سادراً فى غيه، زاعماً كونه مجالاً مستقلاً بذاته، وقد استهوته المؤشرات الكمية والمعادلات الرياضية والسلاسل الزمنية. ولقد أخذت بلبه وضعية العلوم الطبيعية، وكان الأولى به أن يتوجه بمناهجه صوب الإنسانيات لا الطبيعيات. وما أبهظ الضريبة التى دفعتها البشرية لهذه العقلانية الاقتصادية القصيرة النظر. لقد بات ضرورياً أن يهجر الاقتصاد انعزاليته كى يسترد غايته الأصلية لتوفير سبل المعيشة، وتلبية احتياجات البشرية جمعاء. إن مورد المعرفة، إن أحسن استغلاله، يمثل فرصة نادرة لتحقيق هذه الغاية، وإصلاح ما نجم عن الاقتصاد الصناعى المعصوب العينين من اختلال واستغلال وبطالة واغتراب واحتكار وصراعات، وتدمير للبيئة، وتبديد لقدرات البشر، وتهديد لأمنهم وأمانهم. إن الوضع أسوأ من أن يستمر، ولا يمكن أن نظل أسرى فكر وهوى بعض أولئك الاقتصاديين، أو العقلاء الحمقى على حد تعبير أمارتيا سن[٣]، والذين واتت أحدهم الجرأة ليصرح: «إنه من الممكن حل مشكلة تلوث الهواء لو تحول الهواء إلى سلعة»، ويبدو هذا متسقاً مع ما تتسم به العولمة الراهنة، صنيعة هذا الفكر الاقتصادى المتهالك، من نزعة شديدة نحو تسليع «الرائحة»، رائحة الزهرة، ونقصد بها الثقافة كما شبهها البعض بالنسبة إلى مجتمعها.

ودعنا نؤكد هنا أن مصدر الصعوبة الأساسى فى استيعاب ظاهرة اقتصاد المعرفة أنه لا يتعامل فقط مع موارد لا مادية غير محسوسة بل يمتد توجهه اللامادى ليشمل آليات معالجة موارد المعرفة (المتمثلة فى البرمجيات ونظم المعلومات) وكذلك قائمة العوائد والكلفة المرتبطة بالإنتاج المعرفى، ومن أمثلة ذلك:

- ما هو العائد الطويل الأجل للاستثمار فى مجال التربية؟
- ما هى الخسارة المترتبة عن فقدان الهوية القومية؟
- كيف تتحقق الموازنة بين



شكل رقم (١): مسار الارتقاء من مستوى البيانات إلى مستوى المعرفة وصولا إلى الحكمة



العائد السياحى والكلفة الاجتماعية لتدمير البيئة المحلية، وتهديد الآثار التاريخية، والعبث بالتقاليد الاجتماعية كما نشهده فى بعض المناطق والقرى السياحية؟

ولا شك أن التعامل مع العناصر اللامادية غير المحسوسة أكثر تحدياً نظراً لغياب الأسس الكمية لحسابها وصعوبة التنبؤ باحتمالاتها المتعددة وآثارها الجانبية غير المتوقعة. خلاصة القول إن اقتصاد المعرفة يطفو على بركة من «الموائع» والمفاهيم الزائغة التى لم تستقر بعد. وربما يفسر ذلك تعدد الأسماء التى أطلقت على اقتصاد المعرفة، والتى تشمل قائمة مترادفاته:

- اقتصاد انعدام الوزن Weightless economy
- الاقتصاد اللامادى immaterial economy
- اقتصاد المعلومات information economy
- اقتصاد فضاء المعلومات cyber economy
- الاقتصاد اللامحسوس intangible economy

وتحاشياً للخوض فى متاهة التفاصيل والفروق الدقيقة، استقر الرأى على تسميته بـ «الاقتصاد الجديد». وهو اقتصاد جديد حقاً لا يدين - حتماً - إلى نظريات الاقتصاد التقليدى أو حتى إلى صور معدلة منها.

إزاء كل هذه التحديات تجاسرت الدراسة الحالية على اقتحام متاهة اقتصاد المعرفة فى محاولة يقوم بها «معلوماتى»، لا «اقتصادى»، تأكيداً لكون اقتصاد المعرفة قضية إنسانية فى المقام الأول تتجاوز حدود التخصص الضيق بعد أن باتت شاغل الجميع. تستهل الدراسة باستعراض موجز لمنظومة المعرفة من منظور اقتصادى، تحوم بعده حول بعض المفاهيم والركائز الرئيسية التى تقوم عليها منظومة اقتصاد المعرفة فى محاولة لتحديد معنى كل منها ومغزاه. فيما يخص المعنى يتم استنباطه من مقارنة تعقدها الدراسة بين طبيعة اقتصاد المعرفة والاقتصاد التقليدى تبرز من خلالها النقلات النوعية التى أدت إلى هذا التحول أو نجمت عنه. أما المغزى فقد سعت إلى الوصول إليه بسرد انعكاسات هذه النقلات النوعية على الجوانب المختلفة للمنظومة الاقتصادية.

ثانياً: منظومة المعرفة من منظور اقتصادى

٢ : ١ الإطار العام لمنظومة المعرفة

حظى الاقتصاد بقسط وافر من الفكر الفلسفى والتنظير الأكاديمى والتبسيط العلمى، على العكس من ذلك ظلت المعرفة، رغم شيوع استخدامنا لها، بمنأى عن الوضوح والتحديد، وهو أمر لا يستقيم مع تزايد أهمية الدور الذى تلعبه المعرفة فى صياغة المجتمع الحديث بصفة عامة، ويتعذر معه تناول إشكالية اقتصاد المعرفة بصفة خاصة، لهذا نورد هنا، كتمهيد أساسى، استعراضاً موجزاً لمنظومة المعرفة، والتى يلخص (شكل ٢) إطارها العام من منظور الدراسة الراهنة، ويشمل هذا الإطار ثلاثة مقومات رئيسية هى:

- ❖ نوعيات المعرفة ومستوياتها.
- ❖ الدورة الكاملة لاكتساب المعرفة.
- ❖ الفروع المعرفية التى تساند المعرفة وتنبع منها وتنصب فيها.

وسنتناول فيما يلى كلا من هذه المقومات الثلاثة بإيجاز من منظور اقتصادى



٢ : ٢ نوعيات المعرفة

يمكن تقسيم المعرفة وفقاً لمجالها وطبيعتها إلى:

معرفة علمية: وهى ترتكز على علوم الطبيعيات ممثلة هنا بثنائية علم الطبيعة (الفيزياء) الذى يتعامل مع «اللاحيوى» أساساً، وعلم الأحياء (البيولوجيا) الذى يتعامل مع «الحيوى». وقد قام اقتصاد المعرفة على تكنولوجيا الكمبيوتر والاتصالات التى تعد الفيزياء - حتى الآن - أهم العلوم المؤسسة لها، والتكنولوجيا الحيوية وليدة الثورة التى حدثت فى مجال الميكروبيولوجى وهندسته الوراثية. وقد اندمج هذان الفرعان حالياً فيما يعرف بالمعلوماتية الحيوية bio-informatics التى يتوقع الجميع أن تكون لها إنجازات بالغة بالأثر على إنتاجية جميع الكائنات: إنساناً وحيواناً ونباتاً، وستكون لها تطبيقاتها المثيرة ذات الأبعاد الاقتصادية البعيدة المدى.

معرفة الإنسانيات: ويأتى على رأسها علم اللغة، ركيزة فروع الإنسانيات الأخرى، والتى تشمل علم الاجتماع، وعلم الإناسة (الأنثروبولوجيا)، وعلم التاريخ، والجغرافيا البشرية، وعلم الثقافة، وتزداد أهمية هذه المعرفة مع تنامى التوجه الثقافى الاجتماعى لمنتجات تكنولوجيا المعلومات. مع ارتقاء نضوجها العلمى، راحت فروع الإنسانيات تبحث عن نهج جديد يخلصها من أسر ما اقترضته من أنهج علوم الطبيعيات، وهناك كثيرون يتوقعون أن تستحدث الإنسانيات مناهج فكر جديدة يمكن أن تقترضها علوم الطبيعيات ذاتها، بعد أن باتت هى الأخرى تواجه أزمة منهجية حادة.

تأسست العلاقة بين علوم الطبيعيات وعلوم الإنسانيات عن طريق الرابطة الوثيقة التى أقامها الميكروبيولوجى الحديث، ذروة علوم الطبيعيات، مع اللغة، سندريللا علوم الإنسانيات، وهى الرابطة التى تتضح - أكثر ما تتضح - فى استخدام اللغة من قبل الميكروبيولوجى الحديث كنهج أساسى له، وها هو المجاز اللغوى يطغى على قاموس الميكروبيولوجى، والأمثلة على ذلك عديدة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: السفر الوراثى، المعجم الوراثى، الأبجدية الوراثية، الجملة الوراثية، الترجمة البيولوجية، وها نحن نسمع - حالياً - عن «فهرسة البروتينات» واللبس فى قراءة سلاسل الجينات، وعن تطبيق أساليب النحو والتحليل الدلالى على النص الوراثى لكشف بنيته التركيبية ومعانى (دلالات) مقاطعه الجينية.

لقد استدرجت تكنولوجيا المعلومات علوم الإنسانيات إلى حلبة الاقتصاد بعد أن وفرت لهذه العلوم شقها التكنولوجى الخاص بها، المتمثل فى تكنولوجيا اللغة وهندسة الذكاء الاصطناعى والهندسة المجتمعية وصناعة الثقافة وما شابه. ويمثل الثالوث المعرفى المكون من الميكروبيولوجى وعلم اللغة الحديث وتكنولوجيا المعلومات مقدمة ركب اقتصاد المعرفة والتى تجر وراءها قاطرة المعرفة الإنسانية بأكملها: فلسفة وعلماً وفناً وثقافة وتقانة.

المعرفة الكامنة وراء الفنون: إن الفن - فى جوهره - ضرب من المعرفة، معرفة تختلف من حيث طبيعتها عن تلك التى يمدنا بها العلم، وقد أكد هذه الحقيقة المنحى المعرفى الذى اتخذته فنون عصر المعلومات، والتى نورد هنا بعضاً من أجناسها: الفن الرمزى، الفن المفهومى، الفن الاتصالى، وجميعها كما تدل أسماؤها كثيفة المعرفة. لقد فجر هذا التوجه الفنى كثيراً من القضايا التى استلزمت تمحيص المعرفة الكامنة وراء الفنون والتى أصبحت عنصراً أساسياً فى تكامل معرفة عصر المعلومات، وهى المعرفة التى تنأى - كما أوضحنا - عن الفصل بين الطبيعيات والإنسانيات من جانب، وتسعى لاختراق الحواجز الفاصلة بين العلوم والفنون من جانب آخر.

تكمن علاقة الفنون بعلوم الطبيعيات والإنسانيات بعلاقة ثلاثتهما بعلم اللغة، وقد أشرنا أعلاه إلى علاقة الطبيعيات والإنسانيات بعلم اللغة، أما فيما يخص الفنون فاللغة هى بمثابة «النسق الرمزى الأم» الذى يحتذى به لوضع الأساس النظرى للغات الفنون الأخرى: لغة الموسيقى ولغة الشعر ولغة التشكيل ولغة المسرح ولغة الأداء الحركى.

تمثل المعرفة الكامنة وراء الفنون مدخلاً نظرياً أساسياً لإحدى التكنولوجيات المحورية لاقتصاد المعرفة، ونقصد بها تكنولوجيا الوسائط المتعددة multi - media التى تمتزج فيها أنساق الرموز المختلفة: نصوصاً وأشكالاً وأصواتاً.

معرفة الخبرة العملية: وهى المعرفة الدارجة، معرفة الحس الشائع المباشر common sense knowledge ومعرفة الخبرات العملية، وممارسات الحياة اليومية، وهى المعرفة الشغالة - إن جاز التعبير - التى يلجأ إليها الفرد العادى

مضى الاقتصاد سادراً فى غيه، زاعماً كونه مجالاً مستقلاً بذاته. وقد استهوته المؤشرات الكمية والمعادلات الرياضية والسلاسل الزمنية. ولقد أخذت بلبه وضعية العلوم الطبيعية، وكان الأولى به أن يتوجه بمناهجه صوب الإنسانيات لا الطبيعيات. وما أبهظ الضريبة التى دفعتها البشرية لهذه العقلانية الاقتصادية القصيرة النظر

لفهم واقعه، وحل ما يواجهه من مشاكل، وتفسير ما يلاقيه من ظواهر. لقد نبه جيدنز بحكمة إلى مدى الخطورة فى تجاهل أعمال ماركس، وماكس فيبر، ودوراكيم للإنجازات الإيبستيمولوجية (المعرفية) للفرد العادى[4]، فقد اخفقت، فى رأيه، نظرياتهم الاجتماعية الجامعة فيما نجح فيه أفلاطون عندما ميز بين المعرفة والرأى، المعرفة كنتاج للنظرية او العلم، والرأى بصفته المعلومات الأقل درجة، الشائعة والمتاحة للفرد العادى. إن هذه المعرفة العملية الدارجة هى التى أبدعت الفلكلور والحكمة الشائعة، والموسيقى الشعبية والحروف اليدوية وما شابه، وهى معرفة فشل حتى الآن الاقتصاد الجديد، ناهيك عن التقليدى فى تحديد ملكيتها وحماية حقوق مالكيها كما سيتضح فيما بعد.

٢ : ٣ الدورة الكاملة لاكتساب المعرفة:

يعتمد اقتصاد المعرفة على قدرة المجتمعات على القيام بالمهام المختلفة للدورة الكاملة لاكتساب المعرفة ويقصد بها أربع عمليات أساسية هى:

❖ النفاذ إلى مصادر المعرفة: ويشمل ذلك البحث عن المعرفة واسترجاعها، والتواصل مع من يمتلكون ناصيتها من أهل العلم والخبرة، وقد تعاظم دور هذا التواصل مع انتشار حلقات النقاش عبر الإنترنت، يتطلب النفاذ إلى المعرفة بنى تحتية تزداد كلفة إرسائها، علاوة على ما أضافته الملكية الفكرية من قيود وأعباء اقتصادية على اقتناء المعرفة.

❖ استيعاب المعرفة: ويقصد بها مهام تحليل المعلومات وتبويبها وفهرستها وترشيحها واستخلاص ما يكمن بها من مفاهيم وأفكار محورية، وقد استحدثت لذلك أساليب تكنولوجية متقدمة مثل النظم الآلية للتخليص والفهرسة والتنقيب عن المعرفة فى «مناجم البيانات» data mining، ومن شبه المؤكد أن تستغل المراكز المتقدمة هذه المنتجات المعرفية تجارياً، وأن تقيم أسيجة منيعة حولها تحرم غير القادرين من الاستفادة منها.

❖ توظيف المعرفة: ويمثل أساليب تطبيق موارد المعرفة لتوصيف المشكلات وحلها، وتمثل نظم المعلومات بصفة عامة، والبرمجيات بصفة خاصة، أهم وسائل توظيف المعرفة وزيادة الإنتاجية وتحقيق أقصى عائد اقتصادى.

❖ توليد المعرفة الجديدة: وهو استغلال المعرفة القائمة فى توليد معرفة جديدة غير مسبوقة، أو معرفة بديلة تحل محل معرفة متقادمة لابد من إهلاكها، وهى المهمة التى تقوم بها قطاعات البحوث والتطوير، والتى أصبحت، فى أغلبها، خاضعة لشروط الجدوى الاقتصادية لا إلى الدوافع العلمية المحضة. لقد زادت كلفة البحوث العلمية نتيجة لظاهرة تضخم العلم الذى كاد أن يصبح تابعاً للتكنولوجيا، وليس العكس كما كان عليه الحال فى الماضى، ويفسر هذا التحول الاندفاع الشديد نحو خصخصة أعمال البحث والتطوير، وتفشى ظاهرة الاندماج بين مؤسسات البحوث والتطوير، وانكماش نسبة المساهمة العلمية للدول النامية بدرجة تهدد باستبعادها نهائياً.

تأسيساً على هذا الوصف الموجز لدورة اكتساب المعرفة علينا أن نؤكد هنا أن التنمية القائمة على المعرفة لا تتحقق إلا إذا اكتملت هذه الدورة، فقد استسلم البعض لمفهوم خاطئ مؤداه أن توفر المعلومات على شبكة الإنترنت يمكن أن يؤدى إلى توفر المعرفة واستغلالها اقتصادياً، وخير شاهد على هذا الخطأ الشائع أن معلومات مشروع «الجينوم» تنشر تباعاً على شبكة الإنترنت فور اكتشافها، ولكن ما أشد الفرق بين هذه المعلومات الصريحة المباشرة، والمعرفة الضمنية الكامنة فى جوفها، وهى المعرفة ذات القيمة الحقيقية التى تستخدم عملياً لاكتشاف أسباب الأمراض وصناعة الدواء الجينى.

٤:٢ شجرة المعرفة:

لقد أورقت شجرة المعرفة فروعاً معرفية متعددة خاصة بها، وهو ما يؤكد تعاظم دورها فى صياغة المجتمع الإنسانى ووضعها المحورى الذى يزداد رسوخاً سواء على مستوى الإنجاز الفكرى، أو مستوى التطبيق العلمى، وتشمل فروع «معارف» المعرفة:

- نظرية المعرفة
- علم اجتماع المعرفة
- علم نفس المعرفة
- علم المعرفة
- هندسة المعرفة
- فنون المعرفة
- تاريخ المعرفة

وذلك علاوة على اقتصاد المعرفة الذى تتناوله هذه الدراسة. لا يتسع المجال هنا لتقديم هذه الفروع المعرفية وعلاقاتها المباشرة وغير المباشرة باقتصاد المعرفة، وسنكتفى منها هنا بفرع «هندسة المعرفة» نظراً لثقله الاقتصادى.

تمثل هندسة المعرفة فرعاً مستحدثاً من فروع الهندسة اللينة soft engineering، وتهدف إلى الأساليب المنهجية لاكتساب المعرفة من مصادرها، وتمثيل هذه المعرفة بصورة دقيقة منضبطة فى هيئة قواعد المعارف knowledge bases والنظم الخبيرة expert systems، وقد تشعبت هندسة المعرفة إلى فروع متخصصة من الهندسة اللينة تشمل على سبيل المثال لا الحصر:

- هندسة اللغة
- هندسة الحوار
- هندسة النظم
- هندسة البرمجيات
- هندسة الاحتياجات
- هندسة الصورة
- الهندسة المجتمعية
- هندسة الخيال imagineering

وقد أصبحت هذه التقنيات من أهم أدوات اقتصاد المعرفة: علمياً وتكنولوجياً واعلامياً وتعليمياً.

تشمل هندسة المعرفة أيضاً هندسة الذكاء الاصطناعى وتكنولوجيا المخ والأعصاب neuro-technology، ولكليهما آثار اقتصادية بالغة، فعلى سبيل المثال ستمكن هندسة الذكاء الاصطناعى من إنتاج روبوتات ذكية تختلف عن جيل الروبوتات الغشيمة الشائع حاليا، مما يجعل من الروبوتات، «أصحاب الياقات المعدنية» كما يطلق عليها البعض، مصدر تهديد حقيقى لـ «أصحاب الياقات الزرقاء» (عمال المصانع)، ولن يتوقف مهندسو الذكاء الاصطناعى عند هذا الحد: فهم يطورون حاليا ما يعرف بالروبوتات المعرفية knowbot التى من المحتمل أن تحيل كثيراً من «أصحاب الياقات البيضاء» (عمالة المكاتب) إلى جحافل جيوش البطالة.

ثالثاً: مقارنة بين اقتصاد عصر الصناعة واقتصاد عصر المعرفة:

يلخص الجدول رقم (١) مقارنة بين اقتصاد عصر الصناعة والاقتصاد القائم على المعرفة وقد اقتصرت مقارنة العناصر على الجوانب الرئيسية التالية من منظومة الاقتصاد:

- القيمة
- الملكية
- قانون العرض والطلب
- علاقة المنتج بالمستهلك
- أسس تقييم الأداء الاقتصادى
- الإدارة والتنظيم

عنصر الصناعة	عنصر المقارنة	اقتصاد المعرفة
❖ ثنائية قيمة المنفعة وقيمة التبادل ❖ أصول تحتفظ بقيمتها وإن لم تستخدم	القيمة	❖ رباعية ممثلة فى هذه الثنائية مضافاً إليها القيمة الرمزية وقيمة المعلومات ❖ أصول تفقد قيمتها إن لم تستخدم
❖ الملكية المادية التى يسهل حصرها وتوثيقها وحمايتها ❖ رأس المال المادى وسطوة أصحاب رؤوس الأموال	الملكية	❖ الملكية الفكرية التى يصعب تحديدها وحمايتها ❖ رأس المال الذهنى وسطوة الرأسماليين الذهنيين
❖ الندرة وقلة العرض تزيد من القيمة ❖ التركيز على جانب العرض (تكنولوجيا لعرض ما تقدر عليه)	العرض والطلب	❖ الوفرة وكثرة العرض تزيد من القيمة ❖ التركيز على تنمية الطلب (تكنولوجيا قادرة على تلبية أى طلب)
❖ اقتصاد قائم على طور الإنتاج ❖ نضوب الموارد المادية مع زيادة الاستهلاك ❖ المستهلك لصيق بالمنتج، المستخدم يذهب إلى مقدم الخدمة	علاقة المستهلك بالمنتج	❖ اقتصاد قائم على طور «إعادة الإنتاج» ❖ نماء الموارد المعرفية مع زيادة الاستهلاك ❖ الاستهلاك عن بعد، الخدمات تقدم للمستخدم فى موقعه ❖ على أساس المحتمل والممكن
❖ على أساس القائم بالفعل ❖ السعة الإنتاجية Productive capacity ❖ مقومات التوسع: خطوط إنتاج ومنافذ بيع...	تقييم الأداء الاقتصادى	❖ الطاقة المعرفية الكامنة Knowledge Potential ❖ البنية التحتية (من شبكات معلومات وقواعد ومعارف وبحوث وتطوير)...
❖ إدارة مركزية هرمية استاتية ❖ تنظيمات فعلية ❖ إنتاج جملى (كتلى) mass production ❖ زيادة القدرة التنافسية	الإدارة والتنظيم	❖ شبكية ديناميكية تجمع بين مركزية الإنتاج والتوزيع ولامركزية السيطرة ❖ تنظيمات خائلية Virtual ❖ إنتاج لا كتلى Demassified ❖ التنافس مع التعاون (Co-petition)



وسنتناول فيما يلى هذه النقاط بمزيد من التفصيل فى إطار ثنائية المعنى والمغزى التى أشرنا إليها آنفا، وقبل الخوض فى تفاصيل هذه المقارنة، وإذا ما أمعنا النظر فى بعض بنودها التى يوجزها الجدول المذكور، يمكن القول أن الانتقال من الاقتصاد القائم على الماديات إلى اقتصاد المعرفة على النقيض اللامادى يحمل فى طياته نقلات نوعية حادة للغاية تبلغ من الحدة، فى كثير من الأحيان، درجة التضاد التام، ومن أمثلة هذا التضاد التى ستتناولها الدراسة فيما يلى بمزيد من التفصيل:

❖ بينما تنضب الموارد المادية مع استهلاكها تنمو الموارد المعرفية كلما زاد استهلاكها.

❖ ينمو سوق الاقتصاد التقليدى بدافع العرض SUPPLY-driven، فى حين ينمو سوق اقتصاد المعرفة بدافع الطلب demand-driven.

❖ تزيد قيمة المنتج المادى مع الندرة وقلة العرض، فى حين تزداد قيمة المنتج المعرفى مع وفرته وشيوع استخدامه.

٣ : ١ القيمة

(أ) المعنى

❖ قام اقتصاد عصر الصناعة على أساس ثنائية قيمة المنفعة وقيمة التبادل، فى ظل اقتصاد المعرفة اتسعت هذه الثنائية لتصبح رباعية بعد أن أضيفت إليها القيمة الرمزية (قيمة الهوية القومية، وقيمة التهادى على سبيل المثال) وقيمة المعلومة حيث أصبحت ذات قيمة يمكن قياسها، وحساب عائدها.

❖ تتسم قيمة الأصول المادية من أراض وعقارات ومنقولات وما شابه بالثبات النسبى، وتحتفظ بقيمتها مع مرور الزمن حتى وإن لم تستخدم، على النقيض من ذلك تفقد الأصول المعرفية قيمتها إن لم تستخدم، وقيمتها عرضة للضياع ما أن تظهر معرفة أو تكنولوجيا جديدة تقوم بإزاحتها. من جانب آخر، يمكن القول إن قيمة الأصول المادية قيمة مطلقة فى حين أن قيمة الأصول المعرفية قيمة نسبية تتوقف على الهدف وراء اقتناء هذه الأصول، فمعادلة كيمائية لمركب معين. على سبيل المثال. يمكن أن تكون ذات قيمة عالية بالنسبة لعالم متخصص، أو لمصنع إنتاج كيماويات، فى حين أن قيمتها تنعدم بالنسبة لغيرهما.

(ب) المغزى

❖ لم يعد ينطلى على أحد ما تدعيه شركات الاتصالات العالمية وشعارها البراق «أى معلومات، فى أى وقت، من أى مكان»، فكيف تنسق هذه «اليوتوبيا المعلوماتية» مع كل ما نسمعه حاليا من بهاظة كلفة اقتناء المعرفة ومن تفشى نظم التشفير والتعمية encryption. قد اكتشف أرباب الاقتصاد التقليديون قيمة المعلومة، وها هى الإنترنت قد تحولت من منتدى علمى إلى سوق تجارية، وساحة زاخرة بنوادى المعلومات الخاصة (للأعضاء فقط!!).

❖ يتطلب تسارع إنتاج المعرفة وتقادمها وتلاشى قيمتها مؤسسات وتنظيمات وأساليب عمل تتسم، هى الأخرى، بالسرعة والدينامية والقدرة على اقتناص الفرص من أجل سرعة تحويل هذه المعرفة المتجددة إلى منتج معرفى قبل أن يصيبها التقادم وتطولها يد الإهلاك الفنى. يؤدى هذا الوضع إلى لهفة المنتج على تحقيق أقصى عائد استثمارى فى أقصر وقت ممكن خشية ظهور منتج منافس قائم على معرفة أفضل أو تكنولوجيا[٤] أرخص تنعدم معه قيمة منتجه، وهو الاندفاع الذى يدفع بمنتجى سلع المعرفة وخدماتها إلى المغالاة فى أسعارها فى بداية ظهورها (مثال: سعر دواء مرض الإيدز). ويزخر تاريخ تكنولوجيا المعلومات بحالات صارخة انسحقت فيها برمجيات رائدة سادت السوق، وذلك نتيجة ظهور برمجيات أفضل وأسرع وأرخص[٥].

❖ من جانب آخر، تتسم منتجات المعرفة بصعوبة تحديد قيمتها الحقيقية، الراهنة والمرتقبة، مما يتيح فرصاً للانتهازيين فى تضخيم قيمتها بهدف اجتذاب المستثمرين الذين يقعون ضحية الخداع الذى تنطوى عليه هذه «الفقاعات التكنولوجية»، ودراسات الجدوى الاقتصادية لها الزاخرة بالتوقعات المسرفة فى الوعود. وخير مثال على ذلك الكم الهائل من الفقاعات التكنولوجية الذى شهدته ساحة الإنترنت والذى أدى إلى ما يعرف بنكسة «الدوت كوم .com».

٣ : ٢ الملكية

(أ) المعنى

❖ بينما كانت الملكية المادية من ثروات الأراضى والعقارات والمنقولات وما شابه، هى السائدة فى اقتصاد ما قبل عصر المعلومات، أصبحت الملكية الفكرية هى محور اقتصاد المعرفة، وعلى خلاف الملكية المادية تتسم الملكية الفكرية بصعوبة تحديدها وتوثيقها وبالتالى حمايتها، ومصدر الصعوبة الأساسى يرجع إلى أن تكنولوجيا المعلومات قد وفرت، وستوفر، إمكانيات هائلة للنسخ وإعادة الإرسال والتحويل والتحوير، ولا تتركز المشكلة فى حماية الوسيط الإلكترونى كالأقراص المدمجة Compact discs والأقراص المرنة flippy discs، فهناك وسائل عملية لحمايتها بقدر معقول من النجاح، لكنها تكمن أساساً فى استخدام الإنترنت كأداة التوزيع الأساسية لسلع وخدمات صناعة المعلومات.

❖ تمثل حقوق النشر وبراءات الاختراع أهم أساليب حماية الملكية الفكرية، إلا أن البحث جار عن أساليب مستحدثة لتلائم الطبيعة الخاصة بالمنتج المعرفى. ويتمتع بحماية الملكية الفكرية نطاق واسع من الإنتاج الإبداعى والبرمجيات وقواعد البيانات والعلامات التجارية وما شابه، وهناك توجه لتوسيع نطاق الملكية الفكرية بحيث تغطى كثيراً من الأمور التى ظلت إلى يومنا هذا خارج نطاق الحماية، نذكر منها، على سبيل المثال، بعض الاكتشافات العلمية، ويأتى على رأسها أبحاث الميكروبيولوجى ذات الأهمية القصوى: تكنولوجيا واقتصاديا وأخلاقيا. يبدو منطقيا فى ظل التوجه الاقتصادى الرأسمالى الراهن أن ينصب الجهد على حماية الملكية الفردية، أما الملكية الجماعية المشاعة والمتمثلة فى ثقافات الشعوب ومعارفهم وحرفهم وآثارهم فلم تحظ بأى قدر من الحماية، وتركت نهبا للسرقة الصامتة التى تمارسها الشركات المتعددة الجنسيات فى عولمة فنون الشعوب وحرفها اليدوية مستأثرة بمعظم العائد الاقتصادى الذى لا ينال منه أصحاب هذه المعرفة الشعبية إلا أقل القليل (يكفى مثالاً هنا موسيقى الجاز).

❖ كرد فعل لانتشار ظاهرة تزييف منتجات صناعة الثقافة، من تسجيلات وأفلام وغيره، وضعت منظمة التجارة العالمية الاتفاقية المعروفة باسم Trips، وألحقتها باتفاقية تحدد أساليب فض المنازعات، وقد انطلقت هذه الاتفاقية من ميثاق «بيرن» الخاص بالملكية الفكرية، وهو الميثاق الذى يوقن الكثيرون أنه لم يعد كافيا، حيث طرحت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بصفة عامة، والإنترنت بصفة خاصة، قضايا مستجدة تحتاج إلى رؤية أكثر شمولاً لأمور الملكية الفكرية، وأكثر تحقيقا للتوازن بين أطراف التعامل الثلاثة ونقصد بهم: صاحب العمل الفكرى المتمتع بالحماية، ومقدم الخدمة المعلوماتية، والمستفيد، ولا شك أن بين هذه الأطراف قدراً من التعارض فى المصالح لا يستهان به.

❖ هناك عدة مصاعب أساسية: تكنولوجية وقانونية وإجرائية، تواجه حماية الملكية الفكرية، ولكن من أخطرها وجود تناقض جوهرى مرجعه أن حماية الملكية الفكرية تتطلب نوعا من الرقابة على نفاذ الأفراد إلى مصادر المعلومات، وعلى استخدامهم لها، وهى الرقابة التى تنطوى على تهديد حقيقى للخصوصية الفردية وأمن مواقع المعلومات.

(ب) المغزى

❖ تمثل الملكية الفكرية تحديا قاسياً بالنسبة للبلدان النامية، وذلك لعدة أسباب أهمها:

. كون هذه البلدان مستوردة للعلم والتكنولوجيا أكثر منها منتجة لهما، لذا ستضيف الملكية الفكرية أعباء إضافية على «فاتورة» نقل التكنولوجيا، وكما تشير دلائل عديدة سيؤدى ارتفاع كلفة الملكية الفكرية متضامنا مع العولمة والخصخصة وتحرير الأسواق، إذا ما بقى الوضع على ما هو عليه، إلى تشكيل مسار التطور التكنولوجى، واستبعاد الدول النامية من المشاركة فى توليد المعرفة وتوظيفها.

❖ إن الدفع الذى تمارسه المؤسسات التجارية واندفاعها لاستغلال موارد المعرفة، والذى يشبهه البعض باندفاع البحث عن الذهب gold rush، يضع الربح قبل الصالح العام، ويعطى الأولوية لما يدر عائداً أكبر، لا لما يعود بالنفع لأكبر قدر من الناس (بحوث مواد التجميل قبل بحوث مواد التطعيم!!).

❖ لقد نجح نظام الدولة فى عصور

استسلم البعض لمفهوم خاطئ مؤداه أن توفر المعلومات على شبكة الإنترنت يمكن أن يؤدى إلى توفر المعرفة واستغلالها اقتصادياً، وخير شاهد على هذا الخطأ الشائع أن معلومات مشروع «الجينوم» تنشر تباعاً على شبكة الإنترنت فور اكتشافها، ولكن ما أشد الفرق بين هذه المعلومات الصريحة المباشرة، والمعرفة الضمنية الكامنة فى جوفها

ثروات الأراضى وثروات الأموال. فهل سينجح فى عصر الثروة المعرفية والعمالة الذهنية. هناك من يشكك فى ذلك متوقعاً فشل الدولة فى حماية الملكية الفكرية، مما سيقوض مركزها ويهدد بانهيارها.

❖ خلاصة القول: إن الملكية الفكرية يمكن أن تزيد من اتساع الفجوة الرقمية digital divide بين العالم النامى والعالم المتقدم، ولا يجب أن يفسر ذلك بأن الكاتب يتخذ موقفاً مناهضاً لمبدأ حماية الملكية الفكرية، ولكن ما يعنيه هنا هو الحاجة إلى اتفاقيات أكثر عدلاً وتوازناً بين مصالح جميع الأطراف، أفراداً وجماعات، مبتكرين ومنتجين ومستهلكين.

٣ : ٣ قانون العرض والطلب

(أ) المعنى

❖ فى الاقتصاد التقليدى تزداد قيمة المنتجات مع الندرة وقلة العرض، فى حين يحدث العكس فى اقتصاد المعرفة، حيث تزداد قيمة المنتج المعرفى كلما شاع وتوفر، فعلى سبيل المثال تزداد قيمة برامج الكمبيوتر، كبرنامج نظام التشغيل الشهير ويندوز، مع شيوعية واتساع قاعدة مستخدميه حتى يصبح النظام القياسى بحكم الأمر الواقع defacto standard لتنزوى بالتالى البرامج المنافسة التى تقل عنه شيوعاً واستخداماً حتى لو فاقته جودة وقلت عنه سعراً.

❖ من جانب آخر، فإن سوق الاقتصاد التقليدى مدفوعة بقوة العرض، أو بقول آخر إنها تعتمد على إنتاج الممكن تكنولوجياً وبعدها يتم عرضه وتسويقه بتنمية الطلب عليه. هذا الوضع يكاد أن ينقلب إلى نقيضه فى ظل اقتصاد المعرفة، وذلك نظراً للإمكانات الهائلة لتكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا الحيوية التى أصبحت من القدرة بحيث تحيل الممكن المتصور إلى واقعى ملموس، فى ظل هذه التكنولوجيات العالية القدرة تصبح عملية إنتاج السلع والخدمات بمثابة عملية انتقاء من نطاق واسع من التطبيقات التكنولوجية الممكنة شريطة أن تحظى بالقبول الاجتماعى وتفى بمطالب الجدوى الاقتصادية: فعى سبيل المثال هناك تطبيقات عديدة يمكن تنفيذها حالياً من خلال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، إلا أنها قد أرجئت نظراً لعدم وجود طلب اجتماعى عليها (من أمثلة ذلك هاتف الفيديو videophone)، وما سمعنا عنه من رفض الكثيرين لاستنساخ البشر. خلاصة، إن آليات سوق اقتصاد المعرفة هى سوق تعمل بدفع الطلب لا بدفع العرض.

(ب) المغزى

المنتج المعرفى أكثر قابلية للعولمة، وإذا كانت شبكة الطرق السريعة التى أقامتها أمريكا هى العصب المحورى لتوزيع منتجات الصناعة التقليدية محلياً ما بين الولايات الأمريكية، فشبكة طرق المعلومات السريعة information super highways، أو الإنترنت، هى العصب المحورى لتوزيع منتجات صناعة الثقافة الأمريكية عالمياً.

❖ ستظل اللغة ميزة تنافسية أساسية فى منتجات اقتصاد المعرفة بصفة عامة، والمنتجات الإعلامية والتعليمية بصفة خاصة، ويمثل ذلك فرصة حقيقية أمام المطورين المحليين لدخول عصر اقتصاد المعرفة خاصة فى مجال الصناعات الثقافية.

❖ مع زيادة التوجه الثقافى لتطبيقات المعلوماتية، فإن ما تقوم به صناعة الثقافة الأمريكية من التجنيس homogenization المصاحب لعولمة شعوب العالم هو . فى المقام الأول . توجه اقتصادى استراتيجى من أجل توسيع النطاق التسويقى لمنتجات هذه الصناعة من خلال زيادة قدرتها على اختراق الحواجز الثقافية.

❖ يحتاج تسويق منتجات اقتصاد المعرفة إلى تنمية الأسواق معرفياً، وقد أشار البعض إلى فجوة معرفية تزداد اتساعاً ما بين شقى الإنتاج والتسويق، ونقصد بهما شق الإنتاج الكثيف المعرفة للسلع والخدمات، وشق السوق المتلقية لهذه المنتجات، والتى مازالت أسيرة آليات السوق التى رسختها المنتجات التقليدية. إن توعية الأسواق بالمنتجات المعرفية لابد أن تشمل تدريب المستهلك على كيفية تطبيقها عملياً، وتعزيزها بالقيمة المضافة وأن تكشف له عن حدود هذه المنتجات وآثارها الجانبية.

٣ : ٤ علاقة المنتج بالمستهلك

(أ) المعنى

❖ إن كان اقتصاد المعرفة قد أحدث عدة نقلات نوعية على الأصعدة الاقتصادية السالفة الذكر، فما نجم عنه . بالقياس . على صعيد ثنائية الإنتاج والاستهلاك لا يقل عن كونه انقلاباً رج المنظومة الاقتصادية من جذورها، فعلى جانب الإنتاج هناك فرق جوهرى بين اقتصاد عصر الصناعة القائم على «طور الإنتاج من الصفر»، واقتصاد عصر المعلومات القائم على «طور إعادة الإنتاج»؛ ويقصد به هنا تكرار الإنتاج بالنسخ دون ما حاجة إلى التصنيع من الصفر، فكل ما ينتجه مجتمع المعلومات، من نصوص وصور وأفلام وموسيقى وبرامج، قابل للنسخ، أو «إعادة الإنتاج»، ويمكن أيضاً إعادة إنتاج الخبرات، بل الخبراء أنفسهم، عن طريق النظم الخبيرة السابق الإشارة إليها. أما على مستوى الاستهلاك فقد قلب اقتصاد المعرفة، رأساً على عقب، العلاقة بين الموارد واستهلاكها. فبينما تنضب الموارد المادية مع استهلاكها، تنمو الموارد المعرفية كلما زاد معدل استهلاكها. وكان من الطبيعى أن تتردد انعكاسات هذا الانقلاب الجذرى لثنائية الإنتاج والاستهلاك فى جميع أرجاء المنظومة الاقتصادية تمويلاً وتخطيطاً وتصميماً وتصنيعاً وتوزيعاً.

❖ تمحور اقتصاد عصر الصناعة حول الإنتاج بالجملة، أو الإنتاج الكتلى: تصنيعاً وإعلاماً وتعليماً (mass Production, mass communication, mass education)، فى حين ينحو اقتصاد المعرفة إلى اللاتكتل demassification.

❖ من جانب آخر، لقد كان التصميم فى الصناعات التقليدية لصيقاً بالإنتاج، وكان الاستهلاك لصيقاً بالتوزيع، فاستهلاك الطعام مثلاً يتطلب أن يكون لصيقاً بمستهلكه، وطالب الخدمة لابد أن يذهب فعلياً إلى مكان تقديمها، أما بالنسبة لمنتجات اقتصاد المعرفة فيمكن فصل شق التصميم عن شق الإنتاج، ويمكن أيضاً استهلاكها أو استخدامها عن بعد.

(ب) المغزى

❖ تزداد قدرة المجتمعات على التنمية التكنولوجية مع زيادة قدرتها على استهلاك المعرفة واستيعابها وتمثلها «غذائياً»، وإزالة العوائق التى تقلل من قدرتها على الامتصاص المعرفى وسرعة تخلصها من النفايات المعرفية من المعلومات الضارة والإعلام المضلل، وما يفرزه الفكر الخرافى والعلم المزيف وأشباه العلم وأضداده.

❖ ستختفى تدريجياً الحلقات الوسيطة بين المصمم والمستهلك، وتطغى سلطة المصمم على المنتج، وتنتقل سطوة المنتج إلى سطوة المستهلك، أى تطويع الإنتاج لخدمة مطالب هذا المستهلك: متلقياً أو متعلماً أو قارئاً أو مستخدماً لنظام المعلومات.

❖ ينطوى فصل التصميم والتخطيط عن التنفيذ والإنتاج، أو بصورة أعم فصل الشق المعرفى عن الشق المادى على عنصرين متناقضين:

. استغلال الدول المتقدمة للعمالة الرخيصة فى الدول النامية مما يفتح فرص عمل لمواطنى هذه الدول.

. اقتصار دور الدول النامية على التعامل التكنولوجى مع الشق المادى دون الشق المعرفى ذى العائد الكبير وصاحب الدور الأكبر فى عملية نقل التكنولوجيا، والذى بدونه يتحول الشق المادى إلى صناديق سوداء لا يمكن فض سرها إلا من قبل من قاموا بتصميمها.

❖ يحرر الاستهلاك عن بعد المستهلك من تأثير البائع إلا أنه يحتاج إلى استحداث وسائل مبتكرة لخدمات ما بعد البيع، وتجسيد المنتجات ومحاكاة الخدمات بصورة أقرب ما تكون للواقع، وذلك من أجل معاونة المشترى، أو طالب الخدمة، فى اتخاذ قراره بالاقتناء بصورة دقيقة. من ضمن هذه الوسائل الكتالوجات الإلكترونية، ونظم المحاكاة باستخدام تكنولوجيا الواقع الخائلى Virtual Reality.

من جانب آخر يحتاج الشراء عن بعد إلى وسائل مستحدثة للتأكد من شخصية الطالب ومصداقيته، وتأمين وصول ما تم طلبه إليه، سواء عبر الشبكة (كما يحدث فى الكتب والبرامج على سبيل المثال) أو من خلال وسائل الشحن التقليدية. يحتاج ذلك إلى وسائل مستحدثة للتوثيق الإلكترونى والدفع إلكترونياً، والحصول على توقيع المشترى من خلال ما يعرف بالبصمة الرقمية.

الملكية الفكرية يمكن أن تزيد من اتساع الفجوة الرقمية digital divide بين العالم النامى والعالم المتقدم، ولا يجب أن يفسر ذلك بأن الكاتب يتخذ موقفاً مناهضاً لمبدأ حماية الملكية الفكرية، ولكن ما يعنيه هنا هو الحاجة إلى اتفاقيات أكثر عدلاً وتوازناً بين مصالح جميع الأطـــراف، أفـــراداً وجماعـــات، مبتكـــرين ومنتجـــين ومســـتهلكين

٣: ٥ مـــؤشـــرات التقييم الاقتصادى

(أ) المعنى

❖ يقاس أداء مؤسسات الإنتاج فى الاقتصاد التقليدى بمؤشرات محسوسة مثل طاقة الإنتاج والمخزون السلعى وحجم الأسواق وما شابه. أما مؤسسات اقتصاد المعرفة فيتم تقييمها على أساس مدى سلامة المنطلقات العلمية والتكنولوجية القائمة عليها، وقدرتها المعرفية الكامنة، وقابليتها للتوسع والاندماج مع التكنولوجيات الأخرى.

❖ ترتكز مقومات التوسع لمؤسسات الاقتصاد التقليدى، أساساً، على عوامل مادية كإضافة خطوط إنتاج جديدة أو فتح منافذ جديدة لتوزيع السلع والخدمات وما شابه. فى حين تقاس قابلية مؤسسات اقتصاد المعرفة للتوسع على توفر البنى التحتية من شبكات اتصالات وبحوث وتطوير وقواعد معارف وما شابه، وجميعها أمور تحدد مستوى الذكاء الجمعى للمؤسسة ككل، ذلك الذكاء وليد التفاعل الدينامى بين العاملين والوحدات التنظيمية داخل المؤسسة.

❖ يمكن أن تلعب المخططات والأفكار دوراً حاسماً فى اتخاذ القرارات، وكمثال لذلك نشير هنا إلى المخطط الأمريكى لمبادرة الدفاع الإستراتيجى -Strategic Defence Initiative: SDI، والدور الذى لعبه هذا المخطط فى حسم سباق التسلح لصالح الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتى الأسبق، وكما هو معروف فإن مبادرة الدفاع المذكورة لم تتجاوز بعض المخططات والعروض التوضيحية والخطط البحثية الأولية.

❖ إن المنتج المعرفى إذا ما قورن بمنتجات الصناعة التقليدية يتسم بمرونة هائلة من حيث قابليته للتوسع والإضافة، ومثالنا هنا نستقيه مما يجرى حالياً فى تطوير الأسلحة الذكية، حيث نجد أن فاعلية هذه الأسلحة ومدى دقة تصويبها وقدرتها الهجومية أو الدفاعية ومجالات استخداماتها يمكن تحسينها وتوسيع نطاقها، فى كثير من الأحيان، دون أى مساس بشق العتاد المادى hardware وذلك بإدخال تغييرات طفيفة على برمجيات التحكم فيها software.

(المغزى)

❖ نظراً لصعوبة اقتصاد المعرفة غالباً ما يتم اللجوء إلى الخبراء الذين أصبحوا بمثابة الوسيط بين الحكومات والجماهير فيما يخص مشاريع التنمية المعلوماتية، وبين أصحاب الأفكار والمستثمرين فيما يخص مدى جدوى الاستثمارات وتقييم عائدها وكلفتها. يتطلب هذا الوضع أن يتخلص الخبراء من نزعاتهم التكنوقراطية، وضرورة إلمامهم بالأبعاد الاجتماعية والبيئية والثقافية للتطبيق التكنولوجى، فى نفس الوقت فقد أصبحت عملية تقديم الخبرة عملية ذات أبعاد أخلاقية عديدة نظراً لاقتراب تكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا الحيوية من المناطق الحميمة من عقل الإنسان وجسده حتى كادت التكنولوجيا، فى رأى البعض، أن تتحول إلى فرع من فروع فلسفة الأخلاق.

❖ نظراً لسيولته وطبيعته الزائغة فإن اقتصاد المعرفة أكثر عرضة لفساد الإدارة والتلاعب فى السجلات المحاسبية والتهرب من المسئولية والمحاسبة، وهو ما يتطلب توفير الضمانات والتنظيمات التى تكفل الإدارة الصالحة والسلوك السليم.

٣: ٦ نمـــط الإدارة والتــنــظــيــم

(أ) المعنى

❖ تبنت معظم تنظيمات عصر الصناعة أسلوب المركزية القائمة على التنظيم الهرمى متعدد المستويات، والذى يفترض أنماط عمل محددة مسبقاً، وعلاقات ثابتة، أو شبه ثابتة، بين العاملين بعضهم البعض، وما بين الوحدات التنظيمية المختلفة، لا تتلاءم هذه التنظيمات الهرمية ذات الطابع الاستاتى مع الدينامية الهادرة لأنشطة اقتصاد المعرفة، والسرعة الهائلة التى تتطور بها هذه الأنشطة، والعلاقات التى تربط بينها، والمهام التى تتجدد رهن اللحظة، بالإضافة إلى شدة الاعتماد على العنصر الابتكارى الذى يتناقض، جوهرياً، مع التنظيم الهرمى ذى الطابع السلطوى الفارض لسيطرة الكبير على الصغير، والذى عادة ما يكون أكثر قدرة من الكبير فى توليد الأفكار والقدرة على إحداث التغيير. فى المقابل، يجمع تنظيم مؤسسات اقتصاد المعرفة بين لامركزية الإنتاج والتوزيع ومركزية السيطرة الإدارية من خلال نظم المعلومات المنتشرة جغرافياً، ويبدو التنظيم الشبكى أكثر اتساقاً مع اقتصاد المعرفة، وذلك لعدة أسباب أهمها:

. اتساق هذا التنظيم مع الطابع الشبكى للإنترنت التى تلعب دوراً محورياً فى اقتصاد المعرفة.

. اتساق هذا التنظيم الشبكى مع بنية المخ البشرى: المنقب والموظف والمولد للمعرفة.

. كون الاتصال الشبكى أكثر قدرة على التكيف الدينامى مع المتغيرات الهادرة لمجتمع المعرفة حيث يسمح بعدة بدائل ومسارات لحل المشاكل والوصول إلى الغايات.

❖ من جانب آخر اقتصرت تنظيمات الاقتصاد التقليدى على الكيانات القائمة بالفعل، فى حين يتجه اقتصاد المعرفة رويداً رويداً إلى الكيانات الخائلية virtual set up's التى يتم إقامتها بديلاً عن الكيانات الواقعية، وتتضمن قائمة الكيانات الخائلية نطاقاً عريضاً من الأنشطة الاقتصادية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مراكز التسوق الخائلية، المعامل الخائلية، حدائق الترفيه والألعاب الخائلية، المعارض والمتاحف الخائلية. بجانب هذه الكيانات الخائلية يمكن إقامة تنظيمات خائلية متطايرة لتنفيذ مشروع، أو مهمة بعينها، على أن يتم «تنكيس» هذه الخائليات بعد إنجاز المهمة التى أنشئت من أجلها.

❖ لقد عمق الاقتصاد التقليدى من نزعة التنافس، فى حين يميل اقتصاد المعرفة إلى الجمع بين التنافس الحاد والتعاون والمشاركة فى الموارد (co-petition: cooperation + competition) من أجل سرعة اللحاق بالتطور التكنولوجى المنطلق.

❖ تظهر مؤسسات اقتصاد المعرفة قابلية عالية للاندماج والتكامل الرأسى والأفقى وتكثيف رأس المال ونستشهد على ذلك ببعض الأرقام التى أوردها تقرير التنمية الإنسانية لعام ١٩٩٧ عن إجمالى قيمة الاندماجات وحالات الاقتناء فى مجالات الكمبيوتر والاتصالات والتكنولوجيا الحيوية (مقدرة بالبليون دولار).

الكمبيوتر	٢١.٤	٢٤٦.٧
الاتصالات	٦.٨	٢٦٥.٨
التكنولوجيا الحيوية	٩.٣	١٧٢.٤

(ب) المغزى

❖ تتطلب إدارة اقتصاد المعرفة إلى نوعيات من المديرين تختلف تماماً عن تلك التى تفرزها بيئات العمل التقليدية التى غالباً ما تئن بشدة تحت ثقلها التنظيمى.

❖ تمثل النزعة الاندماجية المتنامية ما بين كبار اقتصاد المعرفة حائلاً أمام لحاق الصغار بهم، ولا أمل أمام هؤلاء الصغار إلا ملاذ الإبداع، وما أكثر الحالات التى تفوق فيها الصغير السريع صاحب الأفكار الجريئة على الكبير الثقيل العاجز عن ملاحقة التطور والتخلص من حرسه القديم، وخير مثال على ذلك الأزمة التى مرت بها شركة «آى. بى. إم.» رائدة صناعة الكمبيوتر بلا منازع، وذلك بسبب عجزها عن التكيف مع الثورة التى أحدثتها الحواسيب الشخصية.

❖ سيزخر الفضاء المعلوماتى بكيانات خائلية عديدة تحتاج إلى فكر إدارى وتنظيمى جديد، أملاً فى ألا يؤول الأمر فى النهاية إلى ما آلت إليه تنظيمات عصر الصناعة بكل ما وصمها من احتكارية وانحياز نحو الكبير على حساب الصغير، وتوجيه مسار التطور التكنولوجى لخدمة المصالح التجارية وتغليب الربح عن الصالح العام لأغلبية الناس.■

الـــهـــوامـــش:

(١) Brookes, B.C., 1981, Information Technology and the Science of Information, in R.N. Oddy, ed., Information Retrival Research, PP. 1-9. Butterworths

(٢) شركات ميكروسوفت وإنيتل وكومباك وديل وسيسكو.

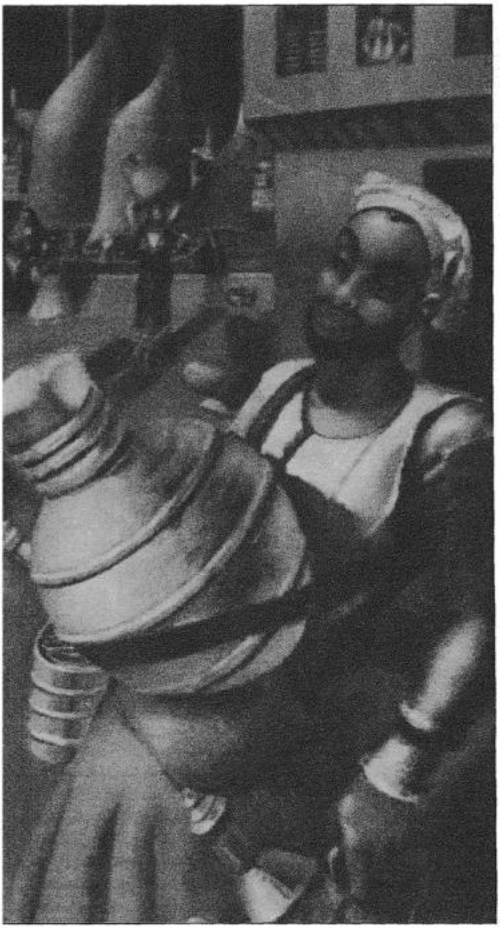
(٣) الاقتصادى الهندي الحائز علي جائزة نوبل في اقتصاد الفقراء.

(٤) Poster, M., 1990, the Mode of Information, the University of Chicago Press, Page: 177

(٥) كمثال لذلك انسحاق برنامج تنسيق الكلمات المعروف Word Perfect بظهور برنامج Words.

أوهام الصورة

تأملات في الفصل بين المرئي والمكتوب



إبراهيم فرغلي

أصبحت للصورة الآن سلطتها التى تستمدها من طغيان ثقافة مرئية تتسيد العالم عبر تكنولوجيا المعلومات والاتصال بالشكل الذى يضاعف من قيمتها من جهة، ويساهم فى خلق عوالم وهمية جديدة قد تستخدمها مؤسسات أو إدارات أو أفراد لتركيبها بما يحقق أيديولوجية أو مصلحة، وبشكل قد يصل إلى حد التناقض، مثل تصوير الإدارة الأمريكية لاحتلال العراق بأنه عملية تحرير.. أو وصف الفدائيين الفلسطينيين بالإرهابيين أو غيرها من المتناقضات. الأمر الذى يجعل من مراجعة الصورة وثقافتها عنصراً أساسياً بين عناصر أخرى تشكل منظومة المراجعة الثقافية الشاملة المرجوة عربياً وعالمياً.

هذا التناقض الكبير تعبر عنه الدكتورة «مارى تريز عبد المسيح» فى كتابها «التمثيل الثقافى: بين المرئى والمكتوب» بالقول إنه «بينما توهمنا تكنولوجيا المعلومات بنقل الواقع برمته، يقبع وراء هذا الإيهام أفراد ومؤسسات تعاونوا فى تركيب هذه الصورة الوهمية، والأيديولوجيا المنطوية عليها. ومن ثم، تبرر حروب الإبادة فى مناطق من العالم، بينما توصم الحركات التحررية فى أماكن أخرى بالإرهاب. وأحياناً تختلط الأمور، فتغيب عن وعى المشاهدين المنتمين إلى أنظمة ديمقراطية غياب تمثيل فئات عديدة من المواطنين حتى غدا ما تقدمه تكنولوجيا المعلومات فى عداد التمثيليات الرديئة».

وهو ما كشف الحاجة إلى نقد الثقافة المدنية على المستوى العالمى للكشف عن التفاعل بين التصويرى، بكافة أشكاله، والخطاب السائد فى الأجهزة والمؤسسات، وهذا بالتحديد هو أحد أهداف هذا الكتاب الجاد، والعميق، إلى درجة الصعوبة فى بعض أجزائه، والجديد فى موضوعه، والذى تؤصل فيه د. عبد المسيح لما تسميه بـ «التمثيل الثقافى»؛ أى مقاربة اللغة، سواء كانت لغة منطوقة، مكتوبة أو لغة مرئية. أى سواء كانت نصاً شفاهياً، نثرياً أو نصاً مصوراً، بوصفها وسيطاً ينطوى على خطاب يساهم المبدع والمتلقى فى إنتاجه.

وتفترض المؤلفة أن مصطلح «التمثيل» هو الأصلح فى تفسير قراءة النصوص على اعتبار أن الوسائط الفنية تتفاعل فيما بينها كما تتفاعل مع النصوص الثقافية المحيطة، بالإضافة إلى أن التفاعل بين اللغة المرئية والمكتوبة فى النص يعد تمثيلاً أو إعادة إنتاج للنص فى حاضر القراءة. أى أن قراءة التمثيل الثقافى هى محاولة لإقامة علاقة حوارية بين المعارف والفنون والمبدع والمتلقى.

وهذا التعريف ينفى الفصل المتعسف بين النص المكتوب وبين الصورة، وهو الفصل الذى ترى المؤلفة أنه قد مورس طويلاً فى الفكر الغربى وفقاً لموقف أيديولوجى سعى دائماً للفصل بين الروح

التمثيل الثقافى: بين المرئى والمكتوب
مارى تريز عبد المسيح
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢



لوحة المدينة للفنان محمود سعيد

والجسد، والشكل والمضمون لخلق تراتب يقوم على المفاضلة بينهما (التحيز للشكل على حساب المضمون أو العكس أو للنص المكتوب على الصورة أو العكس).

تعتمد د. ماري تريز في دراستها . ضمن عدة مرجعيات . على «نظرية الصورة» التي طرحها ميتشل (T.J.W. Mitchell)؛ إذ تعتبرها أنسب النظريات إفادة في دراسة عبر ثقافية لأسباب، منها: أنها أطروحة منهجية مرنة، ولكونها «نظرية تقارب اللغة لا كنسق مغلق، بل بوصفها وسيطاً للتعبير ينطوي على خطاب انتقلت إليه . في الغالب . عدوى البصر». أي أن الخطاب ينطوي على التصورات السائدة التي تحملها اللغة المنطوقة . المكتوبة واللغة المرئية.

أما عملية التمثيل نفسها فتصفها د. عبد المسيح بأنها «تبدأ بعملية التخيل التي تعتمد على الانتقاء من مرجعيات خارجية تعاد صياغتها نتيجة استقطاعات وإضافات لتتخذ شكلاً جديداً في النص، فتغدو قراءة النص تحركاً بين مرجعية العنصر المتخيل وموضعه الجديد في النص، ومن هذه العملية التبادلية تعاد قراءة ما كان يعد فيما قبل نصاً مغلقاً تحددت معانيه». والجدل القائم بين الواقع والخيال هو الذي يحرك الوعي.

وهنا أجد نفسي مدفوعاً لتقديم واحدة من خبراتي الشخصية في قراءة نص مرئي تتفق مع التعريف السابق من جهة، كما تسهم في توضيح بعض الفروض النظرية التي اعتمدتها المؤلفة في سياق تأكيدها على فكرة «نص الصورة»، وعوامل ارتباط المكتوب بالمرئي بشكل عام.

هذا النص هو لوحة «موت سردانابال» التي رسمها الفنان الفرنسي الرومانسي المولع بالشرق أوجين ديلاكروا (١٧٩٨ . ١٨٦٣). شاهدت اللوحة للمرة الأولى في نسخة مصورة بأحد الكتب المهتمة بالاستشراق في الفن الرومانسي، وشغفت بها؛ بفعل التناقض الشديد بين الانفعال الكبير الذي تعبر عنه حركة الجواري والخدم والحراس حول فراش الملك سردانابال، وبين الهدوء الذي تتسم به ملامح وجهه وهو بين النوم والجلوس متكئاً على ذراعه الأيمن أعلى الفراش الذي يتوسط المشهد. وهذا التناقض يخلق حالة من الغموض خاصة في حالة عدم معرفة الظرف التاريخي المصور.

العالم عند أقدام السلطان.. صورة نموذجية لديكتاتور شرقي غارق في الملذات للدرجة التي يبدو معها غير مكترث بها. لا يأبه بمن يستغيث به أو يستجير، ولا يبالي بمن يدفع إليه قسراً، بينما تتناثر ثرواته من مجوهرات وقلائد وتماثيل عاجية وذهبية في كل مكان من حوله.

وعندما شاهدت اللوحة الأصلية في متحف اللوفر بباريس قبل عدة سنوات، توقفت مشدوهاً، وغاص قلبي بعمق، مثل عاشق جمعته صدفة قدرية بعشيقته التي فرق بينهما القدر فجأة؛ فاللوحة ضخمة جداً (٤,٩٦ × ٣,٩٢)، وبالتالي كان عليّ أن أعود للخلف عدة خطوات لكي أتمكن من

الإلمام بتفاصيلها. كما كان علىّ أن أحرك عينى بين تفاصيلها عبر زمن استغرق دقائق عديدة.

هذا الزمن المستغرق فى تأويل النص المرئى من شروط القراءة النصية للوحة المرئية كما تقول د. مارى على عكس القراءة النصية للأدب التى تحول السرد التتابعى إلى سرد آنى.

وهو ما يعنى أيضًا أن اللغة المستخدمة فى هذه الصورة لا تدعو إلى توجيه نظرة محدقة (تمتلك الحقيقة المطلقة كما تشير د. مارى وتتسم بها أعمال حاولت تفضيل الصورة على المكتوب) وإنما تدعونى لإلقاء نظرات مختلسة دون توجه إلى منظور محدد (لغة تدعو إلى الحوار مع المشاهد أو المتلقى). أما عرى الجوارى فقد بدا كاشفًا لأرواحهن أكثر بكثير من كونه يستهدف تأثيرًا حسيًا، رغم تأكيده على جماليات الجسد الأنثوى الشرقى وما يتضمنه من دلالات على استغراق السلطان فى الملذات الحسية.

فى معرض بيانها لمظاهر ودلائل الارتباط بين النص المرئى بالنص المكتوب توضح د. عبد المسيح أننا «تعودنا تعريف النص المكتوب بالنص السردى، بينما يعد النص المرئى وصفيًا؛ أى أن الأول يقترن بالعنصر الزمنى، بينما يقترن الثانى بعنصر المكان، ولكنهما فى حقيقة الأمر، السردى والوصفى، يشتملان على العنصرين معًا».

وهكذا يمكن بالفعل قراءة لوحة «موت سردانابال» سرديًا رغم اختزال ديلاكروا المسافة الزمنية إلى لحظة تاريخية واحدة هى الأوج فى التوتر الدرامى للحدث، وهى لحظة استلقاء الملك على فراشه محاطًا بجواريه وممتلكاته بانتظار النار التى ستوقدها إحدى خادماته بالقصر (نهاية الجزء الأيمن فى اللوحة الأقرب إلى فراش الملك) لتلتهم ألسنتها الجميع دون استثناء.

وتشير بعض المراجع كما توضح «د. زينات بيطار»(١) إلى أن ديلاكروا استلهم لوحته من مسرحية «سردانابال» التى كتبها الشاعر الإنجليزى بايرون، ومن المخطوطة التى اطلع عليها فى عام ١٨٢٦ «وضع الملامح المميزة للبطل الملك الفارسى المستبد والمتنور والذى عاش بشاعرية وعرف شتى ملذات الحياة الذهنية والحسية، والذى اختار لنفسه ميتة تاريخية مرسومة بمتعة استقبال الموت ووداع الحياة بمظهر احتفالى ضمنه كل ما أحب فى الحياة».

وهكذا... «ففى أثناء قراءة النص المرئى التاريخى يستبدل المشاهد الصياغة الأيقونية التمثيلية بصياغة سردية، أى تغدو اللوحة سردية لغوية، ويفضى ذلك إلى إمداد فضاء اللوحة التاريخية بعناصر زمنية مرحلية».

وتشير د. مارى أيضًا إلى أن اللوحة التاريخية تتجاوز صفة الزمن الوقتية، بل إنها فى تمثيلها إياه تسعى لإبراز هذا العنصر وبذلك يتسنى للقارئ تأمل نموذج جلى للزمن فى وسيط فضائى (مكانى).

هذا النموذج التصويرى الذى يتجلى فيه الزمن المرحلى تطلق عليه الناقدة الأمريكية وندى شتاينر «اللحظة المفعمة» (Pregnant moment) إنها تشتمل على كل ما سبقها وكل ما هو آت.

وفى موت ساردانابال لا يتوقف «كل ما هو آت» على نهاية سردانابال بموته محترقًا، وإنما يمتد إلى كل النهايات المماثلة لنماذج الديكتاتور السلطوى المندثر بقوة السلطة المطلقة غارقًا فى ملذاته وتاركًا شعبه لأنياب الجوع، والذى تأتى نهايته، طوعًا أو جبرًا، بأن لا يكون لديه سوى خيار أن يحرق نفسه، وربما شعبه. ويمكننا هنا أن نستبدل سردانابال، بنماذج هؤلاء الحكام على امتداد التاريخ، وصولاً لأحدث الوقائع التى يمثلها نموذج صدام حسين!

فسردانابال يمثل هنا علامة لها مدلول تاريخى لهذا النموذج أيًا كان زمانه أو الشخص الذى يمثله.

وعلى مستوى آخر، أسس التجريديون أعمالهم بناء على فكرة العلامات التى ملأوا بها لوحاتهم، فحاولوا التخلص من التشخيص فى فنونهم باعتبار التشخيص من شوائب العمل الفنى، مما اضطرهم إلى إلحاق أعمالهم بنصوص نظرية شارحة. وهذه فكرة أخرى تثبت بها الدكتورة مارى تريز العلاقة الوثيقة بين النص المرئى والمكتوب.

أما أسباب الفصل بين المرئى والمكتوب فى الفكر الغربى فيأتى من بينها، كما تقول المؤلفة، سيادة التصور بأن العمل الفنى تمثيل للطبيعة، وكأن هناك طبيعة مطلقة، حتى جاء الناقد الإنجليزى «جومبرتش» ليؤكد أن ما تعود الناس على رؤيته فى الفنون والآداب بوصفه واقعًا طبيعيًا ما هو سوى تقليد قد رسخت دعائمه حتى صار من المسلمات، وهو تقليد يعكس توجهًا تاريخيًا يدعم القيم الصفوية (اصطفاء المبدع على المتلقى والذات على الموضوع) إضافة لأنه تقليد أحادى الرؤية يفترض الحقيقة المطلقة.

وتنفى د. عبد المسيح صفة الواقعية عن هذه الأعمال الأحادية، أى التى تقلد الواقع وتوهم المتلقى أن ما يشاهده هو الواقع. أما مفهوم الواقعية كما تراه فيتحقق بالتفكيك لا بالتوحيد، وبمشاركة الناقد والمتلقى مع المبدع للتعرف على الاختلاف بدلاً من السعى للتماثل.

وهذا ما يؤكده الناقد الفرنسى اللامع «رولان بارت» فى تفريقه بين النص الممتع، والنص الذى يحقق السعادة؛ فالأول هو نص «يصيب القارئ بالرضا ويشعره بالاكتفاء»، أى أنه نص يساير الثقافة المحيطة ولا يحيد عنها، فهو ممارسة القراءة التى تجلب الراحة.

بينما النص الذى يغمر بالسعادة يصيب القارئ بحالة من الضياع، فهو «نص مثير للقلق، ويزلزل كافة المعتقدات التاريخية والثقافية والنفسية التى نشأ عليها القارئ، حتى أن ذوقه العام وقيمه وذكرياته التى ترسخت بموازاة اللغة التى اكتسبها كلها تتأزم».

فالسعادة، كما توضح د. عبد المسيح «.. ليست مجرد متعة تتحقق عند إشباع الذوق، وإنما تتطلب معرفة مكتسبة بالجهد الذاتى تلازمها الرغبة فى التعرف على الاختلاف لا السعى نحو التماثل، مما ينوه بقدرة الذات على كسر أصفادها المعوقة لإعادة تشكيل حضورها عن وعى».

ويتحقق هذا الفرض سواء كان النص مكتوبًا تحوله القراءة النصية إلى صورة؛ أى تجربة مرئية، أو كان لوحة تستدعى عينًا مدربة على قراءتها قراءة نصية.

هذا الإطار النظرى تؤكده الدكتورة مارى تريز عبد المسيح عبر مجموعة من القراءات الموسعة التى تقدم بها تطبيقًا عمليًا للتمثيل الثقافى من خلال إعادة قراءة نصوص مكتوبة (أعمال أدبية روائية أو شعرية) أو نصوص مرئية (صور ولوحات وأعمال فنية مركبة وقطع نحت) أو تختبر موضوع الهوية من خلال قراءة تبادلية نصوص مرئية وأخرى مكتوبة تتناول الموضوع فى ظروف تاريخية مختلفة.

وهى فى هذا تستحدث أساليب خاصة بعيدًا عن أى أنماط منهجية أو تصورات لتصنيفات نوعية. وعلى سبيل المثال فهى تستخدم أسلوبًا منهجيًا يختص بقراءة الصورة والنصوص المرئية لكى تحلل بها عملاً سرديًا روائيًا؛ ففى الباب الثانى الذى يحمل عنوان «التمثيل المرئى والمكتوب لصدام/ حوار الثقافات محليًا وعالميًا» تعيد قراءة تمثيل الأندلس عبر قراءة نصية لرواية «ظلال شجرة الرمان» للكاتب الباكستانى المولد المقيم فى إنجلترا (طارق على)

العالم عند أقدام السلطان.. صورة نموذجية لديكتاتور شرقى غارق فى الملذات للدرجة التى يبدو معها غير مكترث بها. لا يأبه بمن يستغيث به، ولا يبالى بمن يدفع إليه قسرًا، بينما تتناثر ثرواته من مجوهرات وقلائد وتماثيل عاجية وذهبية فى كل مكان من حوله



باستخدام آليات التأطير والتركيز والتفصيل التى استلهمتها من منهج مطبق على الصورة.

والقراءة المطولة والجديدة، عبر تأمل الصور والعلامات والمدلولات التى تكونها شبكة علاقات الشخصيات الإسلامية والمسيحية واليهودية الموجودة فى الرواية، تستهدف التدقيق فى دراسة المصير الإسلامى والمسيحى فى فضاء مشترك: إطار عام تتنازع فيه الثقافتان وتلتقيان فى الأندلس.. تبحث فى مدلولى الفقد ، الاستعادة لدى كل من الحضارتين ومدلول قراءة الأسطورة وغيرها لتصل إلى أن «المواجهة بين المسيحية والإسلام مهيأة للاندلاع ما ظل خطاب الهيمنة الثقافية محتدماً مؤكداً الخطاب التنافسى ومبعثه اليقين بالتفوق الطائفى. وتنتهى ظلال شجرة الرمان باندلاع الحرب بين المجاهدين المسلمين والإسبان المسيحيين، وتوقع اندلاعها فى مناطق أخرى استكشفها المستكشفون. هذه النهاية المفتوحة دالة على استمرارية تلك المواجهات ما ظل خطاب التفوق الطائفى سائداً، ولا سبيل لإنهائه سوى بالتعددية الطائفية. فالهيمنة الطائفية تفضى إلى الإفقار الثقافى ويستتبعه ظهور رد فعل دفاعى يعمل على تأكيد الخصوصية المهددة بالفناء».

وتستعين المؤلفة بمجموعة من النصوص المرئية (٦٨ لوحة فنية) تقدم لها قراءة تحليلية موسعة فى موضوعات مختلفة وتبدأ بتحليل التمثيل المرئى لمدينة الإسكندرية كما مثلته أعمال مجموعة من الفنانين التشكيليين الأوروبيين النازحين إلى الإسكندرية أوائل القرن الماضى أو الفنانين المصريين مثل محمود سعيد وحامد سعيد وعصمت داوستاشى وسيف وانلى وأدهم وانلى وأيمن نمر وعبد السلام عيد.

وترى د. عبد المسيح أن التمثيل المرئى لمدينة الإسكندرية يجسد تساؤلاً متجدداً حول التحولات الدينية والمدنية، كما يجسد الصراع القائم مع المفاهيم الشمولية عن الجمالية التى تتناقض مع الخصوصية المحلية.

كما تشير إلى أن المخاطر الناجمة عن الدمج المتعسف مع الثقافة الغربية دفعت بفنانى الإسكندرية إلى تجديد عنصرى الزمان والمكان، حتى يتسنى الإبقاء على الخصوصية فى ظل التعددية الثقافية. وتصل إلى أن «إعادة قراءة نماذج من التمثيل المتنوع لمدينة الإسكندرية ما يفسح المجال لإقامة حوار متوازن بين الشرق والغرب فى الزمن الراهن».

ثم تعقب هذه الدراسة بأخرى تقارن فيها بين التمثيل المكتوب لمدينة الإسكندرية فى «رباعية الإسكندرية» للورانس داريل، وبين التمثيل المرئى لها فى أعمال محمود سعيد وخاصة فى لوحة «المدينة». وتصل إلى أن كلاً من المبدعين أنتج نصوصاً تنقض الخطاب القائم على فصل الثنائيات: الزمان والمكان، العقل والجسد، الناقد والمبدع حيث حولا مشهد المدينة إلى مكان للتلاقى فى زمن لا يتحدد بالحاضر ولا ينحصر فى جماعة بعينها، أى إنهما نجحا فى تشكيل مكان رحب (فضاء الإسكندرية الكموزموبولتى) يتيح المقاومة، وهو ما ينتقل إلى الممارس، مبدعاً كان أو متلقياً. فيجعله فاعلاً فى إنتاج النص ومن ثم قادراً على المشاركة فى التغيير الثقافى.

ودراسة فضاء الإسكندرية هو نوع من إعادة قراءة أسطورة الهوية القومية فى فضاء يمهد لتكوين إطار عام لالتقاء الثقافات. ولا يتحقق هذا الإطار العام للعلاقات الجماعية دون مراجعة موضع الآخر فى العلاقات الخاصة، فإذا تهددت الهوية القومية من غزو الوافد تتهدد هوية الفرد من قمع الموروث الثقافى الذى يمثل أحد أوجه السلطة. والانتقال من دراسة السلطة القامعة للهوية القومية إلى السلطة القامعة للفرد يستدعى تقريب منظور الرؤية لرصد التفاصيل.

وتتغير سبل المقاومة بتغير المواقع كما ترى د. عبد المسيح حيث يوجد المبدعون موقعاً بديلاً لمقاومة السلطة وقد يتمثل هذا الموقع فى جسد المرأة أو صورتها الشخصية، وبقراءة صورة المرأة فى التمثيل المرئى يمكننا التعرف على قدرة المبدع على مقاومة الوافد والموروث معاً.

وتختار نماذج من أعمال ثلاثة أجيال من الفنانين لتتبع التغيير الذى طرأ على المفاهيم الذهنية تجاه المرأة، والأعمال للفنانين محمد حسن وأحمد صبرى ومختار ومحمود سعيد ثم عبد الهادى الجزار ثم صبرى منصور.

وفى بحثها عن الوسائط الثقافية التى

تجمع التمثيل المرئى بالتمثيل المكتوب تختار د. مارى تريز عدداً من أعداد مجلة «أمكنة». الدورية المستقلة المهتمة بقراءة المجتمع عبر المكان. حيث يرتاد هذا العدد . بالنص والصورة. مواقع عدة بين النوبة القديمة والحديثة عبر رحلة علاء خالد وسلوى رشاد، ثم الإسكندرية بأحيائها القديمة وأسواقها الشعبية والحديثة والمقابر القاهرية والأحياء العشوائية وغيرها كما يرصدها مجموعة من الكُتّاب. وتقدم المؤلفة قراءة موسعة للتمثيل لتحلل وتتأمل أسباب عدم تزامن وتساوى قيم وأشكال الحداثة فى مصر، مؤكدة على أن وعى الفرد بمكانه تاريخياً وجغرافياً (كما تحيلنا نصوص أمكنة) يساعد على صياغة خصوصية ثقافية وتأكيد مكانته، ومن ثم تحقيق المعاصرة على المستوى الفردى والجمعى.

أما البعد الثالث لكتاب د. عبد المسيح فيقوم على قراءة تحليلية موسعة لأعمال كل من يطلق عليهم أو يتسمون بصفة «الكاتب. الفنان»: أى الكتاب الذين جمعوا بين الكتابة النثرية والتصوير الفنى سواء فى الغرب أو فى مصر. فهى تقوم بدراسة تزاوج النص المكتوب والمرئى ليمثلا ثنائية تتطلب القراءة التبادلية، على اعتبار أن إنتاج الكاتب الفنان «يمثل الصدارة فى النقد المعاصر لأننا نعايش تحولاً نحو الصورة(..) فالمشهد الراهن تعتريه ممارسات خطابية بفعلها صار المرء محدقًا وعرضة للتحديق فى آن».

وهى فى هذه القراءة تؤكد على أن الأعمال الإبداعية لا تقبل الرضوخ إلى قواعد نظرية تفترض إطاراً مرسوم الحدود متجاهلة ما يتعداها على اعتبار أن قراءة التمثيل تعنى التنقل المستمر بين المستويات المعرفية والآفاق الاجتماعية ليسفر ذلك عن فهم أعمق لمفهومى الهوية والاختلاف.

وتقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة محاور أولها يبحث أعمال «الكتاب. الفنانين» الذين حاولوا البحث عن هويتهم من خلال القطيعة مع التراث أو الماضى مثل السويسرى جين آدب، أو كاندنسكى وليونورا كارنجتن وغيرهم، حيث تقرأ التمثيل المكتوب والمرئى لكل منهم بالتبادل انطلاقًا من هزيمة القيم الغربية بعد الحرب العالمية الأولى وبدأ الفنانون فى نقض المسلمات المعرفية والجمالية للمركزية العرقية.

أما المحور الثانى (استعادة الماضى) فيقرأ التمثيل الثقافى لمجموعة الكتاب الفنانين الذين توجهوا للماضى برؤى جديدة لدعم مكانتها فى الحاضر فى مواجهة الآثار المدمرة للحرب وتأكيد هويتهم أمثال هرمان هسه وجبران خليل جبران وداڤيد جونز الذى تفيض أعماله النثرية ولوحاته بالروحانى المستوحى من النصوص الدينية والأدب الكلاسيكى، ود. هـ لورانس وطاغور ولوركا إضافة لنصوص إدوار الخراط النثرية المستوحاة أو الموازية للنصوص المرئية التى جسدتها أعمال الفنان أحمد مرسى.

المحور الثالث (إشكاليات النزعة القومية) يبحث التمثيل الثقافى بعد الحربين العالميتين فى مواجهة الإشكالية الكامنة فى النزعة القومية ومظاهر الحداثة الرأسمالية وسياسات السوق المفتوحة وما أسفرت عنه من جشع استعمارى أفضى إلى إحباط المشروع العقلانى لتحرير الفرد من القيود الفكرية والاجتماعية.. وصولاً إلى أعمال الفنانين المصريين فى تعاملهم مع الأزمة. وتختتم د. مارى تريز قراءتها فى هذا المحور بالقول إن «مشروع الحداثة بالنسبة للكاتب. الفنان تلخص فى مساءلة المفاهيم القومية الاختزالى فى تمثيله الثقافى المرئى والمنطوق. المكتوب. فالبرامج السياسية للقوميين المتشردين قامت على الإقصاء والاستثناء متجاهلة شرائح عريضة من المجتمع. ومثل هذه البرامج الثقافية المهيمنة تحت دعاوى الحفاظ على وحدة الأمة عرقلت نموها الفكرى وهو ما يدعو إلى «وجود حاجة لنقض خطاب السلطة لتعرية التراكيب اللغوية الصلبة التى يروجها الإعلام المرئى الداعى للسياسات الاستهلاكية».

«وإذا كانت اللغة المنطوقة. المكتوبة قد تجمدت فى نسق يسفر عن ذهن أحادى فى تصوراته، فاللغة المرئية قد تلمح إلى تعددية ثقافية تستوجب إعادة النظر فى نسق اللغة المكتوبة الراسخ فى الأذهان، وبالمثل إذا تكلمت الصورة فى قالب ادعائى أو استهلاكى فالكلمة هى الوسيط المستخدم لتعريتها».

وهو ما يجعل من هذا الكتاب بشكل عام وثيقة تحليلية كاشفة لدى حاجتنا الماسة للترجمة المتبادلة بين المرئى والمكتوب لإنماء وعى ثقافى نقدى للتحول المتجه نحو ثقافة الصورة.■

هـــوامـــش:

(١) الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى. عالم المعرفة يناير١٩٩٢.

كتـــاب الـزاويـــة

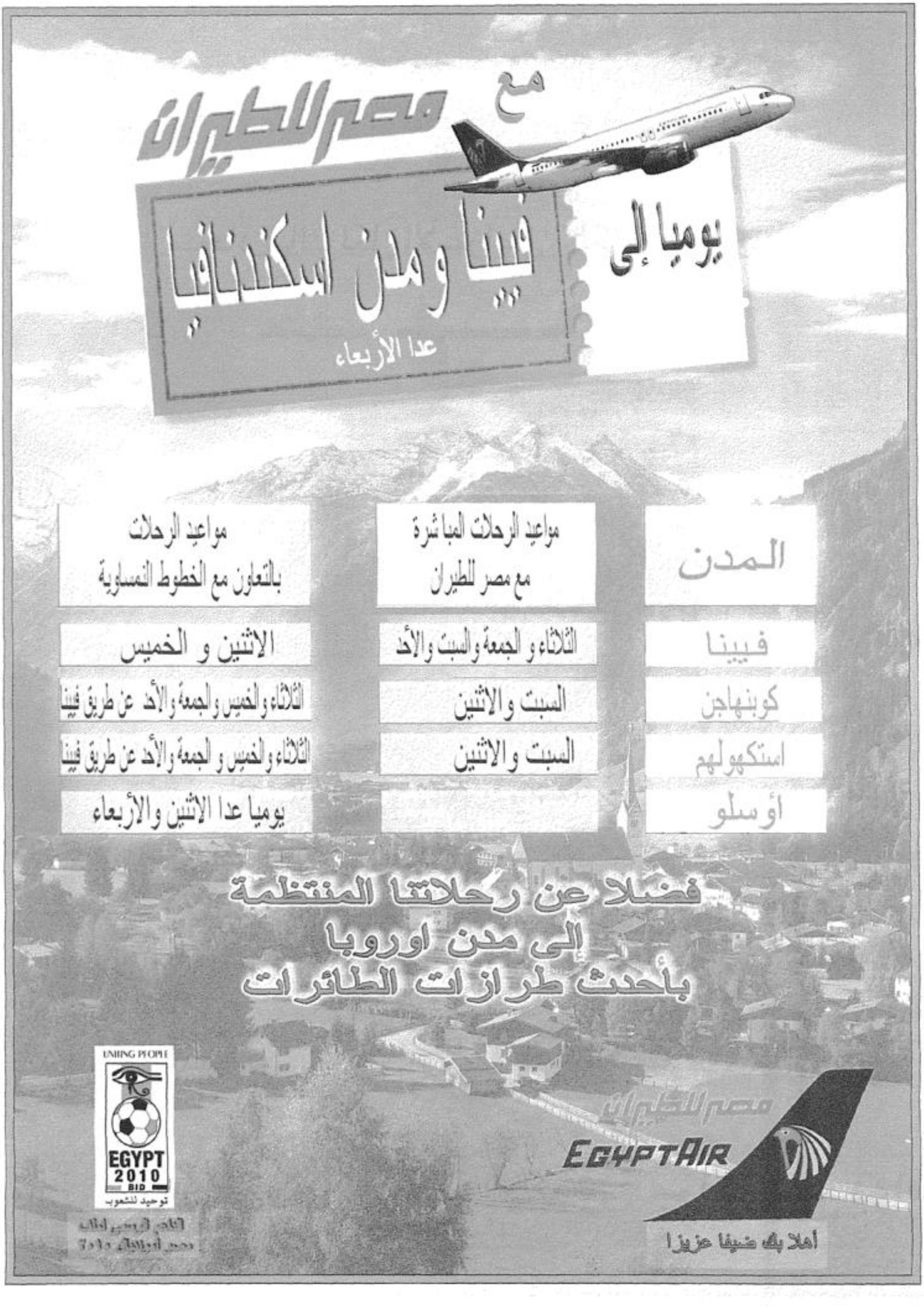
بعثة إلى أطلال بابل عام ١٨١١

إن مؤرخى آثار العصور القديمة، الذين كان هيرودوتس أحدهم، يؤكدون جميعًا أن بابل كانت مدينة مترامية الأطراف. إذ يبلغ محيط جميع أسوارها ٦٩ ميلاً، وهو محيط يبدو كبيرًا للغاية. ويبلغ ارتفاع تلك الأسوار ٣٥٠ قدمًا، على الرغم من أنها هدمت فيما بعد لتصل إلى ٧٥ قدمًا. وكانت تبلغ ٨٧ قدمًا سمكًا.

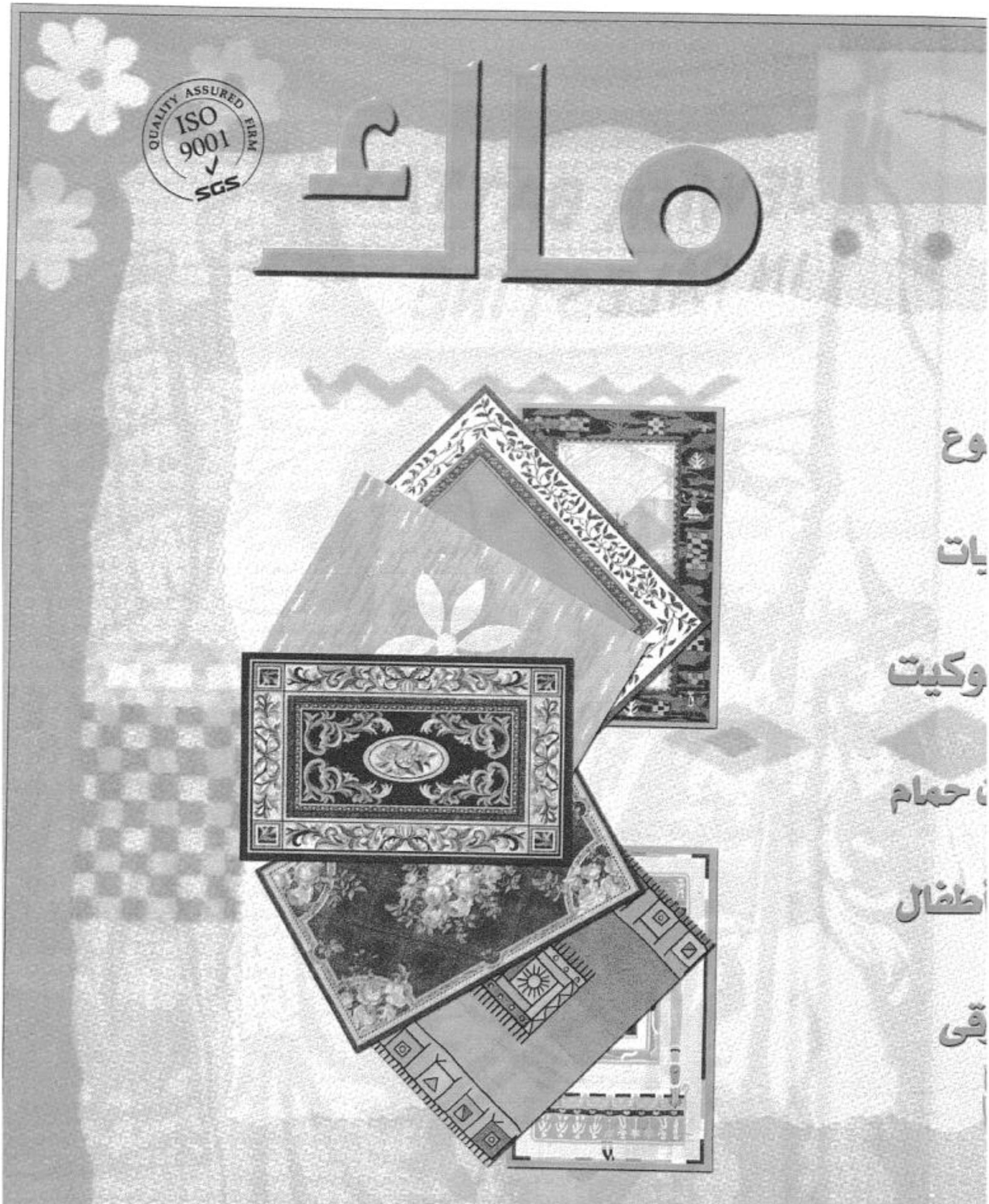
كانت مبنية بالآجر المفخور ومغطاة بالقار الذى لاتزال توجد منه كميات كبيرة فى الصحراء المحيطة بالمدينة.

خططت المدينة بالطريقة نفسها التى خططت بها المدن الأمريكية الحديثة. فهى ذات شوارع عريضة تقاطعها شوارع أخرى فى زوايا قائمة. وفى كثير من نقاط التقاطع يمكن مشاهدة الساحات الواسعة والحدائق العامة. وفى أغلب الروايات والأوصاف المختلفة، تباين الحديث عن عدد القصور فيها. إذ يذكر فى أكثرها، أن عددها اثنان، القصر القديم والقصر الجديد، الأول من الجانب الشرقى من النهر والآخر من الجانب الغربى منه.

وهناك جسر عظيم كان يربط بينهما، فضلاً عن وجود نفق يمتد تحت نهر الفرات، ويفترض أن معبد بيلوس الشهير كان قائمًا بالقرب من القصر القديم، فى حين كانت الحدائق المعلقة، التى اكتسبت نفس الشهرة، أو أرصفة الشوارع التى صفت عليها المصاطب، وقد خططت لتصبح مراتع للمرح والمتع الحسية، ويمكن مشاهدتها كلها إلى جانب القصر الجديد.



مع
مصر للطيران
يوميا إلى
فيينا ومدن اسكندنافيا
عدا الأربعاء
المدن
مواعيد الرحلات المباشرة مع مصر للطيران
مواعيد الرحلات بالتعاون مع الخطوط النمساوية
فيينا
الثلاثاء و الجمعة والسبت والأحد
الاثنين و الخميس
كوبنهاجن
السبت والاثنين
الثلاثاء والخميس والجمعة والأحد عن طريق فيينا
استكهولهم
السبت والاثنين
الثلاثاء والخميس و الجمعة والأحد عن طريق فيينا
أوسلو
يوميا عدا الاثنين والأربعاء
فضلا عن رحلاتنا المنتظمة
إلى مدن اوروبا
بأحدث طرازات الطائرات
UNITING PEOPLE
EGYPT
2010
BID
توحيد للشعوب
مصر للطيران
EGYPTAIR
أهلا بك ضيفا عزيزا


QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
ماك
وع
يات
وكيت
حمام
طفال
قى
التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر


JEWISH BATTALIONS
IN PALESTINE

بنو إسرائيل..

مُضطهَدون أم مُضطهِدون؟!

ليلى عنان

■ ■ للغرب مزايا وصفات عديدة. لن ينكرها إلا أحادى الرؤية المتعنت. ولكن للغرب أيضاً عيوباً لن ينكرها إلا من كان تعنته فى الاتجاه المعاكس، المنبهر بلا حدود بالميزات الواضحة والبريق الكاذب. والعيب الذى طالما أزعجنى فى دراستى لفكر الغرب، والفرنسى منه بالذات، سرعته فى تأليه فكر أو تيار فلسفى جديد، ثم الانقلاب عليه بسرعة فائقة عندما يظهر فكر أو تيار آخر. وهكذا، تراهم يحرقون بتشف طفولى ما عبدوه من قبل، ليعبدوا صنماً جديداً، سرعان ما يحرقونه عندما يحل محله جديد. والعداء للسامية كان مثلاً، قبل الحرب العالمية الثانية، من صفات المفكر المستنير، إلى أن خسر هتلر الحرب، وأصبحت النازية، ومعاداتها للسامية، سبة لا يجرؤ على نطق اسميهما أحد. وما المعاداة للسامية إلا فرع من عنصرية، عرفها الإنسان منذ عرف الحضارة، ولا يستطيع أن يتخلص منها، حتى إن ادعى الغرب الآن أنه طهر نفسه من عنصرية جعلته يستعبد شعوب العالم فى القارات الخمس، باسم سمو الجنس الأبيض على باقى الأجناس الأخرى. ولذا، لن نتخيل غربياً يتجرأ اليوم ويقول إن اليهود، وبنى إسرائيل (ضحايا العداء للسامية المتمثلة فيهم) هم فى الواقع عنصريون بكل معانى الكلمة. إنها المفارقة التى لن يقبلها منطقهم المنافق.

العنصرى، وآخر مثل فج له كان الفكر النازى، يبحث أولاً عما يسميه نقاء الدم، وروايات الأدب الأمريكى فى أربعينيات القرن الماضى، تصور ما يحدث إذا اكتشف مثلاً أن شاباً أو شابة بيضاء، كان لهما جد أو جدة من العبيد السود. وقد تكون قصص «وليام فوكنر» (William Fulkner) ورائعته «أبشالوم! أبشالوم!»، أحسن مثل يصور البحث عن «نقاء الدم» الأبيض ليطهر من أى شائبة؛ وهذه العنصرية الأمريكية، كان يعادلها فى رد الفعل الدموى العنيف، الحكم النازى إذا اكتشف أن ألمانيا كان لها من بين أجداده يهودى.

وفى «العهد القديم» الكثير من القصص التى يعتبرها اليهود تاريخهم، تجعلنا نعيد النظر فى كثير من المقولات التى أصبحت، بفضل الدعاية الصهيونية النابغة، من المسلمات، مثل ما يعانى منه اليهود من اضطهاد فى العالم، وذلك منذ وجودهم فى مصر، قبل أن يخرجهم منها موسى عليه السلام. وبعد ذلك سئم النبى شكواهم، وعاقبهم الرب على ذلك.. وما من رادع. فنراهم اليوم يدعون مثلاً أنهم كانوا «عبيداً» فى مصر. وقارئ «سفر الخروج» بعين منزهة ونقدية، لن يجد كلمة واحدة تعضد مثل هذا الافتراء. والأدهى أن الرب نفسه قال لموسى عليه السلام آمراً بنى إسرائيل فى «الإصحاح ٢٢، ٣١»: «ولا تضطهد الغريب، لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر، كانوا «غرباء» ولم يكونوا يوماً «عبيد».

ولكن، ومما لاشك فيه، أنهم عانوا فى الغرب، بعيداً عنا، اضطهاداً دموياً مأساوياً على مر القرون. فالغرب المسيحى اعتبرهم عدوهم اللدود لرفضهم رسالة السيد المسيح أولاً، ثم صلبه بعد ذلك. ولكن المسيحية تعترف «بكتابهم المقدس» الذى أصبح «العهد القديم»، لأنه بشر بمجىء السيد المسيح المنقذ؛ وبالتالى، فهى تعترف بقصصهم وما اعتبر تاريخهم، إلى أن جاء فى القرن الثامن عشر، «فولتير» Voltaire فى كتابه عن حضارات العالم ليتهم هذه القصص بأنها أساطير وليست تاريخاً. ولكن هذا لم يرد على سؤال يطرح دائماً، لماذا كره العالم اليهود، على حد قولهم، واضطهدهم أينما ذهبوا وفى كل العصور.

سؤال خطير فى حد ذاته، إذ يتهم فى الحال كل من يطرحه بالمعاداة للسامية، مادام يطرح فكرة أن اليهود مكروهون فى ذاتهم. هذا فى ذاته فكر عنصرى، وكأن اليهود كائن واحد، لا علاقة له بآخرين اختلطوا به، فتحولوا من بشر يدينون بالوحدانية منذ عصر الجاهلية وعبادة الأصنام، إلى «جنس» أو «شعب»، منغلق على نفسه. ومع ذلك فيهود عصرنا وإسرائيل بالذات هى التى تجبرنا على طرح السؤال، وقد أصبح للسؤال أهمية حيوية بالنسبة لنا، خاصة بسبب ما يقال عما حدث لبنى إسرائيل فى مصر، حيث كانوا «عبيداً»، على حسب دعاياتهم الكاذبة. فهم المضطهدون منذ سالف الزمان، وعلى العالم، وعلينا تعويضهم عن هذا الظلم البائن.

والفكر الصهيونى الاشتراكى الملحد، يستعمل الديانة اليهودية وأساطيرها، التى لا يؤمن بها، من أجل كسب أكبر عدد من اليهود إلى صفه، ولجذب الغرب المسيحى السلفى أيضاً إلى صفه، وهو ما نجح فيه مؤخراً. فالعهد القديم، فى «الكتاب المقدس» وقصة بنى إسرائيل من أهم ركائز الدين لديهم.

وبناء على ذلك، انتشرت الأساطير اليهودية فى الغرب، لأن الغرب، والغرب الأمريكى بالذات، قد تبنى الفكر الصهيونى المتطرف، كان هذا الأمر حتمياً ليكفر الغرب عن ذنبه وإهماله حال اليهود أيام حكم هتلر، وتجاهله التام لمعسكرات الموت والقتل الجماعى، وهكذا أصبحت الأساطير اليهودية لا تتداول بين الإسرائيليين فقط، بل وصل بها الحال بهيمنة الثقافة الفنية الأمريكية، إلى إقناع بعض المثقفين العرب أيضاً، مع أن مجرد قراءة «العهد القديم» بعين منزهة من أى غرض غير موضوعى، تقول ما يفند كل ادعاءات الصهاينة.. وما علينا إلا الرجوع للأصل، لما يقوله اليهود أنفسهم عن تاريخهم فى «العهد القديم»، بعيداً عن كل أدبيات العصر الحديث. فالقارئ الموضوعى يعجب بادئ ذى بدء لكيفية معاملة بنى إسرائيل لبعضهم البعض، حتى يجد نفسه يتساءل: هل كره بنو إسرائيل أنفسهم قبل أن يكرهوا الآخرين، فكرههم هؤلاء بالتالى؟

وأول ما يعجب له قارئ «العهد القديم» فى «سفر التكوين» هو الطريقة التى لجأ إليها سيدنا يعقوب وأمه «رفقة» لسلب ميراث «عيسو». كان الأب سيدنا إسحق عجوزاً ضريراً، فخدع بسهولة بفضل مكر زوجته، وقال لابنه عيسو: «لقد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك» (الإصحاح ٢٧، ٣٥). وهكذا «إنى قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً (...) فماذا أصنع إليك يا ابنى» (٢٧، ٣٧). فما كان من سيدنا يعقوب بعد ذلك إلا الهروب خوفاً من انتقام أخيه. ولجأ لخاله، وقصتهما معاً طريفة، عندما نتتبع حيل كل منهما للنيل من الآخر، واستغلاله لكسب المزيد من الثراء. لن ندخل فى تفاصيل القصة كما نقرأها فى «سفر التكوين»، وكل ما نقابله فيها من خداع الأخ لأخيه، والخال لابن أخته. فمثلاً وصل الأمر أن الخال استغل حب سيدنا يعقوب لابنته «راحيل» فجعله يخدمه لسبع سنوات حتى يزوجه بها. وعند الزواج اكتشف العريس أنه خدع، إذ أرسل له خاله بدلاً من حبيبته أختها.. فكان على العريس المتيم، أن يخدم سبع سنوات أخرى ليحصل على حبيبته، وعاش بالأختين معاً! وبعد سنوات عديدة، وسيدنا يعقوب مع الأختين وخادماتهما، رزقت أخيراً «راحيل» بولد سمى يوسف.. وقصته معروفة، فهو يوسف عليه السلام الذى ألقى به إخوته فى البئر حتى يموت، ولكن الله أراد له غير ذلك. قصة خداع أخرى لأبناء يكذبون على أبيهم ليتخلصوا من أخيهم الأصغر!

هكذا كانت العلاقات الأسرية فى «العهد القديم»، حيث الحقد هو الواعز الأول، والمنفعة هى المطمع الوحيد، واستغلال القوى للضعيف الوسيلة للوصول إلى الهدف المنشود.

ولو أننا انتقلنا إلى معاملة بنى إسرائيل للآخرين، فهناك قصة تشرح وحدها كراهية الآخرين لهم. وهى قصة «دنية» ابنة سيدنا يعقوب. إنها قصة شعب أراد العيش فى



عانوا فى الغرب، بعيداً عنا، اضطهاداً دموياً مأساوياً على مر القرون. فالغرب المسيحى اعتبرهم عدوهم اللدود لرفضهم رسالة السيد المسيح أولاً، ثم صلبه بعد ذلك

سلام وأمان مع جيرانه من قبيلة سيدنا يعقوب، وحسب قوانينها. فالقصة تقول أن ابن «عمور الحيوى» أعجب بابنة سيدنا يعقوب فاختطفها، ولكنه أحبها، فذهب أبوه يخطبها من أبيها حتى تصبح الزوجة الشرعية لابنه الذى اختطفها. ولكن أبناء سيدنا يعقوب وضعوا كشرط للزيجة أن يشترك الملك وابنه وشعبه فى تقاليد قبيلة الفتاة، وتجرى لهم عملية طهور جماعية. كان هذا هو شرط الانتماء إلى عائلة سيدنا يعقوب وقبيلته. وقبل الأب عن طيب خاطر قائلاً: «وصاهرونا، تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتنا، وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم، اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها» (٣٤/ ٩-١٠). وقال أيضاً أنه مستعد لدفع أى مبلغ يطلبونه كمهر، ثم أقاموا حفلاً كبيراً للمناسبة. فما الذى حدث بعد ذلك.. «فحدث فى اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين (من العملية الجراحية) أن ابنى يعقوب (...) أخذ كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر (...) ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم. غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه. وسبوا ونهبوا كل ثرواتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما فى البيوت».

فقال يعقوب لشمعون ولاوى «كدرتمانى بتكريهكما إياى عند سكان الأرض الكنعانيين والفريزيين وأنا نفر قليل، فيجتمعون على ويضربوننى فأبيد أنا وبيتى. فقالا أنظير زانية يفعل بأختنا» (٣٤/ ٢٥، ٣١). كان سيدنا يعقوب على حق، وقد يكون أبناؤه على حق أيضاً، انتقاماً لشرف أختهم، ولكنه انتقام بشع.. فما ذنب سكان المدينة؟ أيكون ذلك مصير من أراد أن يعيش معهم فى سلام وأمان؟

وهناك قصة أخرى نرى فيها هذا العنف الدموى، الذى لا ينتقم فقط حسب مبدأ «العين بالعين، والسن بالسن». قصة تدور أحداثها عندما كان اليهود أسرى الملك «أحشويروش»، ونقرأ كيف استطاع «مردخاى»، أن يجعل من ربيبته الفاتنة «أستير» ملكة على البلاد بسبب حب الملك لها، ولن ندخل فى تفاصيل دهائه ليصل بها إلى هذا المركز، لأن ما يهمنا هو ما حدث عندما استطاع بتوظيفها أن يوقع بعدوه، عدو بنى إسرائيل كما يقال، فينقلب الملك على وزيره «هامان»، ويأمر بمعاقبته وإنصاف بنى إسرائيل.. وإليكم ما حدث بعد ذلك، كما نقرأ فى «سفر أستير»: «فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وقتل وهلاك وعملوا بمغضبيهم ما أرادوا. وقتل اليهود فى شوشن القصر خمس مئة رجل» (٩/ ٥، ٦)...«ثم اجتمع اليهود الذين فى شوشن (...) وقتلوا ثلاث مئة رجل ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى النهب. وباقى اليهود الذين فى بلدان الملك اجتمعوا ووقفوا لأجل أنفسهم واستراحوا من أعدائهم وقتلوا من مبغضيهم خمسة وسبعين ألفاً...» (٩/ ١٥، ١٦، ١٧). ولا تعجب طبعاً إذ ينتهى «سفر أستير» بالتالى: «إذاعة عظمة مردخاى الذى عظمه الملك أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك مادى وفارس. لأن مردخاى اليهودى كان ثانى الملك أحشويروش وعظيماً...» (سفر أستير ١٠/ ٢، ٣)، ولن ننسى أن نذكر أنه استولى بأمر الملك على ممتلكات عدوه، بعد صلبه هو وأبنائه العشرة وقتل كل ذويهم.

هكذا كان.. إذن بنو إسرائيل مع من أراد مسالمتهم أو من عاداهم.. ولكن عداءهم لمن ليس منهم يفوق التصور عندما نقرأ ما حدث عندما أطلق سراح الأسرى من بنى إسرائيل، وعاد من أراد إلى أورشليم لبناء الهيكل مرة أخرى بعد سبعين عاماً من الرق، يحرم عليهم العودة إلى ديارهم. ولن يسعفنا طبعاً إلا ما نجده مدوناً فى «العهد القديم»، من كلام صريح لا يحتمل أى تأويل أو مناقشة، وقد يطول النقل ولا حيلة لنا فى ذلك.

فأولاً، نقرأ فى «سفر نحميا» (الإصحاح ١٣/ ٢٣، ٢٨): «فى تلك الأيام أيضاً رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموآبيات. ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودى ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودى بل بلسان شعب وشعب. فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم أناساً ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلاً لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم. أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك إسرائيل (...) وكان واحد من بنى يوياداع بن ألياشيب الكاهن العظيم صهراً لسنبلط الحورونى فطردته من عندى». إنها الغيرة على اللغة واللغة هى الهوية.

إنها الغيرة على اللغة واللغة هى الهوية: درس رائع قد نستفيد منه نحن عرب اليوم، ولكن الأمر لم يقتصر على اللغة، لأننا نقرأ فى «سفر عزرا»، كلاماً آخر، كسبب لمقاطعة النساء الأجنبيات.

الذى حدث، كما هو معروف، أن الملك سمح لبنى إسرائيل بإعادة بناء الهيكل. فنقرأ فى «سفر عزرا» صفحة كاملة بأسماء من ذهبوا فى تلك المهمة، مثلما يحدث عند كل حدث جلل: الأسماء، وأسماء الأجداد لتأكيد انتمائهم إلى بنى إسرائيل. ولكن سرد الأسماء الطويل يتوقف فجأة ونقرأ: «وهؤلاء هم الذين صعدوا (...) ولم يستطيعوا أن يبينوا بيوت آبائهم ونسلهم هل هم من إسرائيل (...) هؤلاء فتشوا على كتابة أنسابهم فلم توجد فرذلوا من الكهنوت» (الإصحاح ٢/ ٥٩، ٦٢).

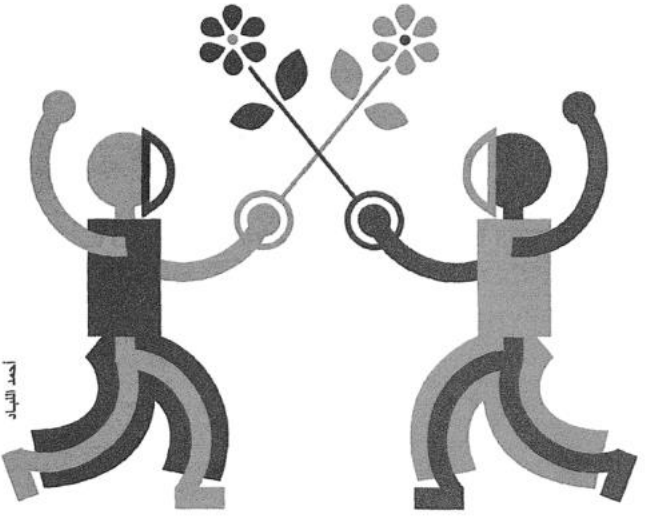
ملحوظة: كان بنو إسرائيل فى الأسر لمدة سبعين عاماً، ولكن عليهم أن يثبتوا نسلهم بعد كل هذه المدة. ولتأكيد نقاء الدم، وقد عاد الأسرى أحراراً إلى أورشليم، حدث التالى (١٠/ ٢، ٣): «وأجاب شكنيا بن يحيئيل من بنى عيلام وقال لعزرا إننا قد خنا إلهنا واتخذنا نساء غريبة من شعوب الأرض (...) فلنقطع الآن عهداً مع إلهنا أن نخرج كل النساء والذين ولدوا منهن حسب مشورة سيدى». ونقرأ بعد ذلك أسماء المذنبين: «فوجد بين بنى الكهنة من اتخذ نساء غريبة (أسماء ...) وأعطوا أيديهم لإخراج نسائهم مقربين كبش غنم لأجل إثمهم. (قائمة أخرى من الأسماء) كل هؤلاء اتخذوا نساء غريبة ومنهن نساء قد وضعن بنين». بدأنا، فى «الإصحاح العاشر» برقم ٢ حتى وصلنا إلى نهايته بعد صفحتين، عند رقم ٤٤. وينتهى «سفر عزرا»، بتلاوة أسماء المذنبين. ولن نعرف ما الذى حدث لهؤلاء ولا لأبنائهم، وكأن القائمة السوداء تكتفى هنا بوصمهم بالعار، ليتكفل الشعب بمجازاتهم.. أو طردهم.

هذا هو «التطهير العرقى» بعينه، خاصة بعد أن قرأنا «وأعطوا أيديهم لإخراج نسائهم». تطهير عرقى ولكنه ينطبق على أولاد بنى إسرائيل، وكل أب يتخلص من أولاده وأمهم التى تزوجها أثناء الأسر بمحض إرادته.. عندما كان النازيون يأخذون الزوجة اليهودية لأى ألمانى، كان يقوم بالمستحيل لإنقاذها هى وأولادها. وأذكر هنا ما كتبته الفيلسوفة اليهودية «حنا أرندت» Hannah Arendt، وهى أمريكية من أصل ألمانى، فى كتابها الشهير عن «محاكمة أيخمان»، عندما قارنت إسرائيل وحكامها بالنازية وقوانينها، فى بحثهم عن «نقاء الدم اليهودى» وعنصريتهم الظالمة. كما أن مثل هذه الأفعال، تشرح لنا ثورية رسالة السيد المسيح وعظمتها، عندما كسر الحاجز الذى يطوق «شعب الله المختار»، واعتبر كل البشر أبناء الرب. ولن نفهم طبعاً رسالته فى عظمتها إلا إذا رجعنا إلى هذا المناخ الخانق لليهودية عندما كان السيد المسيح ينشر رسالته. وهو ما فعله باقتدار كاتبنا الكبير عباس العقاد، فى كتابه الرائع عن «عبقرية المسيح»، حيث تحدث عن اليهودية فى عصره، أكثر مما تحدث عن عيسى عليه السلام.

هذا باقتضاب شديد، سرد سريع لأكثر القصص وضوحاً فى «العهد القديم»، وباقى الصفحات تزخر بأحداث عجيبة وحروب دموية وسير ملوك ظلمة وفاسدة. وما تاريخهم إلا سلسلة من أفعال شائنة يثور لها الأنبياء، وتغضب الرب، فيعاقبهم.. فيتوبوا بعد الهزيمة فيصفح الرب عنهم.. ويتعظوا لمرحلة قصيرة.. ثم تعود الأمور إلى سابقتها من الأخطاء، وكلها لها دلالة واحدة نستنتجها بسهولة، وهى الإجابة على السؤال الحائر: لم كره اليهود على مر القرون فى كل بلاد العالم؟ إن كان هذا هو ما يفعلونه بأنفسهم وبآبائهم وبأخواتهم وبأبنائهم، فما بالنا بما يفعلونه بالآخرين، وبشعوب جيرانهم؟ سؤال نجد إجابته فى «تاريخهم المدون فى «العهد القديم». ■



محمد حسنين هيكل
خريف الغضب
دار الشروق
محمد حسنين هيكل
زيارة جديدة للتاريخ
دار الشروق
محمد حسنين هيكل
عند مفترق الطرق
دار الشروق
محمد حسنين هيكل
وقائع تحقيق سياسي
دار الشروق
محمد حسنين هيكل
لمصر لا لعبد الناصر
دار الشروق
محمد حسنين هيكل
بين الصحافة والسياسة
دار الشروق
محمد حسنين هيكل
أحاديث في آسيا
دار الشروق



استيعاب الصراعات

■ ■ يقدم ديتر سينجهاس، المنظر الألماني في السوسيولوجيا والعلاقات الدولية، في هذا الكتاب أطروحة مهمة ومثيرة رغم أنه قد يتبدى للوهلة الأولى أنها تقليدية، وتم نقاشها كثيراً في كتب ودراسات عديدة - أي أطروحة صدام الحضارات أو عدمها. هدف سينجهاس المركزي في كتابه هذا هو تقويض مقولة صامونيل هانتنجتون حول حتمية الصدام بين الحضارات، ولكن بطريقة أخرى. فتلك المقولة، وكما نعرف الآن، تفترض حدوداً ثقافية دامية بين الحضارات، وهي حدود لا يمكن تجسيرها، بحسب ما يقول هانتنجتون، وسوف تكون سبب الصراعات الحالية والقادمة. وقد قدم هانتنجتون نظريته بعيد انتهاء الحرب الباردة، وقال أن الصراعات الحضارية ستحل محل الصراعات الأيديولوجية. سينجهاس هنا يرفض هذا الطرح، ويقول أنه تبسيطي ومتسرع، فليس هناك حدود جامدة وصارمة تفصل الحضارات، بل إن هناك تداخلاً شديداً فيما بينها. كما أن كل حضارة ليست متجانسة وموحدة، بل هي عبارة عن تجمع لحضارات وثقافات متعددة ومتنوعة وأحياناً متناقضة. فضلاً عن ذلك فإن الصراعات الفرعية داخل كل إطار حضاري موجودة بحضور بارز وعنيفة، وهي صراعات أهم من تلك التي تقوم بين الحضارات، خاصة في القرون الحالية. لكن كيف يفصل سينجهاس أطروحته عبر فصول الكتاب؟

Clash Within Civilizations: Coming to Terms With Cultural Conflicts
(الصراع داخل الحضارات: استيعاب الصراعات الثقافية)
Dieter Senghaas
London: Routledge, 2002 146 pages

في الفصل الأول يبدأ بطرح فكرة مهمة وهي فلسفة التحاور بين الأجزاء المكونة للثقافات، وليس بين الثقافات ككتل كُلانية مصمتة، أو «فلسفة الحوار ما بين مكونات الثقافات»، حيث الحوار على مستوى المكونات لهذه الثقافات وليس مستوى الإطار الشامل العام لكل منها. ويفصل في ذلك بالقول أولاً أن في داخل كل ثقافة هناك أجزاء وموضوعات فرعية، واهتمامات وصراعات، ونقد ذاتي ومتبادل، وكل ذلك يمثل حقيقة تلك الثقافة إذا نظرنا إليها من الداخل. على ذلك فعلينا ألا نحشر أنفسنا في الفكرة التسطيحية التي تنظر إلى الثقافة كجسم واحد من الخارج. وبالتالي يُفهم من طرحه أن حوار الحضارات والثقافات المطلوب يجب أن يتم بين الأجزاء المنسجمة أو المتنافرة في دواخل الحضارات المختلفة، وليس على مستوى أعلى يفترض ابتداء أن هناك توحداً صارماً لكل ثقافة إزاء الثقافات الأخرى. بمعنى آخر أن الحوار يجب أن يشتغل بين الفكرة أو القيمة (س) من هذه الحضارة مع القيمة (ص) الشبيهة لها والمناظرة في الحضارة الأخرى. وهكذا فالمطلوب هنا النظر إلى الثقافة بكونها مركبات وبنى مرنة تمتلك عناصرها القدرة على اختراق الثقافات الأخرى من جهة، وهي نفسها قابلة طواعية للاختراق من قبل عناصر من تلك الثقافات من جهة أخرى، وأن هذه السمة، الاختراق والاختراق المتبادل، هي سمة إيجابية للثقافة وليست سمة سلبية. ويضيف سينجهاس إن الأمل في تولد حوار حضارات حقيقي يبحث عن المشترك بين الثقافات عن طريق الغوص في المكونات المتشابهة ينبع من حقيقة أن معظم الحضارات في الوقت الراهن شهدت عملية صراع داخلي في كل منها لم تشهدها في الماضي، وأن نتيجة ذلك كله هي إمعان النظر في الذات والنقد الذاتي، والتطلع نحو خارج الذات للاقتباس والتعديل.

يقول إن: «فلسفة ما بين مكونات الثقافات»، كما يناقشها كثير من منظري ومفكري العالم اليوم، وحتى بعض فلاسفة القانون الدولي، تطرح فكرة تأسيس «قانون العالم»، التي هي أعلى مستوى وأرقى إنسانية من فكرة «القانون الدولي» التي تسير وفقها دول عالمنا اليوم. «قانون العالم» يعني إيجاد أنماط للعلاقات العابرة للشعوب والحضارات تتجاوز فكرة «الدولة الأمة» (nation state) وبحيث تنسج تلك العلاقات وفق مصالح وتناغمات واحتياجات ليست محكومة بمفهوم «سيادة الدولة» الصارم الذي عرفه العالم في القرون الثلاثة

«قانون العالم» يعني إيجاد أنماط للعلاقات العابرة للشعوب والحضارات تتجاوز فكرة «الدولة الأمة» (nation state) وبحيث تنسج تلك العلاقات وفق مصالح وتناغمات واحتياجات ليست محكومة بمفهوم «سيادة الدولة» الصارم الذي عرفه العالم في القرون الثلاثة الماضية

ليس هناك حدود جامدة وصارمة تفصل الحضارات، بل إن هناك تداخلاً شديداً فيما بينها. كما أن كل حضارة ليست متجانسة وموحدة، بل هى عبارة عن تجمع لحضارات وثقافات متعددة ومتنوعة وأحياناً متناقضة

الثقافية

خالد الحروب

الماضية. و«قانون العالم»، هو خلاصة تفاعل الأفكار والطروحات والتأملات التى يتم إنتاجها من خلال التواصل الثقافى بين مكونات الحضارات المختلفة، المكونات المتناظرة، بتجاوز الحدود الصلبة لكل حضارة، والدخول إلى قلبها. هذا الانتقال من «القانون الدولى» إلى «قانون العالم»، ليس ترفاً فكرياً، بل هو تحد تطرحه التحولات التى شهدها العالم فى القرنين الأخيرين. ويقول سينجهاس، إذا كان القانون الدولى، أو أية خلاصات نظرية وسياسية شهدتها البشرية خلال الماضى القريب، نتيجة إبداع الفلسفات فى حل المعضلات الاجتماعية والثقافية والسياسية للمجتمعات التقليدية فى الماضى، فإن مجتمعات اليوم تختلف كلياً عن البيئات التى أنتجت تلك الحلول. فالمجتمعات الراهنة هى صناعية، وحديثة، وتتسم بعمق الاعتماد المتبادل (interdependence) فيما بينها بشكل لم يسبق له مثيل، ويتجسد هذا بشكل جلى عبر تطور مظاهر العولمة. والتحول من طور المجتمعات التقليدية إلى المجتمعات الحديثة هو صيرورة حتمية، وليس خياراً طوعياً، وتكفى نظرة واحدة لمجتمعات العالم خلال القرون الثلاثة الماضية للتأكد من صحة هذه الفرضية. إذ لم يعد هناك على وجه الأرض ما يمكن تسميته «مجتمع تقليدى» كامل بالمعنى الحرفى للكلمة، فيما عدا بعض الاستثناءات ذات التعدد السكانى المبعثر والقليل جداً. وبهذا فإن التحولات العالمية تفرض بالتالى إنجاز مشروعات فلسفية تتجاوز ما أنتجته الفلسفة التقليدية فى اجتراحها لأشكال وصيغ للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية. لكن هذه المشروعات لن تكون خلاصة فلسفة ثقافة معينة، أو منطقة معينة من العالم، بل خلاصة تفاعل وتزاوج بين مكونات الثقافات المختلفة، وتكون بالتالى عالمية حقاً، وليست صورة وادعاء فقط.

إعادة هيكلة مجتمعات العالم، كما يجادل سينجهاس، تنتج عدة مظاهر وانعكاسات، أولها زيادة الإلحاح على المشاركة السياسية. فازدياد درجات الاعتماد المتبادل، حيث تسارع انخفاض نسبة المجتمعات المكتفية بذاتها فى العقود الماضية، فرضت على الأفراد والمجتمعات تعميق الاهتمام بالسياسة وبما يدور «فى الخارج». وعليه فإن «زيادة التسييس»، برأى سينجهاس، هى ملمح أساسى لا مناص عنه من ملامح التحديث الاجتماعى، ويختلف تماماً عما كان سائداً فى المجتمعات التقليدية حيث كان بإمكان تلك المجتمعات التعايش مع سمات التهميش السياسى للأفراد أو إهمالهم لما يدور حولهم. لكن تحول المجتمعات التقليدية إلى مجتمعات حديثة يعتبر عملية فى غاية الحساسية والخطورة أحياناً، ولا يخلو من خضات عنفية، وصراعات داخلية، بحيث يصبح التعايش الداخلى السلمى قضية أساسية. ونجاح عملية التحول يقاس بمدى الوصول إلى صيغة تعايش سلمى بين الشرائح الاجتماعية، والمجموعات، وأصحاب المصالح المتناقضة والمتنافسة فى داخل المجتمع الواحد.

وبكلمة، يتجسد الفرق بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة فى أن الأولى تخلو من تسييس المجتمع، وكذا جمود الحراك الاجتماعى فيها، بينما تتصف الثانية بفاعلية سياسية وحراك اجتماعى دائم. ويرى سينجهاس أن المجتمع الحديث يتصف بما يسميه «التسييس العميق» (Fundamental Politicization) حيث يتم تسييس المشكلات الاجتماعية، وكذلك تنزيل المشكلات السياسية على مستوى اجتماعى. ومرة أخرى لم تهتم الفلسفات التقليدية ما قبل الحديثة، خاصة فيما يتعلق بالنظرية السياسية أو الفلسفة الاجتماعية، بالحراك الاجتماعى والسياسى الذى يكسر جمود التراتبيات، والأدوار مسبقة التوزيع بصرامة، والنظرة للعالم والحضارات فيه باعتبارها بنى منظمة ومرتبة بطريقة لا يمكن تعديلها. وقد كانت تلك النظرة أقرب إلى التحليل الدائرى للأشياء، حيث تبدأ الحضارات من نقطة معينة، ثم تتطور وتتقدم، وتصل إلى أوج قوتها فى نقطة معينة أخرى، ثم تبدأ بالأفول، ثم الانهيار التام (الدورة الخلدونية بحسب التراث العربى الإسلامى). ويرى سينجهاس أن الفلسفات التقليدية كانت تتمحور حول كيفية مواجهة «الفوضى والاضطراب»، اللذين يمكن أن يصيبا «الانسجام الكونى، المتجسد فى توزيعات الحضارات وثباتها. هذه الصيرورات وفلسفاتها لم تعد هى التى تشرح تداخل الحضارات فى العصر الراهن، ولا طريقة تعاونها بين بعضها البعض، ولا طريقة تطور المجتمعات وتعقد الأوجه الحديثة فيها.

فالذى حدث فى القرون الأخيرة، وتحديداً كما يقول سينجهاس منذ أواسط القرن الثامن عشر، أن المجتمعات انخرطت فى تحولات عميقة، التسييس العميق، والحراك الاجتماعى النشط الذى خلط الأوراق والمكونات التقليدية للمجتمعات وأنتج مجموعة من التوترات والاحتقانات التى برزت بسبب انهيار الأسس التقليدية لوحدة هذه المجتمعات إثر تفكك التراتبيات الاجتماعية والسياسية والبنية الثابتة التى تعودت عليها هذه المجتمعات. وبالتالى أصبحت مهمة الفلسفة السياسية الجديدة هى إيجاد صيغ لاستيعاب الصراعات الجديدة الطارئة فى داخل هذه المجتمعات، بشكل أكثر إلحاحاً من إيجاد صيغ لاستيعاب الصراعات بين المجتمعات المختلفة.

لكن ما هو الحل الذى توصلت إليه الفلسفات الحديثة لامتصاص التوترات والصراعات القائمة فى المجتمعات المحدثة؟ يقول سينجهاس أن الحل يدور حول ما يسميه «سداسى الحضارة»، ويتمثل فى شكل سداسى يعكس تداخل ست آليات مركزية تعمل على ضبط الصراعات وتضمن تطور المجتمع بشكل سلمى تعايشى، وكل آلية منها تحتل زاوية من زوايا ذلك «السداسى». هذه الآليات هى كالتالى:

* الأولى: احتكار القوة من قبل سلطة حاكمة، ونزع سلاح الأفراد (من دون المساس بتسييسهم)، بما يدفعهم للانخراط فى السياسة سلمياً.

* الثانية: حكم القانون، وهو أساس الشرعية التى يتم عبرها احتكار القوة من قبل السلطة الحاكمة، وهو القانون الذى يضمن حل النزاعات سلمياً.

* الثالثة: إخضاع ما قد ينتج من توترات بسبب الانتقال من الطور التقليدى إلى الطور الحديث من المجتمعات إلى «الاعتماد المتبادل»، الذى يقوم على توزيع الأدوار المتوقعة من كل فرد فى الطور الحديث. توزيع الأدوار هذا يقود إلى سلسلة تفاعلية من النشاطات الإيجابية تعمل على تجزئة الصراعات الحادة إلى عناصر صراع أقل حدة يمكن استيعابها عبر التسامح والحلول الجزئية.

* الرابعة: المشاركة الديموقراطية، الناتجة عن متتالية الحراك الاجتماعى، ومن دون هذه المشاركة فإن التوترات التى تتراكم خلال عملية الانتقال تؤدى إلى صراعات كبيرة تنفجر بقوة لاحقاً.

* الخامسة: تحقيق توزيع عادل للثروات، الذى من دونه ستظل الخطابات حول القضايا العامة، والمشاركة، وسوى ذلك من دون مضمون حقيقى مادى.

* السادسة: تطور ثقافة إدارة الصراعات بشكل إيجابى، بحيث تخترق كل مجالات الحياة الاجتماعية.

الأهمية البالغة لـ«سداسى الحضارة»، كما يمكن أن يستنبط من معالجة سينجهاس هى أنه ليس إنتاجاً حصرياً من إنتاجات الحضارة الغربية، بل إن كل آلية من آلياته كانت هدفاً أو مآلاً سعت إليه، أو طبقته بشكل أو بآخر، الثقافات والحضارات المختلفة، وأن الوصول إلى إحكام العلاقة بين زوايا السداسى بكاملها، وبالتالى تحقيق المجتمع الحديث، والتخلى عن الطور التقليدى للمجتمع، هو جهد إنسانى تعكسه كل ثقافة بطريقتها الخاصة. وأن جوهر العملية هو كونها خلاصة تاريخية للتوترات والأزمات والانعطافات التى تمر بها المجتمعات. وعليه، فليس من الصحيح ولا الدقيق علمياً وتاريخياً اعتبار أن آليات السداسى الحضارى هى أوروبية حصرية، أو عندها خصوصية غربية. صحيح أن الظروف التاريخية دفعت أوروبا لتبنى هذه الآليات بشكل أسرع من غيرها من المجتمعات، لكن فهم هذا التبنى يجب أن يقوم على فهم الظروف التاريخية، ولا يجب نسبته إلى «خصوصية أوروبية أو غربية». فأوروبا نفسها واجهت صراعات مريرة مع بناها التقليدية وماضيها الخاص خلال عملية انتقالها من الطور التقليدى إلى الحديث، ولم تتبن الآليات الست للسداسى الحضارى إلا بعد عقود طويلة من الشك والتردد. ومن هنا وكما يقول سينجهاس فإن النتيجة المدهشة التى يجب التركيز عليها هى أنه من الخطأ الجسيم اعتبار السمة الحضارية للصراعات

الداخلية فى المجتمعات الأوروبية سمة جوهرية وخاصة بتلك المجتمعات (بل تطور حضارى تخضع له، وتصل إليه، كل المجتمعات الأخرى). والأمر نفسه ينطبق على الآليات الست للسداسى الحضارى، وعلى كثير من المفاهيم الأخرى التى يظن البعض أنها غربية المصدر والجوهر، مثل العقلانية، الفردية، التعددية وغيرها. فهناك أمثلة عديدة فى السياق التاريخى الغربى على الصراعات الثقافية الداخلية التى أنتجت خلاصات لم تكن مقصودة. والأمر ذاته تشهده فى الوقت الراهن حضارات مختلفة، حيث تمر فى صراعات ثقافية متنوعة ستقود إلى خلاصات لم تكن مقصودة أيضاً. وصيرورة الانتقال إلى المجتمع الحديث، وإحداث التسييس العميق، هى صيرورة حتمية ولا يمكن أن تفلت منها هذه المجتمعات. وهذا النقاش يقودنا إلى نتيجة أهم هى تفكيك «الجوهرانية الثقافية» واكتشاف تناقضاتها الداخلية، وإعطاء الأهمية الملائمة للظروف التاريخية وأثرها فى إنتاج الآليات الحضارية واستجابات الثقافات لها.



لكن هناك اختلافاً كبيراً فى طبيعة «التحول» الذى تتعرض له المجتمعات غير الغربية خلال عبورها إلى طور المجتمعات الحديثة، عن ذات «التحول» الذى شهدته فى الماضى المجتمعات الغربية. وهذا الاختلاف يكمن فى أن التحول الراهن للمجتمعات غير الغربية يتم فى عالم يسيطر عليه الغرب ويؤثر فيه، بسبب الكولونيالية، والإمبريالية، والتفوق الراهن. وهذا يجعل من تأثير الغرب فى الآخرين أكثر بكثير من تأثير الآخرين فى الغرب. وإزاء هذه الحقيقة تعاملت المجتمعات غير الغربية مع تأثيرات الغرب بردود فعل متباينة، يمكن إجمالها فى أربعة ردود بشكل عام:

• الأول، هو تقليد الحداثة وتقليد النموذج الغربى باعتباره طريق المجتمع الحديث. ويستشهد سينجهاس هنا بالحركة الفكرية والسياسية التقدمية فى الصين فى العقود الأولى من القرن العشرين، التى انتقدت البنى المحلية والكونفوشيوسية انتقاداً حاداً واعتبرتهما عبئاً على التطور، والسبب الرئيسى فى الإذلال الذى تعرضت له الصين منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وللخروج من مأزق التخلف جربت الصين حلولاً مثل الدستورية، القومية، الديموقراطية، الاشتراكية، وغيرها من أشكال ومنتجات المجتمع الحديث، وهى كلها تقليد لإنجازات حداثية. فى جنوب شرق آسيا نجح نموذج التقليد فى بلدين على الأقل نجاحاً باهراً هما كوريا وتايوان اللتان اشتغلتا على تبنى آليات «السداسى الحضارى» وترسيخه فى المجتمع بشكل مدهش.

• الثانى، هو معارضة الحداثة ومقاومتها، وهذه ردة فعل طبيعية، فهنا، وكما يقول سينجهاس، وفى كل حالة يقع فيها التحول الكبير من المجتمع التقليدى إلى الحديث، فإن «حراس الماضى» ينتفضون على شكل محافظين، أو تقليديين، أو أصوليين، للدفاع عما يرونه أصالة مجتمعهم. فكما فى روسيا، أو الهند أيام غاندى، أو الأصولية الإسلامية الراهنة، فإن معاداة الغرب ومعاداة التحديث يبرزان على نفس الصعيد.

• الثالث، هو حل أنصاف التحديثيين، حيث يريد هؤلاء فتح أقصى الأبواب للتكنولوجيا الغربية الحديثة، مع تنقيتها من التأثيرات الثقافية، والحفاظ على ما هو محلى. وهنا فإن تجربة اليابان تعتبر النموذج الذى يشار إليه، حيث اعتمدت تلك السياسة منذ إصلاحات الامبراطور الميجى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. كما أن النموذج الاشتراكى الشرقى تبنى أيضاً هذه الأطروحة، لحماية المجتمع من «القيم الغربية الضارة»، بل إن بلداً مثل ألمانيا فى عقود العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين كان حريصاً على المحافظة على «القيم الألمانية العميقة» ضد القيم الغربية الضحلة، مع ضرورة استيراد التكنولوجيا. واليوم يتجسد هذا الخيار فى الحركات الإسلامية الأصولية، وفى «مدرسة سنغافورة»، حيث ليس هناك ممانعة من استقطاب تكنولوجيا الغرب، لكن مع محاربة تأثيراته الثقافية. وفى الحالة الأخيرة، النموذج السنغافورى، يتم رفض القيم الفردية الغربية للحفاظ على قيم العائلة التى هى أساس فى «القيم الآسيوية».

• الرابع، هو الاختراع والابتكار لمواجهة التحولات الجديدة الناشئة عن الانتقال من التقليدى إلى الحديث. وأحد الأمثلة هنا هو ما حدث فى غرب أفريقيا بعد مرحلة نزع الاستعمار، وبروز الدعوات إلى هوية أفريقية، وشخصية أفريقية، بل أيضاً إلى «الوحدة الأفريقية»، وهى الفكرة التى قادها ونظر إليها الزعيم كوامى إنكروما. وكانت الهوية الأفريقية التى دعا إليها تتكون من ثلاثة مكونات: التراث الأفريقى التقليدى، الإسلام (حيثما وجد فى القارة)، والإفادات من الثقافة الغربية المسيحية. إسلامياً، حاول مفكرون مسلمون إنتاج ما يسمى «إسلامية المعرفة»، كبديل أصيل عن المعرفة الغربية. غير أن السعى نحو الابتكار يطرح أسئلة بقدر ما يقدم أجوبة. فالقرآن يحث أتباعه على الشورى وتبنى هذا المبدأ، لكن السؤال الذى ما زال لم يجد إجابة عليه هو كيف يمكن تطبيق هذا المبدأ عملياً، وما هو الشكل الدستورى الإسلامى وكيف يختلف عن الغربى. لكن فى كل الأحوال فإن ما هو حتمى هنا هو أن مدرسة الابتكار لا يمكن أن تنجح فى اجتراح أى حل من الحلول من دون الانفتاح السياسى.

يرى سينجهاس أن الصيرورة التى مرت فيها المجتمعات الأوروبية لا مناص عن المرور فيها من قبل بقية المجتمعات، وهى تبدأ بتراكم التحديات الحديثة التى تواجه المجتمع التقليدى، والخضوع لمنطق البحث عن مخارج للمأزق الجديدة. وهنا يتم فى العادة طرح العودة إلى الأصول، والهوية، والتقليد لمواجهة تلك التحديات. ثم تفشل تلك الطروحات بسبب تعقد المشكلات وتداخلها بشكل يفوق قدرة أى حل تقليدى على استيعابها. ومن بعد ذلك تتجه المجتمعات نحو تبنى «السداسى الحضارى» وآلياته بالتدريج.

وإزاء النظرة إلى الحضارات القديمة وفلسفاتها، يطرح سينجهاس السؤال: هل هناك فائدة من العودة إلى تلك الثقافات، وإعادة التأمل فى ما جاءت به؟ والإجابة التى يقدمها المؤلف على هذا السؤال، من خلال معالجته للفلسفات الصينية، والإسلامية، والهندوسية، والبوذية، هو الإيجاب. والسبب الكبير فى ذلك هو أن كثيراً من مكونات تلك الثقافات والمفاهيم التى دعت إليها فى مرحلة ما من مراحلها، تتواءم وتتناسب مع عناصر المجتمع الحديث. فمثلاً هناك قيمة التعددية التى هى محور من محاور المجتمع الحديث، وهى قيمة تتجسد بكل وضوح فى الفلسفة الصينية، والهندوسية، والإسلامية، سواء على صعيد التقعيد الفكرى النظرى، أم صعيد الممارسة والتجربة التاريخية لهذه الثقافات. ويرى سينجهاس، محقاً، أن نفض الغبار عن كثير من العناصر القديمة ذات الصلاحية الجديدة والمعاصرة سوف يساعد على تحديث المجتمعات وتقبلها لصيغ من الحداثة بكونها أصيلة، وباعتبارها منتجاً محلياً وليس مستورداً.

وفيما خص المجتمعات الإسلامية فإن سينجهاس يرى أن التحدى الأساسى الذى يواجه تنميتها وتطويرها هو تحدى التعددية. وفى نقاشه لتجربة الحضارة الإسلامية، فى الفصل الثالث، يلحظ أن غنى هذه الحضارة يكمن فى التنوع والاختلاف الواسع والقدرة على الاستيعاب لشعوب، وحضارات، وأفكار، ومذاهب، أى بلغة العصر تعددية قصوى وناجحة. لكن العصر الحالى، متمثلاً بالدول الإسلامية، يشهد غياباً فاجعاً لهذه القيمة المركزية. وبالتالى فإن إحدى الطرق الجزئية لتحديث المجتمعات الإسلامية هى فى إعادة تسليط الضوء على الاتجاهات التعددية فى الثقافة الأصيلة. وهو يدعو إلى بعث الفكر العقلانى والتنويرى مثل فكر ابن رشد والفارابى وابن خلدون وفكر مدرسة المعتزلة، وأنه من دون إعادة الاعتبار للعقلانية الإسلامية فإنه من الصعب تخيل خروج المجتمعات الإسلامية من الأزمات الثقافية والاجتماعية والسياسية التى تعصف بها. فعمليات التحديث الجزئى التى انخرطت فيها هذه المجتمعات أفضت بها إلى منتصف الطريق، فلا هى قادرة على الاستمرار فى طريق الحداثة خشية الانقطاع عن تراثها وهويتها، ولا هى قادرة على

التوقف والجمود على ما هى عليه. وربما كان الحل هو استدعاء مفردات الحداثة الموجودة فى الثقافة نفسها وإعطاؤها سمة عصرية. ومادامت الأزمات الخانقة التى تعكس المأزق الذى تواجهه هذه المجتمعات باقية، فستظل تنتج تعبيرات متطرفة عن تلك الأزمات، وغالباً ما تأتى على شكل توترات تأخذ شكل الدفاع عن الهوية.

لا بد للمجتمعات الإسلامية من أن تنخرط فى مشروع نقد ذاتى معمق، يعيد إنتاج الفكر الإسلامى بطريقة عصرية تسهل دخول هذه المجتمعات العصر الذى تعيش فيه، لا أن تظل على هامشه. وهذه المهمة لا يمكن أن تتم إلا من خلال التجديد والاجتهاد الذى يطالب المؤلف بإحيائه. وهنا يشير المؤلف إلى أن أشكال المجتمع الحديث تتنوع فى علمانيتها، وأن أحد الأشكال لا تتطلب الفصل الصارم بين الدين والدولة، وهو ما يفترضه ويطلبه النموذج الفرنسى مثلاً. بل هناك النموذج الألمانى والبريطانى للعلمانية حيث يتصالح الدين بشكل أكثر يسراً مع الدولة، فالكنيسة فى هذين البلدين موجودة وفاعلة، ومتداخلة مع الدولة، لكنها مع ذلك لا تتصارع معها فى الميدان السياسى.

فى المجتمعات البوذية يرى سينجهاس أن المعضلة تأخذ شكلاً آخر. فبسبب طبيعة الديانة البوذية، وفكرة إعادة استنساخ الأرواح والأفراد فإن إحساس الناس بمفهوم المواطنة إحساس ضعيف. وبالتالى فلا يمكن تكريس أشكال المجتمعات الحديثة من دون مصالحة مفهوم الدولة والمواطنة مع مفاهيم البحث عن الخلاص وعودة أرواح الأفراد بأشكال جديدة. وبسبب غلبة النظرة الأخلاقية فى التعاليم البوذية فإن تقييم فكرة الدولة أو السلطة يقوم على أساس ما إن كانتا تقدمان إطاراً أو نظاماً للأخلاق والفضيلة، أكثر من كونهما يقدمان نظاماً للاستقرار وعدم الفوضى (كما تركز الفلسفات الصينية مثلاً، بتأثيراتها الكونفوشيوسية).

على صعيد الهندوسية يلتقط المؤلف قضية مركزية وهى أنه ليس هناك أولاً شىء اسمه الديانة الهندوسية، بل هناك ديانات متعددة يدين بها الهندوس، لكن تعميم لفظة «الهندوسية» جاء عن طريق الاستشراق الأوروبى الذى كان يميل إلى التعميم، واختراع الأوصاف الجامعة. والتعددية الروحية والدينية التى تتصف بها «الهندوسية» مدهشة إلى درجة كبيرة. وأن هذه التعددية قد تمثل الأساس النظرى لتطوير فكرة التعددية السياسية فى تلك المجتمعات. غير أن المعضلة الكبرى التى تواجه مجتمعاً هندوسياً كالهند هى فى وجود نظام الطبقات الاجتماعية وقوة نفوذه رغم مرور أكثر من نصف قرن على قيام الدولة العلمانية هناك. وبالتالى فإن ما يراه سينجهاس هو ضرورة عبور الجسر الذى يصل بين التعددية الروحية والدينية إلى التعددية السياسية القائمة على المساواة الاجتماعية والقانونية بين الأفراد.

كل هذا الحديث عن الحضارات والثقافات من داخلها يقصد به التدليل على تنوع واختلاف تلك الحضارات، وعلى الصراعات التى تتعرض لها، ولأنها أكثر حدة فى بعض الأحيان والمراحل من الصراعات التى يفترضها هانتنجتون بين الحضارات المختلفة. وهنا فإن النقد الأهم الذى يطرحه سينجهاس لهانتنجتون يكمن فى ميل هذا الأخير إلى تقسيم العالم إلى سبع حضارات جامدة وبتقسيم صارم: الحضارة الغربية، الحضارة الكونفوشيوسية، الحضارة الهندوسية، الحضارة الصينية، الحضارة الإسلامية، ...، ويضيف، وربما الحضارة الأفريقية، والحضارة الأمريكية اللاتينية. هذا التقسيم يغفل أولاً أن داخل كل حضارة هناك حضارات أو ثقافات تتباين قبل أن تتشابه، ولا يمكن بالتالى جمعها فى مظلة واحدة. ويغفل أيضاً مراحل تطور الحضارات، وحيث تصبح مكونات أو مناطق أو دول فى «حضارة أو ثقافة ما» أقرب إلى مكونات أو مناطق أو دول فى حضارة أخرى منها إلى الحضارة التى تنتمى إليها نظرياً. فاليابان مثلاً أقرب إلى بريطانيا منها إلى الصين أو أية دولة آسيوية أخرى. ويثبت سينجهاس أن افتراض التوحد القسرى داخل كل حضارة بناء على الثقافة هو افتراض هش علمياً، وكذا افتراض أن صراعها الأساسى هو مع الآخرين. فالحروب الكبرى فى القرن العشرين، وقعت داخل الحضارة الغربية. وإذا كانت أطول حرب فى ذلك القرن، الحرب اليابانية الصينية، قد حدثت فى إطار آسيوى، فإن ثانى أطول تلك الحروب، الحرب العراقية الإيرانية، وقعت داخل إطار الحضارة الإسلامية. وهكذا فأين هى صراعات الحضارات التى يتحدث عنها هانتنجتون؟ ■

كتاب الزاوية

معبد بيلوس

معبد بيلوس بناء مربع الشكل يحتوى على برج فى داخله، وأقيمت فوقه ثمانية أبراج أخرى يتضاءل حجمها تدريجيًا، ويشكل أعلى واحد منها المعبد نفسه الذى تضم حجرته الداخلية منضدة ذهبية. ولكن لا وجود للتماثيل هناك. وخارج البرج وضمن حدوده ثمة مذابح ذهبية خصصت للقرابين، ولدرء خطر فيضان نهر الفرات من إغراق المدينة، نظرًا لأن الماء فى الصيف كان يرتفع ارتفاعًا كبيرًا بسبب ذوبان الثلوج المنحدرة من جبال أرمينيا وكردستان، فقد شقت قناتان على مسافة بعيدة من بابل لنقل الماء إلى نهر دجلة حيث تربو تلك المسافة على خمسين ميلاً، وهناك بحيرة واسعة تبلغ مساحتها قرابة أربعين ميلاً مربعًا وعمقها خمسة وثلاثين قدمًا، حفرت لتحويل الماء بواسطة سدود تتحكم به ولتكوين خزان مائى، بالإضافة إلى تزويد السكان بالماء وزراعة المناطق الريفية المحيطة التى وصفت بأنها شديدة الخصوبة من خلال ما يرى فيها من أعناب وفاكهة فضلاً عن القمح.

وعندما غزا الإسكندر مدينة بابل حوالى ٣٢٥ ق.م، كانت تحدوه رغبة فى ترميم ما دمرته الحروب، خاصة القصور الرئيسية والمعابد، وكان معبد بيلوس آنذاك كدسًا كبيرًا من النفايات لدرجة بات معها أمر إصلاحه وترميمه مهمة عسيرة.

■ ■ يُنجز الفنان يوسف شاهين في هذه الأيام فيلمه الجديد الذي يؤرخ فيه لمسيرته الفنية ولعلاقته المتوترة بالغرب (الأمريكي) بعنوان «اسكندرية.. نيويورك» وهذا الفيلم الذي قد يمكن اعتباره الجزء المكمل لثلاثية يوسف شاهين الذاتية («اسكندريه ليه»، «حدوتة مصرية»، «اسكندرية كمان وكمان») يتابع أربعين عاماً من حياة هذا الفنان العربي الكبير. وللمناسبة يصدر قريباً كتاب عن يوسف شاهين وسينماه للناقد إبراهيم العريس. وهنا فصل من هذا الكتاب يتناول فيه الناقد، السينما التاريخية الشاهينية من خلال ثلاثة أفلام لشاهين هي «الناصر صلاح الدين» و«المهاجر» و«المصير».. وهي أفلام تغوص في التاريخ مباشرة على عكس أفلام أخرى لشاهين يمكن اعتبارها «تاريخية» بدورها، لكن دنوها من التاريخ يأتي بصورة غير مباشرة.

المحـــرر

يوسف شاهين

التاريخ

الأنا

الآخر

إبـــراهـيــم الــعـــريـــس

■ ■ خدمت الشاشة شاهين دائماً، والكاميرا بالتالي، كمكوك يستقله ليقوم بواسطته في رحلاته عبر التاريخ: التاريخ السياسي المباشر (كما في «جميلة» أو «ثلاثية الهزيمة») والتاريخ الشخصي (كما في «الثلاثية الذاتية») أو حتى في تاريخ السينما. غير أن سينما شاهين ظلت في هذه الحالات كافة واقفة عند القرن العشرين لا تتخطاه ولئن كان شاهين قد أقدم في «الناصر.. صلاح الدين» على تحقيق فيلم لم يكن فيلمه في بداية الأمر، فإنه لاحقاً منذ العام ١٩٨٥، عاد ليبارح القرن العشرين محققاً ثلاثة أفلام تاريخية بالمعنى المتعارف عليه لعبارة سينما تاريخية. لكن المفارقة الأساسية تكمن في أن الأفلام الثلاثة التي نتحدث عنها هنا، وهي «وداعاً يابونابرت» ١٩٨٥ و«المهاجر» ١٩٩٤، و«المصير» ١٩٩٧ ستبدو، ما إن نخضعها لتحليل ما الأكثر ذاتية بين أفلام شاهين إن نحن استثنينا ثلاثية الذات المباشرة المؤلفة من «اسكندرية ليه» و«حدوتة مصرية» و«اسكندرية كمان وكمان».

ذلك أن يوسف شاهين، بعد تجربته التاريخية في «الناصر صلاح الدين»، لم يبدُ أبداً راغباً في أن يدنو من أي تاريخ دنواً موضوعياً، فهو سينمائي أولاً وأخيراً، وليس أستاذ تاريخ ولا مؤرخاً. فإذا كان حتى حين اقترابه من الحروب الصليبية ومآثر صلاح الدين الأيوبي في فيلمه العائد إلى العام ١٩٦٣، قد عرف كيف «يستولي» على موضوع ليس له ويحمله قدر ما سمحت له به الظروف، ببعض أفكاره الخاصة عن التسامح والعلاقة مع الآخر وجدوى الحروب، ما الذي يمنعه في «الثلاثية» الجديدة من أن يفعل هذا وأكثر؟ وما الذي يمنعه من أن يستحوذ على تلك المراحل التاريخية الثلاث التي موضَعَ فيها حكايات أفلامه لكي يحملها بما في داخل ذاته من أفكار؟

في الأفلام الثلاثة التي نتحدث عنها هنا، لدينا، أولاً، زمن حملة بونابرت على مصر، ثم زمن الفراعنة وولادة الأديان التوحيدية في إرهاصاتها الأولى على يد أخناتون، وأخيراً زمن الأندلس وولادة الفكر النهضوي الانساني. في الحالات الثلاث، إذن لدينا ما يشبه الانعطافة في تاريخ الفكر والدول، غير ان هذا لم يعنِ شاهين إلا بمقدار ما رأى في ذلك كله «سلاحاً» يمكنه استخدامه في «معاركه» الراهنة وفي تعبيره عن ذاته المشاكسة ولكن الساعية دائماً إلى التواصل مع الآخر.

ومن هنا إذا كان شاهين اختار أن يدنو في سينماه من لحظات انعطافية، فإنه اختار في الوقت نفسه أن يكون ذلك الدنو ذاتياً. وهكذا، حتى لئن كان الفرعون حاضراً في «المهاجر» فإن البطولة الأساسية معقودة للشاب رام، طالب العلم الغريب الذي قصد مصر ليتشبع بالعلم الذي به قد يسدي خدمة إلى بلاده. ولئن كان الخليفة حاضراً في الدولة الأندلسية أيام عزها، فإن الاساس في «المصير» كان لابن رشد، الفيلسوف، ولطلاب العلم وأنصار الفن في صراعهم مع القوى الظلامية المتشددة. وأخيراً إذا كان نابليون بونابرت قد حضر، بكل زخم حركته التاريخية في «وداعاً يا بونابرت»، فإنه ليس هنا الشخصية الرئيسية، الأهمية القصوى معطاة، هنا لكافاريللي. العالم الذي يرافق بونابرت في حملته لأسباب علمية لا عسكرية ولا سياسية والذي، هو، يعرف كيف يقيم علاقة مع سكان البلاد المحتلة ومع حضارتها. وفي الحالات الثلاث أيضاً تخوض الشخصيات التنويرية (أو الساعية إلى التنوير) الثلاث، صراعاً ضد السلطة وسياساتها وعسكرها. إنه صراع العقل ضد جبروت القوة، بصرف النظر عمن سيخرج في نهاية الفيلم منتصراً.

ويقيناً هنا أن شاهين الذي أحس حين تحقيق «الناصر.. صلاح الدين» أن هناك اشياء كثيرة لم يتمكن من قولها في هذا الفيلم، الذي كان في الأساس إنتاجاً ضخماً املته ظروف سياسية محددة، عاد بعد أكثر من عقدين ليسائل السينما في علاقتها بالتاريخ، ويسائل الذات في علاقتها بالآخر. ومع هذا، في معنى من المعاني، يمكن النظر إلى «الناصر.. صلاح الدين» باعتباره نوعاً من التمهيد للثلاثية التاريخية اللاحقة، منتمياً اليها من ناحية خروجه عن القرن العشرين واستناده إلى أحداث تاريخية حصلت حقاً، وإن كانت مستخدمة الآن، أي زمن تحقيق الفيلم، لغايات أيديولوجية بحتة.

«الناصر.. صلاح الدين»

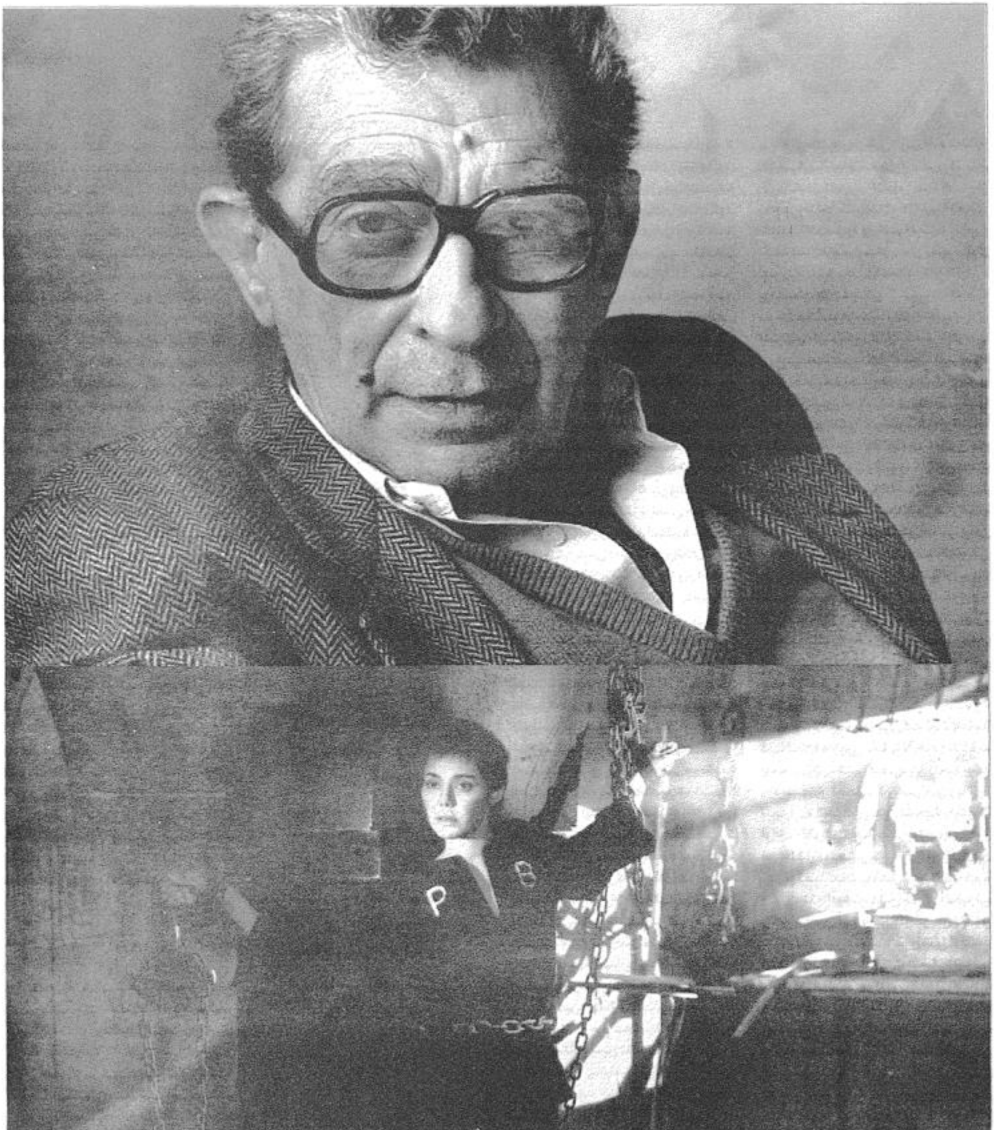
من الماضي إلى الحاضر

مبدئياً كان من المفروض بفيلم «الناصر.. صلاح الدين» أن يكون من إخراج عز الدين ذو الفقار، ذلك أن الفيلم كان مستنداً إلى فكرة غايتها من ناحية تمجيد التسامح العربي الإسلامي، والحث على الوحدة العربية ومن ناحية ثانية إقامة توازي بين بطل الماضي صلاح الدين وبطل الزمن الراهن جمال عبد الناصر. ويوسف شاهين، رغم ناصريته المعلنة في ذلك الحين ونزوعه نحو الأفكار العروبية والاشتراكية، لم يكن معروفاً بقوة تحليله ووعيه السياسي، أما عز الدين ذو الفقار فكان أثبت تضلعه في الأمر عبر عدة أفلام منها «رد قلبي» الذي كان من افضل ما حقق عن ثورة الضباط الأحرار. لكن المنتجة آسيا داغر، التي كانت مشاركة للسلطات الرسمية في إنتاج الفيلم، تبنت اختيار عز الدين ذو الفقار لشاهين بدلاً منه إذ وقع ذو الفقار ضحية مرض عنيف، وهكذا، وجد شاهين نفسه، وهو الخارج من واحدة من أكثر حقب حياته المهنية ظلاماً عبر أربعة افلام ميلودرامية حققها تباعاً بين ١٩٥٩ و١٩٦١، وجد نفسه أمام مشروع كتب بمعزل عن أفكاره واهتماماته السينمائية ومع هذا لم يتردد، قبل بسرعة وسيقول لاحقاً أنه كان يبذل جهداً كبيراً في إحداث بعض التبديلات اليومية في السيناريو والحوارات، حتى يمكنه أن يتبنى الفيلم تماماً، وفي نهاية الأمر بعد شهور من العمل وبفضل مساعدات قدمها الجيش المصري، أنجز شاهين الفيلم الذي كان حتى ذلك الحين أكثر الأفلام كلفة في تاريخ السينما المصرية، وبسرعة أدرك الناس حتى من دون مشاهدة الفيلم، ولدى قراءة عنوانه مدى الربط الذي يقيمه بين الماضي والحاضر، ومن نافلة القول أن شاهين لم يندم على ذلك بدليل أنه سيعاود الكرة ويؤكد هذا الربط دائماً في أفلامه التاريخية اللاحقة.

إذن، منذ ذلك الوقت المبكر حدد شاهين وظيفة السينما التاريخية: إنها ليست مجرد رسم الأحداث التي حصلت في الماضي، انطلاقاً من نظرة موضوعية باردة، الحقيقة التاريخية ليست مهمة هنا فالتاريخ يمكن تعلمه في المدارس والأكاديميات، أما ما يهمنا منه فهو مدى انعكاسه علينا غير أن «علينا» هذه، أيام «الناصر صلاح الدين»، كانت تعبر عن المجتمع وعن الأمة ككل، وهنا لابد أن نشير إلى أنه حتى ولو كان قد قبِل منذ البداية لشاهين بأن يكون هو صاحب المشروع وكاتبه، لما كان من شأنه، في ذلك الوقت المبكر أن يحول «النحن» إلى «أنا». الذات كانت لا تزال خفية لديه حتى وإن كانت أطيافها موجودة منذ فيلم «بابا أمين». في زمن «الناصر صلاح الدين» لم يكن شاهين قد اخترع «سينما السيرة الذاتية» (أو إعادة اختراعها على طريقته) إذ في تلك

☜

من فيلمه جميلة بوحريد



الحقبة كان شاهين لا يزال صاحب فكر جماعي، مؤمناً بالتقدم السياسي والوحدة العربية.

غير أن هذا لم يمنعه، منذ ذلك الوقت المبكر، وعلى عكس ما كان الوضع مع آخر فيلم «جدي» كان حققه قبل «الناصر صلاح الدين» أي «جميلة الجزائرية»، لم يمنعه من أن ينظر إلى الآخر، وإلى ضرورات التلاقي الحضاري نظرة ستتطور وتتبلور لديه كثيراً لاحقاً، نظرة تبتعد إلى حد كبير عن لعبة الاسود والأبيض الكأداء فإذا كان صلاح الدين الأيوبي نفسه وحسب ما تروى لنا كتب التاريخ التى نفخر بها نحن العرب، قد تسامح مع أعدائه إلى حد مداواته ريتشارد قلب الأسد، هل علينا نحن أن نكون أقل انفتاحاً على الآخر مما كان صلاح الدين؟

والحال ان هذه الفكرة التى كانت جنينية فى «الناصر صلاح الدين» ستشكل لاحقاً أساساً من أسس علاقة شاهين بالسينما وبالفكر، وستجر عليه المشاكل أيضاً. غير أننا هنا، لا نزال ابكر من أن نتوقف عند هذا الأمر. هنا لانزال فى وسط المصالحة بين الفنان والسلطة .التى يخدمها فى فيلمه. ولا تزال المصالحة قائمة بين المجتمع والسلطة أيضاً. فبداية الستينيات على رغم بعض الانتكاسات التى جابهت العهد الناصرى (الانفصال مثلا، وبدايات الصراعات العربية المسلحة. حرب اليمن) كانت لاتزال تشهد امتدادات الصعود القومى، وكان الصراع الأساسى قائماً ضد ذلك «الآخر» الغربى الذى نمارس تجاهه لعبة الجذب والنبذ ونود لو نفتنه ونذكره بماهيتنا وبمواقفنا تجاهه.

ونحن نعرف أن حكاية «الناصر صلاح الدين» تنتمى إلى الحقيقة التاريخية فى خطوط أحداثها العامة، لكننا نعرف ايضاً أن التفاصيل قد لا تكون حقيقية كلياً. كل ما فى الأمر أن شاهين، ومن قبله صاحب الفكرة يوسف السباعى، وكتاب السيناريو نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوى وأيضاً عزالدين ذوالفقار الذى كانت له مساهمته. قبل تخليه عن الفيلم استحوذوا على تلك الأحداث، ثم أعاد خلط التواريخ والشخصيات بشكل قد يبدو «متهافتا» للمؤرخين كما ستكون الحال لاحقاً مع أفلامه التاريخية التالية، وحتى مع أفلامه غير التاريخية. وذلك لخدمة الأيديولوجيا التى كان مطلوباً منه أن يعبر عنها، من ناحية، ولإرضاء فكاره الخاصة من جهة ثانية، ويمكننا بالطبع خارج إطار الأخلاقيات العامة، مثل التسامح والانفتاح على الأخر،



حدد شاهين وظيفة السينما التاريخية: إنها ليست مجرد رسم الأحداث التى حصلت فى الماضى، انطلاقاً من نظرة موضوعية باردة، الحقيقة التاريخية ليست مهمة هنا فالتاريخ يمكن تعلمه فى المدارس والأكاديميات، أما ما يهمنا منه فهو مدى انعكاسه علينا

وانتماء الجميع إلى أديان سماوية لا ينبغى للصراعات الدنيوية أن تؤثر عليها، يمكننا أن نرى فى سياق هذا الفيلم (المشغول بحرفية كبيرة، ذلك أنه كان أول فيلم ملون لشاهين الذى لن يعود بعده إلى السينما الأسود والأبيض أبداً، كما كان أول فيلم يستخدم أعداداً كبيرة من المجاميع، ويحصر فى ساعات عرضه الثلاث تقريباً، أحداثاً تاريخية امتدت فى الزمن الحقيقى عقوداً من السنين) بعض الأفكار الأساسية التى سيظل شاهين يهجس بها دائماً: مثل موقع الحب وسط عواصف الحروب والكراهية. ودور العلم والعقل، لا القوة، فى الانتصار فى الحروب وفى بناء الحضارات. والانتماء الحتمى للأقليات المسيحية للبيئة التى تعيش فيها. إن سمات صلاح الدين وانفتاحيته تبدو مستقاة مباشرة، ليس من كتب التاريخ، بل من واقع إسكندرية شاهين نفسه، والدمشقى ذلك العالم الذى يشغل عقله من أجل الانتصار ليس سوى إرهاص بدور المثقفين فى صنع الانتصارات. صحيح أن السنوات التالية من حياة شاهين ومساره المهنى، ستشهد تبديلاً أساسياً فى نظرته إلى دور المثقف (خيانة المثقف كما قد يقول جوليان بندا) لكن شاهين، حين يحين موعد تحقيقه أفلامه التاريخية. بالمعنى الحرفى للكلمة. الثلاثة التالية، سيكون قد استعاد إيمانه بدور العلم والتنوير، ودور المثقفين فى مجتمعه، ناهيك بإصراره على مفاهيم شغلت باله دائماً مثل التلاقح الحضارى، وهذا سنلاحظه من خلال الشخصيات الأساسية التى ستملأ مشاهد وحكايات تلك الأفلام، من كافاريللى فى «وداعاً يا بونابرت» إلى رام فى «المهاجر» وصولا طبعاً إلى شيخ المثقفين فى سينما شاهين: ابن رشد الذى سيكون بالنسبة إليه فى فيلم «المصير» الرد الطبيعى على مثقفى «الأرض» و«العصفور» و«الاختيار» و«عودة الابن الضال»، والذى سيوصله إلى ذروة المصالحة مع شخصية المثقف ودوره، وسنعرف لماذا، حين نقترب بالتحديد من «المصير».

«وداعاً يابونابرت»

الآخـــر آخـــران..

اثنتان وعشرون سنة هى الزمن الذى يفصل بين «الناصر صلاح الدين» و«وداعا يا بونابرت». وهى سنوات شهدت تغيرات جذرية فى مصر والعالم العربى والعالم، وكذلك فى حياة يوسف شاهين ومساره الفنى. وبالنسبة إلى هذا المسار الأخير، كانت تلك السنوات هى التى شهدت تحقيقه لأهم أعماله بدءاً بتحفته «الأرض» وصولاً إلى بدء ثلاثية الذات كما جاء معنا، وعلى رغم أن الاستقبال العربى العام الذى كان من نصيب «الناصر صلاح الدين» تبدى أفضل ألف مرة وأرحم ألف مرة من الاستقبال الذى سيكون من نصيب أول أعماله التاريخية الجديدة «وداعا يا بونابرت»، فإن ما لابد لنا من قوله هنا هو أن مكتسبات كل تلك السنين على المستوى الفنى كما على مستوى الوعى، تلوح مباشرة عند المقارنة بين الفيلمين، وعلى ضوء هذا يبدو فى يقيننا أن فشل «وداعا يابونابرت» لدى المتفرجين العرب، إنما نتج عن سوء فهم واضح. فالمتفرج العربى كعادته، وهو الغارق فى الأيديولوجيا حتى أذنيه، كان يريد من شاهين، إذ يقدم مرة أخرى على رسم صورة علاقة «النحن» بالأخر فى فيلم يطاول حملة بونابرت على مصر، وهى إحدى المسائل الأكثر إثارة للجدل فى تاريخ الفكر العربى الحديث، كان يريد منه أن يهاجم الحملة دون هوادة وأيضاً من منطلق إزدواجية الأسود والأبيض: «نحن» دائماً على حق، ومظلومون و«الآخر» دائماً على خطأ وظالم. وفى هذا الإطار من الواضح أن المتفرج العربى لكى لا نقول أيضاً: النخبة العربية. لا يريد أن يرى أية ديالكتيكية فى العلاقة بين الأنا والآخر. واللافت هنا أن النخب العربية الحديثة والجمهور نصف الواعى من ورائها يبدوان متخلفين عن النخبة العربية أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، التى من دون أن تفوتها تطلعات بونابرت الاستعمارية فى حملته أدركت، على خطى الجبرتى والعديد من المتنورين المصريين الذين عايشوا زمن الحملة، رأت المكاسب النهضوية التى تحققت للفكر العربى وللحداثة العربية، ليس بفضل الجانب العسكرى من الحملة، بل تحديداً بفضل جانبها الأهم. بالنسبة إلى تلك النخبة «: الجانب العلمى. وهذه الجدلية لم يكن لسينمالى واعٍ. وربما مشاكس. مثل يوسف شاهين ان يرفض رؤيتها، بل كانت همه الذى أملى عليه الاندفاع لتحقيق هذا الفيلم.

والحال أن الصراع الرئيسى فى «وداعا يا بونابرت» ليس الصراع بين الفرنسيين والمصريين ثم العرب، حتّى وإن كان هذا الصراع حقيقياً وأسفر عن ضحايا ثم عن هزيمة بونابرت. الصراع الرئيسى لدى شاهين هو بين بونابرت وبين فرنسى آخر هو كافاريللى، أحد العلماء الذين

رافقوا الجنرال الشاب الطموح فى حملته، ولنتذكر هنا أن بونابرت (الذى قام بدوره بكل براعته الفرنسى باتريس شيرو) لا يظهر فى الفيلم إلا لماماً، وهو فى كل مرة يظهر فيها يتبدى لنا عرضة للسخرية ولا سيما من قبل كافاريللى، الذى تروى أحداث فيلم شاهين من منظوره دون أدنى لبس أو غموض ولنلاحظ أن شاهين يدخلنا هذه الجدلية منذ يتلفظ بونابرت بعبارته الشهيرة المتعلقة بالأربعة آلاف سنة التى تنظر إلى وجود الفرنسيين فى مصر من أعلى الأهرامات. إن شاهين يدخل لعبته منذ تلك اللحظة. إذ ما إن ينتهى الجنرال من عبارته المأثورة التى يصورها شاهين ليلاً ومن بعيد، حتى يبتسم كافاريللى (ميشال بيكولى) ساخراً ويتمتم بما معناه: «ها هو هذا الأحمق عاد إلى أسطوانته مجدداً».

منذ تلك اللحظة إذن يموضع شاهين فيلمه فى سياق فكره هو، لا فى سياق الحدث التاريخى نفسه، ويقول لنا بكل وضوح إن هذا الحدث التاريخى لا يهمه بأية حال من الأحوال، ما يهمه هو ما جاء كافاريللى ليفعله فى هذه البلاد، لا ما جاء من أجله بونابرت.

ما جاء من أجله بونابرت يمكن التعرف عليه فى كتب التاريخ.

أما كافاريللى فهو ما يهم سينما شاهين. لماذا؟ ربما لأن كافاريللى يمثل جانبا من شخصية شاهين فهو بساقه المقطوعة ومحاولته الاندماج فى حياة المصريين (ولو عن طريق إقامة علاقة غرامية بالفتى يحيى ثم بأخيه على) إنما يرهص بشخصية رام فى «المهاجر» وبشخصية جوزف ابن جيرار بروى فى «المصير». غير أن شاهين لا يفوته هنا أيضاً أن يلقى باللائمة على كافاريللى. ولعله هنا يقارب النقد الذاتى فى شكل من الأشكال. وفى هذا الإطار تكون مهمة تلك العبارات التى يلقيها على، بعد موت أخيه يحيى وفيما يكون كافاريللى على فراش الموت، آخذا على هذا الأخير أنه إذ جاء ليعلم ويتعلم اقتصر دوره على أن يعلم، ولم يتعلم حتى ولا لغة القوم الذين أتى ليحبهم ويعيش بينهم. إن شاهين يبدو هنا قريباً جداً من منطق كان عالم الأنثروبولوجيا الفرنسى كلودليفى ستراوس عبر عنه فى واحد من أهم كتبه «حكاية اللنكس» إذ تحدث عن استقبال الهنود الحمر لكريستوف كولومبوس حين اكتشف هذا الأخير القارة الأمريكية، كان الاستقبال حفلاً صاخباً لكن الأوروبى الأبيض لم يفهم كنه ذلك الترحيب بل ذبح مستقبليه مفوتاً على الغرب واحدة من تلك الفرص التى أبدع دائماً فى تفويتها.

كافاريللى كذلك لم يلتقطها، حتى وإن لم يكن على السوء الذى كان عليه كولومبوس، أو بونابرت، ومن هنا على رغم أن شاهين يرسم شخصية هذا العالم رسماً إيجابياً، فإنه لا يعفيه من الملامة هو الآخر، وعلى لسان على، الذى، هو، تعلم الكثير من كافاريللى وأحبه بصدق.

واضح أن شاهين آثر فى هذا الفيلم المشغول بحرفية تقنية عالية أن يترك العام التاريخى الكبير ليغوص فى الخاص مواصلاً البحث عن أجوبة لأسئلة لا تكفّ عن إقلاقه منذ زمن بعيد، ولأن ما يقدمه شاهين هنا أسئلة لا أجوبة، نعود مرة أخرى لنقول أننا حتى ولو لمحناه، أى شاهين، من خلال شفافية شخصية كافاريللى، فإنه أيضاً حاضر من خلال شخصيتى يحيى وعلى.

هنا قد يكون السؤال مشروعاً حول أحقية الفنان فى أن يبدل التاريخ لمآربه الخاصة وان ينفق الملايين على فيلم «خداع» فى نهاية الأمر؟ ولكن مع يوسف شاهين ينعدم هذا النوع من الأسئلة، لان الرجل يرى أصلا أن هذا هو الدور الأساسى والحقيقى للسينما. والسينما كما يفهمها هو، إبداع فنى ينطلق من ذات الفنان ليصب فى الحياة، لا فى الواقع. ليس صدق الأحداث، ما يعنى شاهين هنا، ما يعنيه هو تفسير هذه الأحداث وقدرتها على أن توفر للمبدع/ الفن بوصفه سلاح الفنان الوحيد ونافذته على العالم، ولأن السينما الحقيقية/ الفن الحقيقى هى سينما الأسئلة والقلق ولأن يوسف شاهين هو واحد من الفنانين الأكثر قلقاً فى تاريخ فنوننا العربية كان من الطبيعى له أن يجد ضالته من خلال حكاية الحملة البونابرتية، حاصلاً على التمويل حتى من الفرنسيين الذين أبداً لم يطالبوه بأن يكون رفيقاً مع بطلهم القومى المزيف ذاك. هم أنفسهم لم يكونوا رفيقين مع نابليون على الإطلاق.

والحال أننا إن لم نضع هذه الفرضيات فى ذهننا ونحن نتفرج على «وداعاً يا بونابرت»، سنبقى عند مستوى سوء التفاهم فى تعاملنا مع هذا الفيلم، بل سنعجز حتى عن فهم فيلمى شاهين التاريخيين الآخرين اللذين حققهما خلال السنوات التالية لتحقيق «وداعا يا بونابرت» وهما «المهاجر» و«المصير». وإذا لم ندرك أن شاهين مثل كل حرفى ماهر، يمكنه أن يصنع أى شىء من أى شىء ولا يتورع عن إعادة تركيب التاريخ على هواه، دون أن يزيف فى مجرياته الرئيسية بالطبع. لن نتمكن أبداً من فهم تلك الزاوية الأخرى التى جعلت «المهاجر» ممكنا وجعلته هو الآخر فيلما عن «سيرة شاهين الذاتية» حتى وإن دارت أحداثه فى زمن الفراعنة.



لأن يوسف شاهين هو واحد من الفنانين الأكثر قلقاً فى تاريخ فنوننا العربية كان من الطبيعى له أن يجد ضالته من خلال حكاية الحملة البونابرتية، حاصلا على التمويل حتى من الفرنسيين الذين أبداً لم يطالبوه بأن يكون رفيقا مع بطلهم القومى المزيف ذاك (نابليون)

«المهاجر» أطلب العلم ولو فى أرض الفراعنة:

منذ زمن بعيد جداً كان يوسف شاهين يحلم بتحقيق فيلم عن زمن الفراعنة. ولعل مشاهدته عدداً من الأفلام التى كانت تكثر فى هوليوود، وربما فى بعض أوروبا أيضا، متحدثة عن ذلك الزمن ببهائه وانتفاضة الإنسان فيه ممسكاً مصيره للمرة الأولى فى تاريخ البشرية، كان هو ما حركه. ولكن كان من الواضح، بالنسبة إلى شاهين منذ البداية، أنه ليس ممن يحققون فيلماً عن ذلك الزمن يكتفى بأن يكون ذا بعد تاريخى فيلمه العتيد عن «الفراعنة» لا يمكنه إلا أن يكون معاصراً بل اكثر من هذا لا يمكنه إلا أن يكون ذاتياً.

فى هذا الإطار، لأن السينما - نقولها مرة أخرى وسنكررها دائماً - ليست مجرد بحث نظرى يتعين عليه أن يكون درامياً، وجد شاهين ضالته فى حكاية توراتية تبنتها لاحقًا الأديان السماوية جميعاً، هى حكاية يوسف الذى غدر به إخوته وخيل إليهم أنهم تخلصوا منه بقتله، فإذا به يجد نفسه فى أرض الفراعنة ويكون له شأن هناك.

منذ البداية كان شاهين يعرف أن ليس فى إمكانه - وهو لا يريد ذلك أصلاً - أن يجعل من فيلمه تصويراً لحكاية يوسف، لم يكن هذا همه، كان همه أن يستمد من الحكاية الدينية عناصرها وأن يجعل من بطله - الذى هو صورته الذاتية - شبيهاً بيوسف، يعانى معاناته، ولكن لأهداف أخرى ترتبط بأهداف شاهين نفسه. ونعرف أن هذه الفوارق الجوهرية بين الشخصيتين - على رغم تشابه الاحداث - فاتت كل أولئك الذين لاحقوا شاهين بالتهديد وبالقضاء لكى يمنعوا عرض الفيلم حين أنجز، ليركزوا فقط على التشابه بين الشخصيتين ما خلق سوء تفاهم جديداً لم يكن شاهين فى حاجة إليه. ولكن إذا كان هذا انعكس سلباً، فإنه سرعان ما انعكس إيجاباً على الفيلم حيث إنه بفعل الضجة المفتعلة التى أثيرت من حوله، باتهامه بتصوير شخصية دينية تاريخية لا يجوز تصويرها، تدفق المتفرجون بمئات الآلاف فى مصر وفى غيرها، لمشاهدة الفيلم، ما جعله أنجح أفلام شاهين على الإطلاق.

والحقيقة أن كثيرا من الذين كانوا يشاهدون فيلماً لشاهين على الشاشة الكبيرة للمرة

الأولى فى حياتهم لم يندموا على ذلك أبداً، ذلك أن هذا الفيلم يظل «الأجمل» و«الأغنى» فنياً من بين أفلام شاهين كلها، فإلى غنى الصورة (رمسيس مرزوق) ومتانة اللغة السينمائية والتوزيع الموسيقى والملابس والمونتاج التى فاقت كلها كل ما كان قدمه شاهين سابقاً (حتى قيل أن جمالية الفيلم طغت حتى على موضوعه، لكن هذه حكاية أخرى)، يمكن أن نضيف أن تعاون رفيق الصبان وخالد يوسف مع شاهين فى كتابة السيناريو، قفز مرة واحدة بمفهوم الوضوح إلى المواجهة ليسير الفيلم فى بعد خطى لا تلعثم فيه، بل إنه أتى فى نهاية الأمر فيلما بسيطا متمكناً من موضوعه، متيناً فى تعامله مع ممثليه مستفيداً إلى أقصى الحدود من الديكورات الجميلة.

ويقينا أن هذا كله ما كان من شأنه أن يرضى الشاهينيين الخالصين (وكاتب هذه السطور واحد منهم)، لذا لم ينل شكل الفيلم حظوة كبيرة لديهم لدى مشاهدتهم له للمرة الأولى، لكنهم سرعان ما أدركوا أن «المهاجر» واحد من أفلام الشاهينية التى تكشف عمقها بالتدريج كما تكشف شاهينيتها بعد حين. ذلك أن طابع «البطاقات البريدية» الذى يبدو للوهلة الأولى مسيطراً على الفيلم، والعلاقات «الخطية» بين الشخصيات (خصوصاً ان مآل تلك العلاقات لا يحمل مفاجآت بل يكاد يكون معروفاً سلفاً) وبعض الافتعال الذى يلوح فى اللجوء إلى استعراضات صاخبة الموسيقى، كل هذا سرعان ما يخلى المكان للبعد الأكثر الأهمية، بعد المعاصرة الخالصة فى هذا الفيلم.

فالمهاجر، بعد كل شىء وربما قبل كل شىء، فيلم معاصراذ تماماً كما أن رام فيه، المتوجه فى أرض القحل إلى مصر، هو شاهين (المتوجه من أجل بلاده إلى بلاد الحضارة) ها هى العناصر الأخرى فى الموضوع والحبكة تحيلنا مباشرة إلى زمننا الراهن: الصراع الدينى بين الأفكار الجديدة (يمثلها أخناتون)، مقابل الأفكار القديمة (يمثلها أمون وكهنته)، دور الثقافة والعلم فى بناء المجتمعات، وفى هذا الإطار لم يكن بعيداً عن الصواب ذلك الناقد الفرنسى (فنسان فاتريكان) الذى قال إن فيلم «المهاجر» هو أولاً وأخيراً فيلم عن التعلم، إذ مهما كان من شأن الأحداث التى عاشها رام وخبرها فإن الأساس هو اكتسابه للعلم والمعرفة ويقينه من أنه سيكون فى وسعه إفادة شعبه بواسطتهما.

منذ البداية فى «المهاجر» يقول لنا شاهين كما أن رام لديه يشبه يوسف فى الحكاية التوراتية، وهذا التحدد يرمى إلى أمرين فى آن معاً: من ناحية إلى استبعاد فكرة أن يكون رام هو يوسف



بفعل الضجة المفتعلة التى أثيرت من حول يوسف شاهين، باتهامه بتصوير شخصية دينية تاريخية لا يجوز تصويرها، تدفق المتفرجون بمئات الآلاف فى مصر وفى غيرها، لمشاهدة «المهاجر»، ما جعله أنجح أفلام شاهين على الإطلاق

نفسه (ولسوف يؤكد جزء أساسى من أحداث حياة رام هذا) ومن ناحية ثانية إلى جعلنا ننسى تاريخية الشخصية لندرك أن ما يقدمه لنا الفيلم إنما هو «أمثولة»، لا أكثر ولا أقل.

المهم هنا هو أن رام أصلاً، لا يذهب إلى أرض النور، مصر الفراعنة، من تلقائه، بل لأن إخوته قد غدروا به، وهو بعد ذلك إذ يجد نفسه فى قاع سفينة، يجد أن السفينة تأخذه إلى مصر، وهناك يباع كعبد إلى القائد العسكرى المحبوب والطالع من صفوف الشعب باجتهاده، أميهار، ولأميهار هذا زوجة حسناء هى سميهت التى تغرم برام بعد وفاء لزوجها دام عشر سنوات راحت بعدها تتطلع إلى حب جديد فى حياتها يعوضها عن عجز زوجها وإهماله لها. لكن رام على رغم الإغراءات كلها وعلى رغم فتنة سميهت، ليس هنا كى يعشق امرأة سيده، وهكذا يدور صراع بينه وبينها يراقبه أميهار بقلق أولاً ثم بفضول بعد ذلك. وعلى خلفية هذه «الدراما العائلية»، إن جاز القول، تدور الأحداث الكبرى فى الفيلم، حيث من جديد وكما فى «وداعاً بونابرت» يقيم شاهين العلاقة الجدلية بمهارة وإتقان بين الخاص والعام، ويفضل كما شأنه دائماً أن يرجح كفة الخاص جاعلاً العام لا يبرز إلا من خلال كوة الخاص ومنظوره. والعام هنا هو الصراع الدينى وفساد الطبقة الحاكمة، وتوق الشعب إلى الثورة، ودور العسكر، ثم الجفاف الذى يضرب البلد فى خضم ذلك كله. وأيضاً هناك «الغريب» الذى إذ كان يعامل فى البداية تعاملاً عنصرياً، سرعان ما يضيف إلى المجتمع الذى يعيش فيه علمه وذكاءه، ما يجعل التفاعل حقيقة ويجعل «الآخر» ضرورياً للذات. وهذا الجانب قدمه لنا شاهين من خلال العلاقة الغرامية والودية التى تقوم بين رام وهاتى ثم من خلال تعاونه معها ومع أهلها وجماعتها لمقاومة الجفاف.

ذلك أن شاهين فى لحظة من لحظات فيلمه يحول «المتعلم»، الآتى هنا سعياً وراء المعرفة والنور، «معلماً» بدوره ينشرهما فى هذه الديار التى يعيش فيها ويتزامن هذا مع تغلب رام على رغباته تجاه سميهت وتعلقه اكثر وأكثر بهاتى.

وفى هذا الإطار بالتحديد يبدو الفيلم أخلاقياً وعظياً إلى حد ما، وبشكل مفاجئ، ذلك إننا نادراً ما سبق لنا أن طالعنا فى فيلم لشاهين مثل هذا القدر من الوعظ الأخلاقى، وتقريظ من يسير على الصراط المستقيم.

هل معنى هذا أن شاهين كان قد أصبح أكثر تعقلاً وامتثالية من ذى قبل؟

إن اخلاقيات فيلمه التالى «المصير» ستوصلنا إلى مثل هذا الاستنتاج، ولكن أفلا يمكننا يا ترى على ضوء هذه الوعظية التى قد تلوح هنا جديدة أن نعيد قراءة العدد الأكبر من أفلام شاهين السابقة لنكشف أنه «بين السطور» أى فى أعماق خطابات أفلامه، لم يكن أبداً ذلك «المشاكس الأخلاقى» الذى يوحى بكونه ظاهر تلك الأفلام؟

وفى وسط هذا كله كان شاهين يعرف أنه سينمائى. فنان أولاً وأخيراً. وأن وظيفة الفنان أن يروى يحكى يصور، ولا ينسى ولو للحظة واحدة «لذة الحكى» ومن هنا عبر فى هذا الفيلم الغريب والعميق فى آن معاً عن ايمانه بتلك اللذة، فقدم حكاية جذابة. قدم أفكاره كلها من خلال عمل استعراضى كبير، يشبه فى شكله الخارجى الافلام التاريخية الهوليوودية الضخمة، لكنه يشبه فى شكله الداخلى تلك الافلام الحميمة. وهذا كله جعل الفيلم أشبه بلعبة الدمى الروسية، حيث تخبىء كل دمية دمية أخرى أصغر منها تحتها.

غير أن الذين ارتأوا أن عليهم أن يحاربوا هذا الفيلم لأسباب دينية كما قالوا، لم يروا منه سوى واحدة من دمياته، بل لربما رأوا الدمية الأقل أهمية، غاضين نظرهم عن كل المزايا الأخرى التى يحملها فيلم عرف بدوره كيف يساهم فى إخراج السينما المصرية إلى العالم وكيف يستعيد، من السينما العالمية لحساب مصر، مواضيع السينما الفرعونية إنما بجمال أوضح وذكاء أكبر، ثم خاصة وأخيراً كيف يجد مكاناً لتطبيق حديث شريف يقول «اطلبوا العلم ولو فى الصين».

وفى هذا الإطار لم يكن اختيار شاهين ليجعل من فيلمه عملاً عن جزء من مسيرة الفيلسوف العربى الأندلسى، من قبيل الصدفة وسنقول فى الصفحات التالية لماذا. أما هنا فعلينا أن نطلب من القارىء أن يضع وهو يشاهد «المصير» أو يقرأ عنه، كل محمول فيلمى شاهين «وداعاً يا بونابرت» و«المهاجر» نصب عينيه، لأنه من الصعب قراءة «المصير» خارج إطار علاقته بهذين الفيلمين.

«المصير»: ابن رشد.

شاهين، وراهنية حياتنا

من المؤكد أن الذين قصدوا فيلم «المصير» ليشاهدوه أملاً فى أن يتعرفوا من خلاله على حياة فيلسوف قرطبة الأندلسى الكبير، ابن رشد، ظلوا على ظمئهم، هم الذين قبل عرض الفيلم بأشهر، كانت الصحافة قد أمطرتهم بأخبار عن الفيلم تؤكد أنه يروى حياة صاحب «تهافت التهافت»، اما الذين شاهدوا «المصير» حين كانت عروضه الأولى خلال الدورة الخمسين لمهرجان

كان السينمائى، فإنهم أدركوا بسرعة أنه «عمل شاهينى جديد» ينخرط فى المسار المتنوع والمعقد لفن شاهين وهم وجدوا فى الفيلم ما أرضاهم وأشعرهم أن الساعتين اللتين أمضوهما أمام شاشة الفيلم وشاشة شاهين لم تضيعا هباء.

ذلك أنهم أدركوا منذ البداية أن «المصير» ليس بالتمام عن حياة ابن رشد، بل يكاد يكون فيلما عن يوسف شاهين، وتبين لهم أن البيئة الحقيقية للفيلم ليست بالتمام أندلس القرن الثانى عشر بل هى مصر وربما العالم العربى كله فى القرن العشرين، أو عند اللحظة الانعطافية بين القرن العشرين وما يليه. والحقيقة أنه نادراً ما تمكن فيلم عربى قبل «المصير» من أن يتأرجح بين الماضى والحاضر كما فعل «المصير»، ونادراً ما تمكن فنان قبل شاهين، من أن يقيم ربطاً بين العام والخاص كما فعل شاهين فى هذا العمل.

إذ حتى لو كان مارس هذا التأرجح بقوة ونجاح فى كل أفلامه التاريخية التى تحدثنا عنها أعلاه، فإنه هنا، ونقولها من دون تردد، وصل إلى ذروة عمله وخلاصته بحيث إننا لو بحثنا بدقة عن مراجع مشهدية وموضوعية تربط بها اللحظات الأساسية فى «المصير» لن نعثر على هذه المراجع إلا داخل متن السينما الشاهينية كما كانت صنعت طوال نصف القرن الذى مر منذ بدأ شاهين عمله فى الفن السابع.

ومع هذا فإن ما نراه على الشاشة هو ابن رشد وقرطبة والخليفة المنصور وبضع شخصيات، عربية وأسبانية وغير ذلك، تضعنا منذ لحظات الفيلم الأولى فى قلب القرن الثانى عشر بزهوه وقسوته بآلامه وتناقضاته، القرن الذى يعبر شاهين عن نظرته إليه وإلى ازدهار التاريخ العلمى العربى فيه بكل بساطة ومباشرة. فمن ناحية لدينا هنا عند بداية الفيلم، مفكر فرنسى يدعى جيرار بروى يحرق بأمر من السلطات المدنية والكنسية فى إقليم اللانغدوك الفرنسى، تحديداً لأنه متأثر بمؤلفات «الكافر» ابن رشد ويؤلف على منوالها. وبروى يحرق مع كتبه ومع مؤلفات ابن رشد فى الوقت الذى يقرر فيه ابنه جوزيف (يوسف) أن يتوجه إلى مدينة قرطبة الأندلسية ليتابع رسالة والده الفكرية ويتتلمذ هو الآخر على صاحب «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال»، وهكذا يتيح لنا انتقال يوسف من اللانغدوك إلى قرطبة مقارنة يقيمها شاهين بين «عصر الظلمات» الأوروبى وعصر التنوير العلمى العربى فى الأندلس. حيث أن مرور يوسف فى سوق قرطبة، سيضعه (ويضعنا) على تماس مباشر مع حضارة تشترى فيها كتب الفكر فى الساحات العامة، ويتنافس فيها طلاب العلم الفقراء على شراء الكتب والمخطوطات مع الخليفة وكبار أعيان المدينة.

وعندما ينضم يوسف إلى حلقة الاصدقاء والاهل المحيطة بابن رشد ويقوم بالدور (نور الشريف)، تكون النقلة تمت، وترسم أمامنا على الفور صورة العلاقة بين المثقف والمدينة، ومن ثم بينه وبين سلطة المدينة فى أندلس الموحدين، وهذه العلاقة سرعان ما تقودنا، بالطبع، إلى علاقة ابن رشد المباشرة بالخليفة المنصور (يلعب الدور محمود حميدة) لنكتشف مدى التداخل بين الفيلسوف والحاكم، ونمط العلاقات (حتى العائلية!!) التى تربط بينهما.

ولئن كان الفيلم، حتى هذه اللحظة، قد حرص على أن يضعنا فى قلب ما يشبه الحقائق التاريخية، فإنه من الآن وصاعداً سيخلط بين التاريخ وزمننا الراهن لينقل الينا رسالته الأساسية، إذ، هنا، مرة أخرى، من الواضح أن درس التاريخ ليس ما يهم يوسف شاهين. مرة أخرى ليس التاريخ بالنسبة إليه أكثر من ذريعة أما الرحلة المكوكية بين الماضى والحاضر (الماضى المصور فى الحاضر والذى يصل الينا نحن المتفرجين) فستشتغل، بشكل أساسى، عن طريق اللغة. إذ، هنا لن يبدو من البراءة بمكان أن يكون شاهين ومشاركه فى كتابة السيناريو وأيضاً الإخراج إلى حد ما، خالد يوسف قد اختار العامية المصرية من جديد، أداة التعبير فى الفيلم، إذ كان فى وسعهما أن يختارا عربية فصحى بعض الشىء، للوهلة الأولى لاختيار حل تقنى بحت، ولكن نظرة معمقة إلى «الخطاب الخفى» للفيلم بعد ذلك، ستكشف لنا الدور الرئيسى الذى كان يتعين على لغة الفيلم المنطوقة أن تلعبه، إذ أننا لو أغمضنا أعيننا واستمعنا إلى الحوار سنفاجىء أنفسنا وقد دخلنا زمن الراهن مباشرة، وأكثر من هذا ها هو شاهين، ومباشرة بعد محاولة قتل الشاعر مروان (يلعب دوره المغنى محمد منير) يجعل محاولة، قتله الشاب المتطرف، يتلفظ أمام ابن رشد الماضى فى قاعة المحكمة، بالعبارات نفسها، تقريباً التى تلفظ بها فى تسعينيات القرن العشرين فى مصر ذلك المتطرف الذى حاول قتل نجيب محفوظ (شاعر الزمن العربى الحديث).

ترى ألا يقف يوسف شاهين، هنا، مرة أخرى، فى قلب الراهن الملتهب، ويحدث ذلك التنقل بين ما يرويه لنا التاريخ،



أدركوا منذ البداية أن «المصير» ليس بالتمام عن حياة ابن رشد، بل يكاد يكون فيلما عن يوسف شاهين، وتبين لهم أن البيئة الحقيقية للفيلم ليست بالتمام أندلس القرن الثانى عشر بل هى مصر وربما العالم العربى كله فى القرن العشرين، أو عند اللحظة الانعطافية بين القرن العشرين وما يليه

وبين ما نعيشه زمن تصوير الفيلـ وعرضه؟

للوصول إلى هذا، من الواضح أ يوسف شاهين وخالد يوسف قد أعاد اختراع ابن رشد من جديد وسهل عليهم هذا كونهما يتعاملان مع عمل فنو وليس مع درس تاريخى أكاديمى، تمام كما سبق لشاهين أن فعل فى أفلام سابق تنطلق من التاريخ من دون أن تصب فو بالطبع.

ومن هنا سيكون من العبث أن نبحث فى كتب التاريخ عن سيرة لابن رشـ وتفاصيل عن حياته العائلية، تشبه م شاهدناه فى الفيلم. فالفيلم جعل لابـ رشد ابنة يريد ابن الخليفة الاقتران بها وجعل للخليفة المنصور ابنين هما عبدالل والناصر وأقام صراعاً بين الابنيـ (والصراع بين الشقيقين يكاد يمثل موضوعة دائمة الحضور لدى يوسف شاهين فى العديد من افلامه راجع «عود الابن الضال» و«الاختيار» بين أعمال أخرى). ثم صور شخصية الغجري مانويلا، زوجة الشاعر المغنى مروا (وقامت بالدور ليلى علوى التى تصل هذ إلى ذروة تألقها على رغم قصر دورها فو الفيلم) واخترع شخصية العالم الفرنسو جيرار بروى وأتى بابنه يوسف من فرنسـ ليضمه إلى أسرة ابن رشد.

وكل هذا جعلنا، فى الواقع، نشعر أنن لا نعيش فى قرطبة الأندلس فى القرن الثانى عشر بل فى «اسكندرية يوسف شاهين»، فى مصر أربعينيات القرن العشرين حيث كان التعايش ممكناً بين الطوائف والأفكار، وفى هذا السياق لك تبدو العلاقات بين أفراد أسرة ابن رشد وبينهم وبين أصدقائهم شبيهة بالعلاقات بين أفراد أسرة يحيى، يوسف شاهين فو «الاسكندرية ليه» حيث يلعب محمو المليجى (الذى يكاد يكون والد شاهين دوراً يشبه دور ابن رشد ولكم يبدو الصرا بين عبد الله والناصر ابنى الخليف شبيهاً بالصراع بين الأخوين فى «عود الابن الضال». والحال أننا لو شئنا البحث هنا عن تشبيهات فى هذا النوع، لن نتوقف أبداً. فالفيلم كما أشرنا، وكما هو الأمر بالنسبة إلى معظم أفلام شاهين هو أشبه بخلاصة لعمل شاهين ككل وبعد هذا لن يعود مهما أن نعثر على وجود تشابه بين المنطق العام لـ«المصير» وبين منطق فيلم «اسم الوردة» (الذى اقتبسه جان جاك أنو قبل «المصير» بسنوات من رواية امبرتو ايكو المعروف بالاسم نفسه) علماً بأن «اسم الوردة» هو أول مرجع سينمائى قد يخطر على البال لدى مشاهدة «المصير» حيث إن «التيمات المشتركة بين الفيلمين عدة أبرزها حضور أرسطو

الطاغى وصراع رجل الدين ضد رجل العلم حيث مجابهة الدين كفعل ثورى عقلانى متنور بصورة للدين يمثلها رجال دين يهمهم أول ما يهمهم الوصول إلى سلطة ما. ومن ناحية ثانية لن يعود مهما أن يذكرنا واحد من أجمل مقاطع «المصير» بواحد من أقوى مقاطع فيلم «فهرنهايت ٤٥١» لفرانسوا تروفو (عن رواية بالاسم نفسه للامريكى راى برادبورى) ففى الحالتين لدينا محاولة يقوم بها متنورون لإنقاذ الكتاب من طغيان السلطان ومن عملية إحراق الكتب. انطلاقا من فكرة تقول إن للكتب والافكار أجنحة تطير فى الهواء لتحط حيثما تشاء (وهذه هى على أية حال العبارة التى يختتم بها شاهين فيلمه).

لكن هذا كله يبقى على أية حال، على صعيد الاحتمالات فى هذا الفيلم الفذ. فى هذا الفيلم الذى يريد فيه يوسف شاهين، على عادته فى أفلامه منذ السبعينيات، أن يقول أشياء كثيرة ومتشابكة وأحيانا متناقضة فى مظهرها وها هو ينجح فى هذا، فى «المصير» وربما بشكل أفضل مما نجح به فى أى فيلم سابق. فمن دور المثقف فى المجتمع إلى علاقة المثقف بالسلطة، إلى الحديث عن منطق الدولة الذى قد يملى على الحاكم مواقف تتناقض مع طبيعته المعلنة، إلى عزلة الحاكم فى لحظة القرارات الخطيرة، وجنون العظمة لديه، إلى عزلة المثقف ولحظات شكه القاتلة، وصولاً إلى بعض الفرضيات الممكنة من حول لعبة التطرف التى ترتدى قناع الدين، وهى ليست فى حقيقة أمرها سوى جزء من الصراع على السلطة يتجول شاهين فى أفلامه.

وهو للوصول إلى التعبير عن هذا كله، بنى بالتعاون مع خالد يوسف، سيناريو محكما. قد لا نحبذ فيه استعراضية عمل جماعات المتطرفين ولا تبسيطية الطريقة التى يتمكن مروان بها من السيطرة على خصومه، ولا حتى النهاية التى يحرق فيها نور الشريف كتابه الاخير، إذ إن هذه النهاية أتت، بشكل خاص، من أضعف ما فى الفيلم، وأتى ضعفها مثلا، متناقضاً مع مشهد البداية الذى ينتمى، لغة ومضمونها وحركة كاميرا إلى أرقى ما أمكن شاهين أن يحققه على مدار تاريخه السينمائى. وأكثر من هذا قد لا نحبذ الحالة العائلية الأليفة التى طبعت شخصية ابن رشد (وهنا يبدو واضحاً مدى الطابع الإنسانى الذى شاء شاهين إسباغه على بطله ليقول إن الفيلسوف هو فى النهاية إنسان من لحم ودم، قد يختلف



هذه النهاية أتت، بشكل خاص، من أضعف ما فى الفيلم، وأتى ضعفها مثلا، متناقضاً مع مشهد البداية الذى ينتمى، لغة ومضمونًا وحركة كاميرا إلى أرقى ما أمكن شاهين أن يحققه على مدار تاريخه السينمائى

مع زوجته وقد يخشى غضب ابنته). لكننا فى المقابل نحب تلك المشاهد القوية (التى قد تذكرنا فى قوتها بمشاهد حوارات هنرى الخامس والسير توماس مور فى «رجل لكل العصور» مثلاً) التى يدور فيها الحوار بين الخليفة المنصور وابن رشد مرة من حول طاولة الشطرنج، ومرة حين يبدأ ابن رشد صراعه الخفى مع الخليفة فى مشهد وصلت فيه الصورة (كضوء وظل) وحركة الممثلين والكاميرا إلى مستوى مميز.

من التصوير المتميز، إلى التوليف الذى وظف كل لقطة وكل مشهد توظيفاً دلالياً مبعداً إياه، فى لحظات كثيرة عن الجماليات المجانية إلى اختيار الديكورات الطبيعية حيث لعبت مناطق وقصور وقلاع فى سورية ولبنان دور الأندلس ببراعة، إلى الملابس والاكسسوارات التى نقلتنا بالفعل مئات السنين إلى الوراء من دون أن يخرج أى منها عن وظائفته، وصولا إلى موسيقى كمال الطويل وغناء محمد نوح، تمكن شاهين هنا من ان يقدم عملاً استثنائياً وضعه مرة اخرى فى قمة السينما العربية، وفى مكانة لا بأس بها بين كلاسيكى السينما العالمية.

لكن شاهين تمكن فى الوقت نفسه من أن يواصل لعبة تصفية الحسابات والمراجعات التى كان قد بدأ يتقنها ويغوص فيها منذ زمن، تمكن هنا أيضاً من أن يجعل فيلمه شاهينياً، أى خاصاً بامتياز.

فى «المصير» أمسك شاهين موضوعه بقوة وصفى من خلاله حسابه. على طريقته. مع تلك القوى التى كان حاكمت «المهاجر» محاولة أن تسىء إليه من خلاله. قوى يبدو شاهين واثقا من أن غايتها الكبرى تتمثل فى القضاء على الفن والفكر وحريتهما، وبالتالى القضاء على مصر وما تمثل (المتآمرون فى «المصير» يصلون إلى حد التواطؤ مع الأسبان ضد عروبة الأندلس، وهذه «الاشارة» المعاصرة جداً لا يمكن أن تغيب عن بال متفرجى «المصير» لأنها تتسم بالراهنية الحارقة) غير أن المهم من هذا، هنا، هو تلك المصالحة التاريخية التى يوصلها شاهين إلى ذروتها بعدما كان بدأها منذ «بونابرت»، مع المثقف ودوره فى المجمع فإذا كنا رأينا فى مقاطع سابقة كيف أن شاهين وخلال مرحلة طويلة من مساره المهنى، لم يتوقف عن توجيه أصبع الإدانة إلى المثقفين (من بائع الجرائد فى «باب الحديد»، إلى الأخ المثقف فى «عودة الابن الضال» والكاتب الانتهازى فى «الاختيار» إلى الشيخ حسونة فى «الأرض» وغيره، حيث كان المثقف، على الدوام مداناً لديه بتهمة التخلى عن رسالته وعن الفكر المتقدم الذى كان يحمله واقنع الاخرين به)، ها هو هذه المرة يقف فى صف المثقف بكل قوة ومن دون أى التباس، موصلاً هذا الموقف إلى ذروته بعدما مهد له فى الفيلمين السابقين. بل إن الوقوف فى صف المثقف والتنوير هو الفعل الأساسى فى هذا الفيلم، المثقف تحت سمات جيرار بروى فى فرنسا العصور الوسطى وفى صورة ابن رشد وشاعره مروان الأندلسى. فهل هذا لأن علاقة المثقف بزمنه ومجتمعه كانت قد تغيرت خلال تلك السنوات ام لأن يوسف شاهين أدرك بشكل مباغت أنه ظلم المثقف طويلاً؟

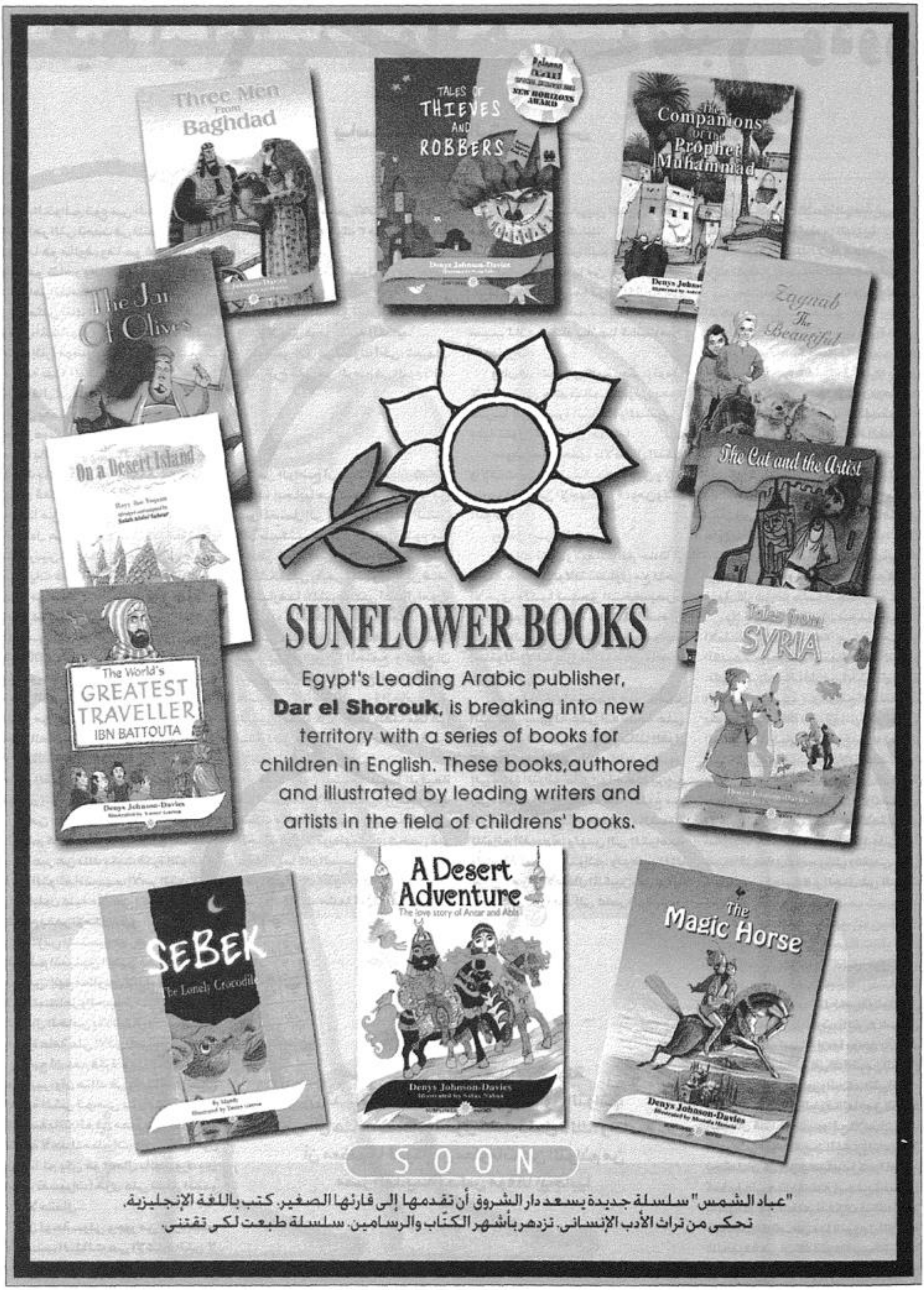
لا هذا ولا ذاك، بل لأن شاهين، العقلانى جداً والمتحرك بشكل واع مع زمنه، أدرك ان معركة التنوير التى كانت تخاض فى الماضى بين السلطة والمثقف (فيستنكف هذا الأخير أو يسعى هو بدوره لكى يكون سلطة أو سلطة مضادة فى أسوأ الأحيان) انتهت وتحولت الآن إلى معركة بين الفكر والظلام، يتأرجح خلالها الحاكم تبعاً لمصالحه ولمنطق الدولة، فتدمر الحضارة تحت سنابك العسكر إذ يتحالف مع التعصب والجهل، تحت سلطة الحاكم، وفى مثل هذه المعركة لا يعود فى إمكان شاهين أن يحاسب المثقف مهما كان من شأن هذا الأخير وتردده ومهادناته) لأنه يعرف أنه لو فعل لصب موقفه فى إحدى قناتين: إما قناة السلطة المترددة الخاضعة، ماكيافيليا، لمنطقها الخاص، وإما قناة قوى الظلام التى تستغل بؤس الأجيال الجديدة وبحث هذه الأجيال عن مثل عليا، لتعبئتها ضد الفكر والمجتمع مجتمعين.

فى مثل هذه المعركة يصبح الخيار أمام مبدع مثل يوسف شاهين واضحاً.

ولأن الخيار واضح كان لا بد من ابن رشد، بعد رام، وبعد بونابرت. وفى كل بساطة لأن ابن رشد مثل لحظة قاطعة انعطافية فى تاريخ العقلانية العربية، لحظة تشبه اللحظة التى يعيشها المثقف العربى اليوم، التى يعيشها يوسف شاهين نفسه اليوم.

وعلى مثل هذا الوضوح العقلانى ختم شاهين هذه المرحلة من سينماه التاريخية. وما لا شك فيه أن جزءاً من هذا كان يدور فى فكره حين وقف، عام عرض «المصير» فى مهرجان «كان» فى الجنوب الفرنسى (١٩٩٧) ليتلقى تصفيق العالم حيث منحه المهرجان لمناسبة عرض الفيلم، واحدة من أرفع الجوائز التى أعطاها لفنان فى تاريخه: جائزة الخمسينية.

صحيح أن الجائزة لم تعط لـ«المصير» يومها، لكنها أعطيت لشاهين، فى أعظم تكريم ناله فنان عربى على الصعيد العالمى، منذ جائزة نوبل للآداب التى كان منحت لنجيب محفوظ قبل ذلك بنحو عقد من السنين. ■


Three Men From Baghdad
TALES OF THIEVES AND ROBBERS
NEW HORIZONS AWARD
Denys Johnson-Davies
The Companions of the Prophet Muhammad
The Jar Of Olives
Zaynab The Beautiful
On a Desert Island
The Cat and the Artist
Tales from SYRIA
The World's GREATEST TRAVELLER IBN BATTOUTA
Denys Johnson-Davies
SUNFLOWER BOOKS
Egypt's Leading Arabic publisher, **Dar el Shorouk**, is breaking into new territory with a series of books for children in English. These books,authored and illustrated by leading writers and artists in the field of childrens' books.
SEBEK
The Lonely Crocodile
A Desert Adventure
The love story of Antar and Abla
Denys Johnson-Davies
The Magic Horse
Denys Johnson-Davies
SOON
"عباد الشمس" سلسلة جديدة يسعد دار الشروق أن تقدمها إلى قارئها الصغير. كتب باللغة الإنجليزية،
تحكي من تراث الأدب الإنساني. تزدهر بأشهر الكتّاب والرسامين. سلسلة طبعت لكي تقتني.

قطط ليلية.. وآلهة منبوذون

ياسمين الشاذلى

■ ■ «التوائم نوع من الشذوذ ومن الظواهر التى تحدث فى المنطقة الواقعة بين ما هو مألوف وما هو غير مألوف، وما هو ظاهر وما هو خفى؛ إنها من الظواهر الغامضة التى تحتاج إلى فهم».

تعكس تلك الكلمات من كتاب تيد وولنر «المتشابهون: نظرة على التوائم» مدى إثارة موضوع التوائم. لقد أصبحت مهتمة بهذا الموضوع على وجه التحديد حين قال لى بخيت، وهو أحد العمال الذين يعملون معى فى حفائر جامعة جونز هوبكنز ومتحف بروكلين فى معبد موط بالكرنك، إن التوائم يتحولون إلى قطط بالليل، وأنه لا ينبغى لأحد أن يؤذى قطًا خشية أن يكون هذا القط واحداً من التوائم المتحولة. أخذت أتساءل عن سبب هذا المعتقد لدى المصريين المحدثين. وبما أننى عالمة مصريات، فقد سألت نفسى عما قد يكون عليه موقف قدماء المصريين من التوائم. وبسرعة قرأت مقالة جون بينز، «التوائم المصريون» المنشورة فى دورية Orientalia في عام ١٩٨٥ التى كان يناقش فيها الأدلة الخاصة بالتوائم فى مصر القديمة والموقف المتغير من هذا النوع من المواليد منذ الدولة القديمة حتى العصر البطلمى. وقد أوضح البحث أن هناك أدلة قليلة جداً عن التوائم من مصر القديمة. وكانت النتيجة التى توصل إليها هى:

«من الأفضل افتراض أن الكلام عن التوائم كان موضوعًا محظورًا Taboo، سواء عبّر عن ذلك بكبت فكرة التوائم أو قمع التوائم أنفسهم، الأمر الذى كانوا يتحايلون عليه من حين لآخر بمعاملة التوءم بقدر الإمكان على أنهما شخص واحد. ومن المستحيل معرفة السبب فى أن التوائم المعينين الذين نعرفهم كانوا مميزين. إنهم مطلوبون لإبداء تبادل مبالغ فيه للمشاعر والحب، تمشياً مع إضفاء الكمال الخاص بالأشكال الاجتماعية بصورة عامة على الآثار المصرية».

ومع أن هذه فكرة لافتة للانتباه إلى حد كبير، وأن هناك فى واقع الأمر بعض الأدلة التى توحى بأن ندرة الأدلة الخاصة بالتوائم فى مصر القديمة كانت نتيجة لأحد المحظورات، فإنى أود أن أقول إن هذا لم يكن هو الحال بالضرورة، وإن هناك تفسيرات أخرى على نفس القدر من الاحتمال.

إن لوحة سوتى وحور من فترة حكم أمنحتب الثالث هى الإشارة التى لا لبس فيها إلى التوائم أو المواليد المتعددين حتى عصر الانتقال الثالث (باستثناء حكاية مولد ٣ ملوك فى بردية ويستكار).

وفى هذه اللوحة يقول كل من سوتى وحور عن الآخر:

«لقد كنت الصادق الذى يعاف الزيف، الذى لا يثق فيما يقوله الكذاب.

ولكنى أثق فى سلوك أخى، شبيهى، فقد خرج معى من الرحم فى اليوم ذاته».

من الواضح أن هذه الكلمات تعكس موقفاً إيجابياً من التوائم. وأرى أنه من غير المحتمل إلى حد كبير أن هذا النقش كان سيُكتب لو كان هناك أى نوع من الحظر. كما أنه من الواضح أن سوتى وحور كانا شخصين رفيعى المستوى، حين قدّما باعتبارهما «المشرف على أعمال آمون، سوتى، (و) المشرف على أعمال آمون، حور». ويعنى هذا أن التوءم كانا يتقلدان منصبين رفيعين فى المجتمع. والواقع أن بينز يقول عن نى عنخ آمون وخنوم حتب من أواخر الأسرة الخامسة، اللذين ربما كانا توءماً ودُفنا معاً فى سقارة فى مقبرة تُعرف باسم «مقبرة الأخوين»:

قد لا يكون سبب مكانتهما الرفيعة هو أصلهما الاجتماعى. ورغم وجود صلات محتملة بينهما وبين مقابر فى الجيزة، فهى لا تربطهما بأى شخص غير عادى. ربما كان السبب هو كونهما توءماً. فمن الممكن أن التوءمة ترفع المكانة فى بعض الحالات، مثلما كان يحدث إلى حد ما مع الأقزام النادرين الذين كانوا مقربين من الملك كذلك.

فهل من المحتمل أنهم كانوا ينظرون إلى التوءمة على أنها من المحظورات فى بعض الحالات، بينما ترفع المكانة فى حالات أخرى؟ أعتقد بداية أنه ما من سبب للاعتقاد بأنها كانت من المحظورات.

وكان قد أشير إلى كلمة «حتر» (توءم) لأول مرة فى حكم تمائمى نبوئى يعود تقريباً إلى الأسرة الثانية والعشرين، وفيه تقول الآلهة عن امرأة ما:

«سوف نملأ رحمها بالأطفال الذكور والإناث. سوف ننقذها من ولادة حورس (؟)، ومن الإجهاض (؟) ومن ولادة التوائم».

ويعلق بينز قائلاً:

«وبذلك تكون ولادة التوائم حادثاً أو محنة خاصة بالولادة تتساوى مع المحن الأخرى، ولكنها تستحق التخصيص». ولا يقدم النص أدلة على الموقف من التوائم الذين عاشوا حتى تخطوا مرحلة الطفولة، إلا أنه يبرز طابعهم غير المحبب فى الأساس.

وبينما يمكن استخدام هذا الحكم التمائمى بسهولة على أنه حجة على وجود أحد المحظورات، فإنه يمكننا القول كذلك أن السبب فى أنهم كانوا ينظرون إلى ولادة التوائم على أنها محنة يرجع إلى الخطر الذى يمثله هذا النوع من الولادة بالنسبة للأم وكذلك بالنسبة للتوائم أنفسهم، وليس إلى الكراهية المتأصلة لهؤلاء التوائم. وتوضح ذلك حكاية «مولد الأطفال الملكيين» فى بردية ويستكار التى تعود إلى عصر الهكسوس وتدور أحداثها فى الأسرة الرابعة فى عهد الملك خوفو. ويقول نص البردية:

«فى يوم من تلك الأيام شعرت رودديت بآلام الوضع وكان مخاضها صعباً».

وبعد بضعة أسطر يقول رع أوسر للمعبودات:

«انظرن يا سيداتى، إنها المرأة التى تتألم. إن مخاضها صعب».

بعبارة أخرى، هناك تأكيد على صعوبة الولادة فى هذا النص، وهو ما قد يعود إلى أن المرأة كانت تلد توءماً ثلاثياً. وقد اتضح أن الولادة الفعلية سهلة، ولكن سبب ذلك فقط هو أن المعبودات هن اللائى قمن بالتوليد. وعقب الولادة لا يبدو أن هناك أمراً سلبياً بشأن كون المواليد توءماً ثلاثياً. فنحن على العكس من ذلك نعلم أنه:

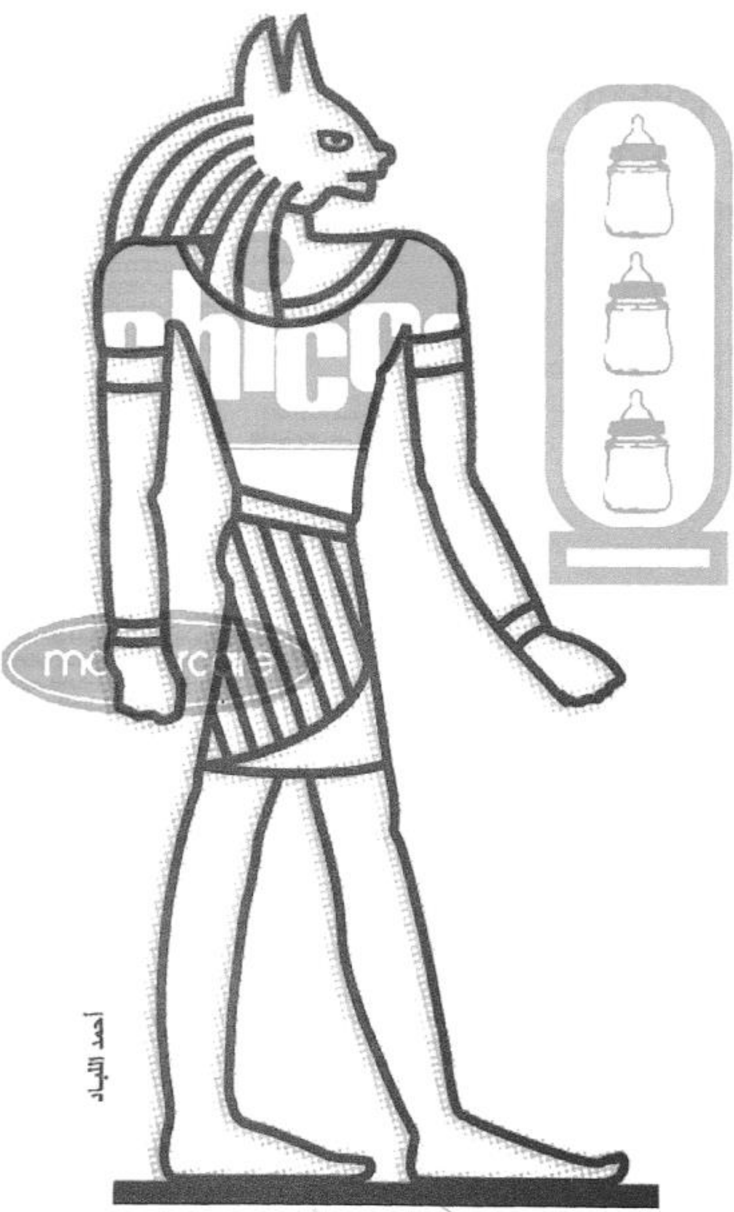
«عند عودة رع أوسر من الحقل أبلغته رودديت بالأمر. وحينئذ فرح قلبه فرحاً يفوق كل شىء وجلسا ليحتفلا».

ولا بد أن نتذكر أن معدل وفيات الأطفال كان مرتفعاً جداً فى مصر القديمة، وربما كان احتمال بقاء التوائم على قيد الحياة أقل من احتمال بقاء الأطفال المفردين. والواقع أن ذلك قد يكون سبباً فى قلة الإشارة إلى التوائم فى السجل الأركيولوجى. وكذلك بما أن النساء كن يمتن أثناء الولادة، فقد كانوا ينظرون إلى ولادة التوائم على أن فيها خطورة شديدة على الأم. والعامل الآخر الذى ينبغى أخذه فى الاعتبار هو أنه ربما كانوا ينظرون إليها على أنها عبء اقتصادى وجسمانى ونفسى على الوالدين، كما هو الحال فى الوقت الراهن.

واعتباراً من الأسرة الخامسة والعشرين يصبح «پاحتر» و«تاحترت» (التوءم) اسمين شائعين. ويقول بينز إن ما يوحى به ذلك هو أنه كان هناك تغير فى الموقف من التوائم منذ زمن سوتى وحور والحكم التمائمى. وطبقاً لما يقوله فإن الخوف العام من التوائم ربما كان قد اختفى. وواقع الأمر أن تلك الأسماء أصبحت من الشيوع بحيث لا يحتمل أن كل من يحملونها كانوا توائم. كما يوحى هذا بقيمة إيجابية تتصل بالتوائم. ولا أعتقد أنه كان هناك تغير ضخم فى الموقف من هذا النوع من المواليد. فالحقيقة هى أن كلمة توءم أصبحت اسماً شائعاً اعتباراً من الأسرة الخامسة

من الخطورة استخدام مقولة إن قدماء المصريين ربما كانوا يقتلون التوائم، لمجرد أن هناك ثقافات أخرى كانت تفعل ذلك، وخاصة أن معظم ما لدينا من معلومات عن التوائم من مصر القديمة يعكس موقفاً إيجابياً

... التوائم فى مصر القديمة



أحمد اللباد

والعشرين، وهو ما قد يتعلق أكثر بموضة التسمية فى ذلك العصر.

كانت الأدلة على أن مكانة التوائم تحظى بالتقدير أقوى فى العصر البطلمى. ففى ذلك الوقت لم يكن «التوءم» اسمًا شائعًا وحسب، بل كان يستخدم فى واقع الأمر كلقب لبطليموس السادس فيلوميتور وهو «باحتر إن باحاعبى عنخ» (توءم أبيس الحى)، الذى تضيف إليه بعض النماذج حر مسحن سن «فى مسقط رأسهما».

وهناك أدلة كذلك فى المصادر اليونانية تدل على احتمال وجود توائم مصريين، فعلى سبيل المثال نعرف بأمر الفتاتين المصريتين تاويس وتاووس من برديات السرابيوم التى تعود إلى القرن الثانى. وكانت تلك الفتاتان تشغلان منصب ديدى ماى (التوءم) وكان عملهما هو القيام بدور إيزيس ونفتيس فى الحداد على الثور أبيس وكذلك تقديم القرابين لسرابيس. ويطلق على إيزيس ونفتيس «سنتى» (الأختان التوءم) منذ متون الأهرام. ويبدو أن هذه التسمية مقصورة على المعبودات. و لا تعنى حقيقة أنها كانت تستخدم للديدى ماى بالضرورة أن المصريين الأقدمين كانوا يعتبرون إيزيس ونفتيس توءمًا فعليًا.

كما يمكن القول بأن شو وتفنوت كانا توءمًا، وهما يصوران متطابقين عن طريق ربطهما بالأسدين التوءم «روتى»، ويشار إليهما أخذًا فى الاعتبار الإله الخالق بالمصطلح «زانتى» (الطفلان التوءم)، إلا أنه ليس هناك دليل حقيقى على ذلك. وفى أواخر العصر اليونانى الرومانى كان شو وتفنوت يصوران على هيئة طفلين متطابقين من جنسين مختلفين. إلا أن هذا لا يثبت أنهما كانا يعتبران توءمًا. ويمكن رؤية ارتباط أكبر لهذين المعبودين بالتوءمة فى رسم رمز برج الجوزاء. ويرى بينز أن شكل الرمز له صلة بموتيف مستخدم كرمز هيروغليفى هو «حتر» أو «سنسن» (وهو جذر آخر يمكن ربطه بالتوءمة). ويُقرأ العرض التصويرى لرمز برج الجوزاء «حتر»، وتعرض نماذج كثيرة شكلاً ذكرًا وآخر أنثى، من بينها ثلاثة تصور بالفعل شو وتفنوت.

ويقول بينز إنه من الممكن أن سبب حصولنا على معلومات قليلة جدًا عن التوائم من مصر القديمة هو أن أحد التوائم الذين من نفس الجنس أو كليهما كانوا يُقتلون، وهى ظاهرة شائعة فى ثقافات أخرى. إلا أننا لا بد من تذكر أن ليس كل

الثقــافات تنظــر للتوائم نظرة سلبية، فذات مرة قال لاعب الكريكت البريطانى أليك بدسر الذى له أخ توءم متطابق:

«أدى كوننا تـوءمـا متـطـابـقـا إلـى مواجهة بعض الأمور الغريبة. فحين كنا فى فرنسا عام ١٩٤٠ ركع رجل مسن عند قدمينا مبدياً التكريم والإجلال، وتجمع حشد بدافع الفضول. وكنا محرجين ولم نكن نعرف ما الذى ينتظر منا القيام به إلى أن أوضح لنا شخص ما أن هناك خرافة محلية تقوم على الإيمان بأن رؤية التوءم المتطابق حدث سعيد».

وفى مجتمع الدوجون فى مالى هناك سلسلة من الممارسات والشعائر التى تجرى للتوائم استعداداً لأن يكونوا موضوعاً لإحدى عبادات الأسلاف. ولـذلك فمن الواضح أن الطريقة التى تتـفاعل بها الثقافات المختلفة مع التوائم ليست موحدة بحال من الأحوال. وبـنـاء على ذلك فمن الخطورة استخدام مقولة إن قدماء المصريين ربما كانوا يقتلون التوائم، لمجرد أن هناك ثقافات أخرى كانت تفعل ذلك، وخاصة أن معظم ما لدينا من معلومات عن التوائم من مصر القديمة يعكس موقفاً إيجابياً.

والواضح أن بعضا من هذه المعتقدات قد انتقل عبر الزمن إلى الأهالى فى صعيد مصر، فبخيت (عامل من الأقصر) والذى كان قد أخبرنى أن التـوائـم يتحولون إلى قطط فى الليل، أخبرنى أنه حين ينام التوائم فى الليطل فإن أجسامهم تتجول فى القرية فى هيئة قطط سوداء بلا ذيل. ولمنع حدوث ذلك يجب على والدى التوءم حديث الولادة أن يطعماهما حليب الناقة لمدة سبعة أيام. فحليب الناقة ثقيل جداً، ولذلك فالفكرة هى أنه يجعل أرواح التوائم ثقيلة ويمنعها من مغادرة أجسادهم بالليل. كما يجب على الوالدين كذلك أن يطعما التوائم سخينة، وهى ثوم مقلى. فمن المفترض أن التوائم تحبها وهى تساعد على جعل الأرواح تنام، بحيث لا تغادر الأجساد على هيئة قطط. ولا ينبغى لأحد بحال من الأحوال إيقاظ أى من التوائم. فهو إن فعل ذلك قد يموت هذا الشخص. وكذلك فإنه حين تتحول روح أحد التوائم إلى قطة، فإن أى شىء يحدث لتلك القطة يؤثر على التوءم النائم. فعلى سبيل المثال إذا رمى أحدهم القطة بحجر، فمن المحتمل أن يستيقظ التوءم وعلى مكان ما من جسده كدمات.

أما جاد الذى يعمل رئيسا للعمال لدى البعثات الأثرية وهو أب للتوءم حسن وحسين. وكان لديه فى الأصل ثلاثة عشر طفلاً لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثمانية. وحسن وحسين توءم متطابق عمره ست سنوات. وبمجرد ولادتهما كان لا بد من أخذهما إلى محل الصائغ ووزنهما بالذهب على ميزانه. وقبل أن يبلغا الأربعين يوماً كان لا بد من أن يشما حافر حمار محروق (وهذا يؤتى به من كوم أمبو) وأن يطعما كبدة الجمل المحمرة، وكذلك حليب الناقة. وكان لحسن وحسين أختان توءم لم تجر لهما تلك الأعمال. وقد ماتت إحداهما عند الولادة وماتت الأخرى وعمرها ستة أشهر، «لأن الأم حركتها وهى نائمة»!

أما الإمام صالح شيخ أحد المساجد المحلية. وكان عمر توءمه عبير وسمية سنة وأربعة أشهر. فقد رفض إجراء كل الأعمال اللازمة لمنع الطفلتين من التحول إلى قطتين. فهو يؤمن بأنه ما دام هذا ليس مذكوراً فى القرآن، فليس هناك ما يدعو للإيمان به. «ربما كانت تلك قصة من اختراع امرأة كسول لم تطبخ العشاء لزوجها. وحين جاء من العمل جائعاً فى يوم من الأيام أخبرته أن كل طعامهم أكله طفلا الجيران اللذان تحولا إلى قطتين».

ويمكن كذلك ربط التوءمة بالفكرة الشائعة فى مصر المعاصرة الخاصة بالقرين والقرينة (حيث إن التوءم أشبه بنسختين من نفس الشخص). فكل رجل يولد ومعه قرينه وكل امرأة تولد ومعها قرينتها. وقد نشرت وينيفريد بلاكمان مقالة مفيدة جداً فى Royal Anthropologi cal Institute, vol. I. ١٩٢٦ بعنوان «القرين والقرينة». وهى تقول:

«لا يشبه القرين نموذجه الأصلى على الأرض من حيث الشكل وحسب، بل كذلك من حيث الطبع. والواقع أنه يعكس بدقة كل أفعال نسخته الأرضية، الطيب منها والشرير. وهكذا فإنه إذا غضب رجل أو امرأة فإن قرينه أو قرينتها تفعل الشىء نفسه. وإذا كان يعانى من الألم والمرض، فكذلك يكون حال القرين أو القرينة».

يذكرنى هذا بفكرة أن كل ما تمر به روح التوءم ليلاً، وهو على هيئة قط، يؤثر على جسد التوءم النائم. كما يذكرنى بما قاله كثيرون ممن أجريت معهم مقابلات عن كيف أن التوائم يكونون قريبين جداً من بعضهم حتى أن ما تفعله لأحدهما يؤثر على الآخر. فإنك على سبيل المثال إذا ضربت أحدهما فقد يبكى الآخر!



من الواضح أن الطريقة التى تتفاعل بها الثقافات المختلفة مع التوائم ليست موحدة بحال من الأحوال

ويمكن مقارنة فكرة القرين والقرينة بسهولة بفكرة الكا فى مصر القديمة، حيث كانوا كذلك يؤمنون بفكرة القرين الذى يولد فى نفس وقت ولادة نظيره.

وفى الختام أود أن أورد ما قالته بنيلوب فارمر فى كتابها Two, or, The book of Twins and Doubles: An Autobiographical Anthology:

«... إن ما يجعل ولادة التوائم أمراً غريباً فى كل المجتمعات ليس التشابه أو عدم التشابه، وإنما هو الازدواج. فالأمر المعتاد فى نوعنا هو الولادة المفردة. ومن ثم فإن الحاجة التى تبدو عالمية إلى منح التوائم مكانة خاصة، وطقوساً خاصة، ذهنية كانت أم فعلية، من أجل إعادة دمج المجتمع الذى يقسمه اختلافها عن الوضع القائم. ولذلك فإنهم يُقدسون ويعبدون، أو حتى يقال إنهم الأمر الطبيعى ولكن توائم معظم الناس لا يبقون أحياء فى الرحم، وهو ما يشيع بين الدوجون. والبديل لذلك أن يبغضهم الناس بغضاً شديداً ويقضون عليهم وينبذونهم».

وبينما يبدو أن بينز يقول إن التوائم فى مصر القديمة كانوا من المحظورات (boo-a)، فإن ما لدينا من نماذج يوحى بأن التوءمة كانت فى واقع الأمر ترفع المكانة لكون التوائم الاستثناء وليس القاعدة، وأنا أميل أكثر إلى الظن بأنه لم يكن هناك رفض بالمرة يتصل بالتوائم، وأن ندرة المعلومات عن التوائم ربما ترجع إلى حقيقة أن الكثيرين منهم لم يعيشوا بعد الولادة. كما أنه من الممكن أن يكون ذلك نتيجة لتحيز فى السجل الأركيولوجى. بمعنى أن من الممكن أن يكون هناك آثار مصرية متعلقة بالتوائم لم تكتشف بعد، وقد تغير من مفهومنا عن مكانة التوائم في مصر القديمة. ■

القادمون من سيام!

محمد أبو الغار

■■ تشكل ولادة التوائم حوالى واحد ونصف بالمائة من كل حالات الولادة. وفى السنوات الأخيرة وبعد استخدام أجهزة الموجات الصوتية فى فحص الجنين فى الأسابيع الأولى من الحمل اتضح أن نسبة الحمل فى التوائم أكثر من النسبة التى كنا نعرفها بحوالى ١٥٪. واتضح أنه فى هذه الحالات يختفى أحد الأجنة بعد تحلله ويكتمل نمو جنين واحد داخل الرحم دون أدنى تأثير عليه من الجنين المتحلل، ولم تكن معرفة ذلك ممكنة قبل استخدام الموجات الصوتية.

و قد حدث فى العقدين الأخيرين ارتفاع فى نسبة حدوث التوائم ويرجع ذلك إلى سببين أولهما هو ارتفاع عمر المرأة عند حدوث الحمل ومن المعروف أن هذا من المسببات الهامة لزيادة نسبة التوائم، والسبب الآخر هو استخدام الأدوية المنشطة للتبويض وأطفال الأنابيب فى علاج العقم.

و هناك أيضا عوامل وراثية هامة وراء زيادة نسبة التوائم، فمثلا فى أفريقيا السوداء تتراوح نسبة التوائم من ٢ إلى ٥ بالمائة وتنخفض إلى ١٪ فى أمريكا وتقل عن ١٪ فى أوروبا وتنخفض تحت النصف بالمائة فى الشرق الأقصى وأسباب هذا الاختلاف غير معروفة. ومن المعروف أيضا أن نسبة حدوث التوائم تزيد فى بعض العائلات وتورث إلى الأجيال التالية.

و يعتقد البعض أن السيدات ذوات الحجم الضخم لديهن فرصة أعلى فى حدوث حمل التوائم وكذلك يعتقد البعض أن حمل التوائم يحدث بنسبة أكبر فى أول الشتاء وبالتالى يتم الوضع فى النسبة الأكبر من التوائم فى نوفمبر/ديسمبر.

و يعتبر تنشيط التبويض وأطفال الأنابيب من أهم الأسباب الحديثة فى زيادة نسبة التوائم ولكن هذه الأسباب يمكن تجنبها إلى حد كبير، ففى حالات تنشيط التبويض يجب استخدام جرعات مخففة من أدوية التنشيط وكذلك يجب متابعة الحالات بالموجات الصوتية للتأكد من أن عدد البويضات التى تنضج قليل حتى لا يحدث حمل فى عدد كبير من الأجنة. وبالنسبة لأطفال الأنابيب فمنذ عدة سنوات أصدرت الهيئات الطبية المختلفة توصيات بعدم نقل أكثر من ثلاثة أجنة داخل الرحم، وفى معظم دول أوروبا يتم نقل جنينين فقط ولم يؤثر ذلك على فرصة حدوث الحمل. وهناك بحوث نشرت حديثًا فى الدول الاسكندنافية عن إمكانية نقل جنين واحد فقط بدون تأثير كبير على فرص الحمل.



التوءم السيامى الشهير مع اثنين من أطفالهما

ويحدث حمل التوائم من تلقيح بويضتين منفصلتين أو من تلقيح بويضة واحدة يتم انقسامها بعد ذلك إلى أكثر من جنين، وهذا النوع الأخير أكثر ندرة.

وفى الحالة الأولى يتم تكوين جنينين لكل منهما مشيمة منفصلة وكيس للجنين. أما فى الحالة الثانية فينقسم الجنين إلى اثنين فى مرحلة مبكرة جدا من الحمل وإذا تم ذلك قبل أربعة أيام من عمر الجنين يكون لكل جنين مشيمة وكيس خاص به وإذا تم الانقسام بين أربعة وثمانية أيام يكون للجنينين مشيمة واحدة ولكل واحد منهما كيس منفصل. وإذا تم الانقسام بين ثمانية وثلاثة عشر يومًا يكون للجنينين مشيمة واحدة وكيس واحد. أما إذا تم الانقسام بعد ثلاثة عشر يومًا فينتج عن ذلك التوأم الملتصق، وهو نادر الحدوث ولا تتعدى نسبة حدوثه واحداً فى الأربعين ألف ولادة، وفى معظم الأحيان تحدث وفاة الأجنة أثناء الولادة.

و فى دراسة حديثة وجد أن التوائم المتطابقين يعيشون عمرا أطول ولا يعرف السبب بدقة وربما كان التواصل النفسى بين التوءم المتطابق هو السبب فى إطالة العمر.

مضاعفات حمل التوائم

نظرا للتضخم الكبير فى حجم الرحم تعانى الأم من ضغط الرحم على الحجاب الحاجز مما يؤدى إلى صعوبة فى التنفس. وفى كثير من الأحيان تصاب الأم بفقر الدم. ونظرا لكبر حجم المشيمة هناك احتمال أكبر لوجودها فى الجزء الأسفل من الرحم مما قد يسبب انفصالاً فيها ونزيفًا. وتتعرض السيدة أيضا لارتفاع فى ضغط الدم وكذلك النزيف بعد الولادة.

وبالنسبة للأجنة الناتجة عن بويضة واحدة يسبب وجود اتصال الدورة الدموية بين الجنينين إلى تضخم طفل وضمور نمو الآخر فى بعض الأحيان وكذلك فإن نسبة التشوهات فى التوءم تكون حوالى ثلاث مرات أكثر من الحمل فى طفل واحد. وتعتبر أخطر مضاعفات حمل التوائم هى الولادة المبكرة مما يؤدى إلى مشاكل كبيرة فى تنفس المولود وارتفاع فى نسبة المضاعفات والوفيات وخاصة المضاعفات فى الجهاز العصبى ويحتاج الأمر فى كثير من الأحيان إلى وضع التوءم فى حضانة لمدة قد تطول وقد يلزم استخدام جهاز التنفس الصناعى لمدة قد تطول عدة أسابيع.

وبالرغم من أن ولادة التوائم فى الولايات المتحدة تقدر بحوالى واحد بالمائة من مجموع الولادات إلا أنها مسئولة عن ١٢ ٪ من مجموع وفيات الأطفال حديثى الولادة.

التوائم الملتصقة

يشهد التاريخ اليونانى والرومانى على استخدام التوائم الملتصقة ضمن التمائم (legends and myths). ومن أشهر التوائم مارى وليزا التوءمان الملتصقتان اللتان ولدتا فى انجلترا فى عام ١١٠٠ ميلادية وعاشتا حتى بلغتا أربعة وثلاثين عاما وبعد وفاة إحداهما فكر الجراحون فى فصلهما ولكن الأخت الأخرى رفضت وقالت لقد جئنا سويا وسوف نموت سويا وماتت بعد أختها بساعات قليلة. وقد تبرع أحد الأغنياء بحوالى مائة فدان تم استغلال ريعها فى تقديم البسكويت على روحيهما لمدة ٩٠٠ عام وما زال ذلك مستمرا حتى الآن فى الكنيسة التى دفنتا فيها.

وربما كان أشهر توءم ملتصق فى تاريخ البشرية هو التوءم السيامى (أى القادم من بلاد سيام وهو الاسم القديم لمملكة تايلاند). وقد ولدا فى عام ١٨١١ فى سيام وكانا ملتصقين فى منطقة الصدر وفى عام ١٨٢٩ دعاهما الكابتن أبل كوفن للسفر لأمريكا واستخدما فى الاستعراضات وتدربا على الألعاب الأكروباتية. وفى زيارة لأوروبا قاما بعروضهما فى إنجلترا ولكن فرنسا رفضت السماح لهما بالدخول خوفا من أن رؤية الحوامل الفرنسيات لهذه الظاهرة قد يكون لها آثار سيئة عليهن.

وتلى ذلك ولادة أطفال ملتصقة كثيرة فى العالم ولم يكن الطب قادرا على فك الالتصاق جراحيا. وقد أجريت منذ أعوام قليلة فى أمريكا جراحة لتوءم ملتصق بغرض انقاذ طفل والتضحية بالآخر واستمرت العملية ٢٣ ساعة ولكن الطفلين ماتا.

ويعتمد نجاح الجراحات

كتاب الزاوية

مؤسسة للقراءة وأخرى للشحاذة

فى بغداد يمكنك أن تطلع على وجود عدة مكتبات من ذلك النوع الذى يسمونه «مكتبة جوالة»، وهى التى تعير الكتب للمطالعة الخارجية، وهى التى تجهز الناس بالكتب والقصص وكتب التاريخ المسلية، مقابل «بارات» قليلة كل أسبوع، فأماسى الشتاء الطويلة تعد مواسم للقراءة، إذ يلتقى عدة أشخاص فيدفعون معا نصيبهم من النقود لاستعارة الكتب التى يتلوها عاليًا أحد هؤلاء على مسامع الآخرين لإدخال البهجة فى نفوسهم، وفى ليالى شهر رمضان والعيدين خاصة، هناك قراءات فى كل بيت من بيوت الوجهاء.

وثمة مؤسسة أخرى فى بغداد، ليست أقل «سخرية» من الأولى لما فيها من غرابة، فقد كان للسيد «هاين» سايس خيل جاءت زوجته إلى فناء المنزل، حيث ضربت زوجها ضربًا مبرحًا وخربشت وجهه ونكشت لحيته المشذبة، ولما سألت عن هوية المرأة أجابونى أنها ابنة ملك الشحاذين، وبعد مزيد من الاستفسار اكتشفت أن وزيرًا معروفًا جداً فى عهد سليمان باشا، عين أحد الشحاذين لتكون له اليد الطولى على شئون جميع متسولى بغداد، كان الشحاذون جميعًا مذعنين له ومنقادين لأوامره.

وكان يعد مسئولاً عن سوء تصرف جميع أعضاء تلك الجمعية، وحينما تؤخذ أعداد الشحاذين الغفيرة هنا بنظر الاعتبار، فإن مثل هذه المؤسسة، مهما بدت غريبة الأطوار للنظرة الأولى، لن تبدو دون فائدة.

الحديثة على نوع الالتصاق ومدى مشاركة التوءم فى أعضاء حيوية وهامة من جسمهما كالمخ والكبد. وقد أجريت فى الولايات المتحدة عملية فصل توءم مصرى عمرهما عامان وملتصقان بالراس وتمت العملية يوم ١٢ أكتوبر ٢٠٠٣ واستغرقت العملية ٣٤ ساعة وتحسنت حالة الطفلين المنفصلين تدريجيا ولكن يبقى إجراء بعض الأشعات والاختبارات على المخ للتأكد أن فصل المخين لن يؤثر عليهما فى المستقبل.

و يهتم العالم فى الغرب بالتوائم بشدة وتوجد مجلة هامة فى الولايات المتحدة اسمها التوائم يشتريها معظم توائم الغرب وتوجد محلات خاصة تبيع مستلزمات التوءم من عربات خاصة وكراسى خاصة للسيارات وهناك مجموعة كبيرة من الكتب عن التوائم فى جميع مراحل العمر.

رعاية أم التوءم

تتيح وسائل التشخيص الحديثة معرفة أن السيدة حامل فى توءم منذ الأسابيع الأولى من تأخر الدورة الشهرية ولذلك فإن رعاية الأم تبدأ مبكرا. وتنصح الأم بتعاطى الغذاء الكافى لمنع حدوث فقر الدم وتنصح أيضا بالراحة فترات أطول ويراعى ملاحظة ضغط الدم وتحليل الزلال على فترات متقاربة نظرا لأن نسبة حدوث تسمم الحمل فى التوءم أعلى بكثير من الحمل فى طفل واحد وحيث إن الولادة المبكرة هى الخطر الأكبر على الأجنة فى حالات التوائم فتنصح السيدة بالتوقف عن المعاشرة الجنسية فى الشهور الثلاثة الأخيرة من الحمل ويستحسن إعطاؤها جرعة من الكورتيزون تساعد على سرعة نضوج الرئة تحسبا لاحتمال ولادة مبكرة. ونظرا لصعوبة الولادة بسبب الأوضاع غير الطبيعية ففى كثير من الأحيان تتم الولادة بعملية قيصرية ويجب إجراء الولادة فى مستشفى مجهز بوسائل رعاية الأطفال حديثى الولادة وبه الحضانات وأجهزة التنفس الصناعى اللازمة لذلك.

و فى دراسة صدرت عام ٢٠٠٣ يقول الباحث أن التوءم قد عاشا بجوار بعض طوال الحمل وأن العلاقة داخل الرحم بينهما كانت مستمرة وبعد الولادة يتم إبعادهما عن بعض بوضع كل طفل فى سرير وحده ويعتقد الدارس أنه يجب أن يوضع التوءم فى سرير واحد حتى يستمر التآخى بينهما

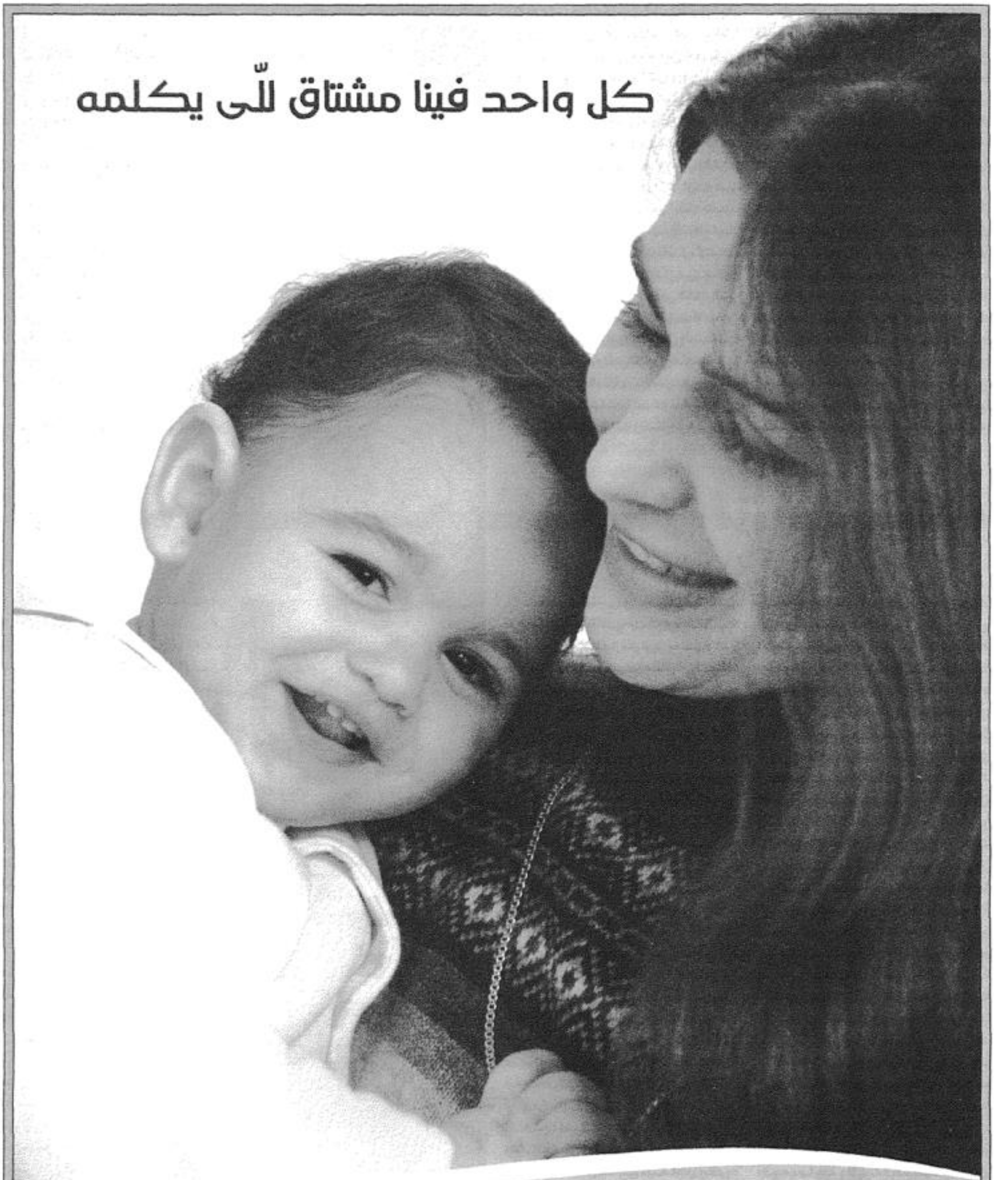
المشاكل المادية لولادة التوائم

تتكلف مصاريف الولادة بما فى ذلك رعاية الطفلين فى حالات التوائم فى الولايات المتحدة أربعين ألف دولار مقارنة بعشرة آلاف دولار لمصاريف ولادة الطفل الواحد. أما فى حالة ولادة توءم من ثلاثة أطفال فتصل التكلفة إلى مائة وعشرة آلاف دولار. وهذه الفروق الضخمة سببها الأساسى المشاكل الكثيرة التى تحتم رعاية الأطفال فى الحضانات لمدة طويلة والكثيرون منهم يحتاجون إلى رعاية مركزة تكلفتها مرتفعة للغاية. وبالطبع فإن تكاليف الولادة فى مصر فى القطاع الخاص تبلغ ٢ إلى ٥٪ فقط من الأسعار الأمريكية. وفى أوروبا حيث الرعاية الصحية تتكفل بها الدولة تتسبب ولادة التوائم فى مصاريف باهظة تتحملها الدول والتى بدأت تضع قوانين طبية تحد فيها من احتمالات الحمل فى أكثر من جنين.

و فى حالة حدوث حمل فى أكثر من اثنين من الأجنة (٣ أو ٤ أجنة مثلا) يكون احتمال الولادة المبكرة والمخاطر التى تتعرض لها الأجنة كبيرة جدا ولهذا تقوم بعض المراكز الطبية بشفط الأجنة الزائدة عن اثنين فى فترة مبكرة جدا من الحمل والاحتفاظ بالتوءم فقط. وبالطبع تعرض هذه الطريقة الأم فى بعض الأحيان لآثار نفسية وهناك اعتراض من البعض على مدى أخلاقية هذا النوع من العلاج، إلا أن رأيى الدينين الإسلامى والمسيحى قد وافقا على هذا النوع من العلاج لأن الغرض منه تحسين فرصة الأم فى الحصول على أطفال يمكنهم تكملة الحمل لمدة معقولة.

وأخيراً وبالرغم من التقدم الكبير فى تشخيص التوائم فى فترة مبكرة من الحمل ورعاية الحوامل فى توءم رعاية خاصة أثناء الحمل إلا أن الحمل فى توءم ما زال مثيرا للتساؤلات فى أسبابه مقلقا للحامل وعائلتها طوال فترة الحمل والولادة ومثيراً لأنواع متعددة من المشاكل أثناء رعاية الأطفال فى الفترة الأولى من الحياة ويبدو أن المتاعب قد تستمر لفترات أطول من ذلك.

وأخيراً فإن الولادة تكون أكثر أمنا فى حالة الحمل فى طفل واحد، ولذا يجب تفادى كل الأسباب العلاجية التى تؤدى إلى الحمل فى أكثر من جنين واحد. ■


كل واحد فينا مشتاق للّى يكلمه
موبينيل
اتكلم من القلب

بوح على بوح

خيرى شلبى

أهمية أن تعيش لتكتب

■■ كنت ولا أزال شديد الإعجاب بالكاتب الكولومبي جابرييل جارثيا ماركيز، كنت شديد الإعجاب به إلى حد كبير جداً، إلى حد أننى لم أقع تحت تأثيره مطلقاً؛ ذلك أن إعجابى به. على شدته. وضعنى دائماً خارج عالمه، فشدة الإعجاب كانت هى نفسها المساحة الفاصلة بينى وبينه بحيث يحلو لى دائماً أن أراه من خارجه من مسافة عزلتنى عن الوقوع فى مجاله المغناطيسى وفى نفس الوقت مكنتنى من النظر فيه عن كثب، ودراسته بكثير من التجرد الموضوعى. وكان أكثر ما يدهشنى بل يروعنى هو ذلك التشابه بين عالمى وعالمه: لست أقصد العالم القصصى والروائى، إنما أقصد العالم الذى صنع منه قصصه ورواياته. ذلك على وجه التحديد هو ما كان يشغلنى دائماً كلما قرأت له عملاً جديداً، تماماً مثلما كان يحدث معى بالنسبة ليوسف إدريس: من شدة افتتانى بشخوصه وأحداثه ونسيجه الفنى أرانى قد انجذبت للتفكير فى الخلفية الاجتماعية التى ألهمته هذه الشخوص وهذه المنسوجات الفنية الدرامية: بمعنى أن انبهارى بالفن يقودنى إلى البحث فى المادة التى صيغ منها هذا الفن العجيب، أو لعله ليس من العجيب، أن هذا ليس هو موقفى مع جميع الكتّاب الكبار الذين أقرأ لهم بشغف وحميمية وما أكثرهم فى جميع أنحاء العالم؛ إنما هذا موقفى مع هذين الكاتبين فحسب. ولم أكن قد شغلت بمعرفة السبب وراء هذا الموقف؛ فما أن قرأت السيرة الذاتية لجابرييل جارثيا ماركيز التى صدرت مؤخراً باللغة العربية بعنوان: «أن تعيش لتحكى»، حتى انفض السر وعرفت السبب: إنه شدة التشابه بين طفولتى وطفولة كل من ماركيز ويوسف، وهو تشابه يكاد يصل إلى حد التطابق مع طفولة ماركيز على وجه التحديد.

بادئ ذى بدء يطيب لى التنويه بأننى لست أحاول وضع نفسى فى مكانة واحدة مع ماركيز أو مع يوسف إدريس باعتبارهما من كبار الموهوبين المؤثرين فى جيلنا والأجيال التالية. لا: ليس هذا من طموحاتى على الإطلاق: كل ما فى الأمر أننى قد فُتنت بشىء أكبر وأهم من هذا الطموح الساذج الذى لا يراود إلا أشباه الموهوبين.. لقد فتنت بهذا التشابه الكبير بين طفولتى وطفولة جارثيا ماركيز، بهذه الوشائج الكثيرة التى ربطت بين طفل وُلد على حيِّز من شواطئ الكاريبى فى دولة اسمها كولومبيا فى أوائل عشرينيات القرن العشرين، وطفل وُلد على تخوم فرع من نهر قرية مصرية فى أواخر ثلاثينيات نفس القرن.

إن هذا الشىء مبهج حقاً بالنسبة لى، فأنا ابن الفولكلور المصرى الذى رسخ فى وعى طفولتى المبكرة أن لى أختاً تحت الأرض يجب أن أحنو عليها وأترك لها كل لقمة تقع من يدى؛ يبهجنى لاشك أن أجد لى قريناً على الكاريبى عاش نفس طفولتى وامتلأ بنفس قناعاتى وسبقنى إلى عالم القلم لاكتشف أنا بعد حين أننى مثله ابن الخيال الشعبى والسير والملاحم والفولكلور، ومثله مولع بالتفاصيل الدقيقة ويحشدها فى أبنية ذات شعب موصولة بالمسكوت عنه من الواقع الإنسانى المؤلم والساحر فى آن.



ماركيز



خيرى شلبى

مصدر ابتهاجى وفرحى أن ارتحالى الحميم فى وقائع السيرة الذاتية لجابرييل جارثيا ماركيز يضىء لى حياتى أنا، ويوثق لى ما سبق أن كتبته من قصص وروايات!! إننى فى الواقع أغوص فيها على صعيد الوقائع الحياتية التى أكاد أزعم أننى أعيها منذ تعلمت النطق، وصعيد النتاج الأدبى الذى أزعم بالفعل أن كل عمل كتبته منه. رواية أو حتى أقصوصة من نصف صفحة. كان تجربة فنية نابعة من تجربة حياتية.

أن تعيش لتحكى: حلم بشّرتنى به جدتى لأمى، وباركته أمى، وسخر منه أبى الشاعر المحبط والسياسى المبتور التجربة. حتى سخريته تلك كنت واعياً لها. إنه يفترض أن جميع خلق الله من عتاة الحاسدين إذا تعلق الأمر بى من أية ناحية! فأبى لو حدثنى عن فطنتى أو إشارة إلى ذكائى أمام ناس حتى من أهله تجعله يقرأ فى سره عديّة ياسين وآية الكرسى وقل أعوذ برب الفلق، وقد ازدوجت شخصيته فى التعامل معى؛ بينى وبينه يمتدح كل أقوالى ويعجب بكل أفعالى، وأمام الناس يتهمنى بأننى ولد بايظ وحمار، ولولا أن عمتى رقية كانت تقول معقبة عليه بابتسامة: أيوه اكسر العين عنه شويه، ولولا أنه كان يغمز لها بعينه من تحت لتحت كى تسكت لالتبست شخصيته فى نظرى. لقد كنت الولد الذى جاءه بعد طول انتظار وأربع زيجات استنفدت نصف قرن من عمره.

دارنا فى قرية شباس عمير مركز قلين محافظة كفرالشيخ كانت لعائلة كبيرة ذات شأن كبير، ربما أحد كبار موظفى الخاصة الخديوية وعلى وجه التحديد من عمال أفندينا عباس حلمى الثانى. مكونة من طابقين وحافلة بمفروشات كالحة تهرأت بعد موت جدى، كانت مخصصة للضيوف أو للمسافرين وقد ورثها أبى الذى كان أصغر إخوته ففصلها عن الدار الكبيرة التى ورثها أبناء عمومتى وفيهم رجال ونساء أكبر سناً بكثير من أبى ومع ذلك تلزمهم الأعراف والتقاليد أن يخاطبونى. وعمرى آنذاك أربع سنوات. قائلين: ياأبى؛ ذلك لأنى أعتبر عماً لهم. على يسار دارنا تلك دار عبدالرشيد جعفر صانع الحصائر؛ وكنت مفتوناً بعملية صنع الحصائر وأجلس ساعات طويلة أتفرج على عبدالرشيد جعفر ومساعده مصباح وهما مقعيان فوق عارضة خشبية وأصابعهما تتسابق فى تمرير أعواد البردى بين خيوط الدوبارة المشدودة على الأرض. وكان عبد الرشيد جعفر لطيفاً جداً ومغرماً بمشاغبتى لكى أحكى له ما يدور فى دارنا، فكنت أحكى لهما أشياء غريبة جداً ولا يمكن أن تحدث على الإطلاق، ومن قبيل أن أقارب لنا من بلدة مجاورة جاءونا وفتحنا لهم غرف الطابق الثانى فصعدوا بالركائب وربطوا حميرهم فى درابزين السلم لصق البسطة الأخيرة، وكنت أشعر بابتهاج ترتعش منه أعطافى حين أراه ومساعده ينفجران فى ضحك صاعق وعميق فتلتوى ملامحهما حتى ليخيل لى أنهما تحولا إلى عفاريت مرحة، فيقشعر بدنى؛ لكن وجه عبدالرشيد ينبسط فجأة ويبلع ريقه صائحاً: «وبعدين؟»، فأتفكر قليلاً ثم أقول: «وأمى طلعت للضيوف بصينية الأكل وأبويا قال لها هاتى كمان صينية للركايب! وجابت لهم رز معمر وملوخية وعيش غريال!»؛ ويمسح مصباح دموعه هاتفاً: «والحمير غسلت إيديها بعد الأكل؟»: فأهز رأسى بالإيجاب. ويتصادف أن تكون أمى مقبلة على دار جعفر لقضاء بعض شأنها فيلفت نظرها الضحك الصاخب فتتوقف ناظرة لى فى توجس: «فيه حاجة ولا إيه؟ الولد ده عمل حاجة؟»، يقول مصباح: «صدّع دماغنا من الفشر!»، ويضحك: فيعلق الشيخ عبد الرشيد فى لطف: «بيحكى لنا عن العزومة اللى عملتوها للحمير بتوع الضيوف! ابنك ده تحفة والله». تأخذنى أمى فى حضنها، تخشى دائماً أن تصيبنى العين فينكتب عليها القهر مدى الحياة إذ أننى الولد الذى جاء ليفرح أبى فى شيخوخته بعد أربع زيجات خاضها بحثاً

ان تعيش لتحكى
جابرييل جارثيا ماركيز
ترجمة: دكتور طلعت شاهين
دار سنابل للنشر والتوزيع
صدر عام ٢٠٠٣م

عن الولد، تفزعها نظرة عبدالرشيد وهو يتحدث عنى، فتغيبنى فى حضنها وتربت على ظهرى بحنان وهى تموء مثل قطة: «تعيش وتحكى يا حبيبى».

يقول جارثيا ماركيز: «من عرفنى فى سن الرابعة يقولون إننى كنت شاحبا وشارد الذهن، وإننى ما أن أفتح فمى حتى أقول أشياء مزعجة، لكن قصصى لم تكن سوى مقاطع من الحياة اليومية، وأنا كنت أجعلها أكثر جاذبية بإضافة تفصيلات متخيلة ليلتفت الكبار إلىّ. كانت محاورات الكبار أمامى ومن حولى أفضل مصادر تخيلاتى، لأنهم كانوا يعتقدون أننى لا أفهمها، أو تلك التى يلغزونها عن قصد حتى لا أفهمها، بينما كنت على عكس كل هذا: أمتصها كالإسفنج وأعيد تفكيكها قطعة قطعة، وعندما أقصها على من قصوها من قبل يصابون بالدهشة من تطابق ما كنت أقوله بما كانوا يقصدونه فى محاوراتهم».

خفيفة وهو يردد: «مسحوب من لسانك ليه؟ إيه اللى حشرك فى كلام الرجالة؟!». وصاحت أمى من الداخل فى نبرة بين الغبطة والرعب: «تعالى هنا يا مقصوف الرقبة!». كلاهما . أبى وأمى . يخشيان الحسد.

ما يذهلنى الآن بعد ما يزيد على نصف قرن من الزمان هو أننى إلى هذه اللحظة لا أزال أجهل المصدر الذى عرفت منه تلك المعلومة: انتحار هتلر. من المرجح طبعاً أننى سمعت هذه العبارة من شخص ما، ولكن المدهش حقاً أن تبقى العبارة فى ذاكرتى الغضة، أن تحتفظ بها الذاكرة كشىء ثمين مفيد كقطعة النقد يربط الطفل غريزياً بينها وبين تحقيق المطالب؛ ويحق لنا أن نتساءل: هل تستطيع ذاكرة طفل فى الخامسة من عمره أن تعى مدى ما لقائد ألمانى اسمه هتلر من أهمية على أى مستوى بالنسبة لأهله فى قرية فى شمال الدلتا؟



سيرتك الذاتية

فى مندرتنا فى البلد كان أصدقاء أبى يسهرون فى أواخر الأربعينيات وجل حديثهم يدور حول الحرب العالمية الثانية، وعن شائعة إسلام الحاج محمد هتلر الذى يجب أن يؤيده المسلمون وينصروه لعله يخلصنا من ذل الإنجليز. ولكن المندرة ما لبثت حتى شغلت بمسألة أكبر هى الاختفاء الغامض لشخصية هتلر: أيامها كنت قد صرت قادراً على تسلق الكنبة بمفردى دون معاونة من أحد. فإذا وقفت على الكنبة صار رأسى موازياً لرأس أبى وهو جالس، وقد اعتاد أن يتنازل لى عن رقبته القصيرة فأحيطها بذراعى، فيميل بى إلى الأمام كأنه يريد أن يدلقنى فى الأرض فأزاطط من البهجة مستشعراً لذة ملامسة الخطر؛ ثم يتوقف برهة ليستمع إلى سؤال، فيفتننى منظر صلعته من الخلف إذ تبدو كبحيرة من الضوء يحف بها الشعر من ثلاث جهات، يتلقى أبى سؤال عم عبدالفتاح القطان تاجر الأقمشة: «مش جايز يا أحمد افندى إن اختفاء هتلر ده يكون تكتيك حربى، ولاّ يعنى الأرض انشقت وبلعته؟!». تفكك أبى من ذراعى وتأهب لإجابة رصينة؛ إلا أننى كنت أسبق منه فى الرد: شوّحت بذراعى متقمصاً لهجة أبى حين يريد أن يجهز على موضوع طال بحثه، قلت: «هتلر خلاص انتحر! مات!». نظرة عبدالفتاح القطان التى تجمدت فى عينيه من فرط الذهول ماثلة الآن أمامى. أذكر أن تلك النظرة رفعتنى عن الكنبة ثم هبطت بى عدة مرات ثم تجمدت فوقى حتى ارتعشت من خوف غامض، وطوانى أبى على ركبتيه كأنه يريد أن يخبئنى فيما هو يقرصنى فى شحمة أذنى قرصة

أنا أجيب على هذا السؤال بـ: نعم. فذلك الطفل لم يكن طفلاً فى الفراغ، إنما هو طفل وُلد فى حجر حرب عالمية ثانية، فى قرية من دولة تخضع لاحتلال إنجليزى منذ ما يقرب من سبعين عاماً. فمثلما ينتج الفقر المدقع طفلاً مهلهل الثياب مهزول البدن فالاحتلال والحرب ينتجان طفلاً عجوزاً تنطبع الهموم العامة على نفسه وذاكرته ولسانه. قريتى فى ذلك الحين. شباس عمير مركز قلين محافظة كفرالشيخ. كانت على درجة عالية جداً من الوعى السياسى، نلمسه فى خُطب المساجد التى لا تكف عن التنديد بالاحتلال وجنوده وأذنابه، والشبان من أعضاء حزب الوفد يجعلون من المصاطب ومن دكاكين الخياطة والبقالة منابر سياسية، والجمعيات التعاونية الأهلية لمعاونة الفلاح لاتنى تعقد اجتماعات فى الأجران لإجراء انتخابات مجالس الإدارة، فتشهد القرية عدة أيام من النشاط حيث كل مرشح يدعو لنفسه بالمقابلات، ويصل حماس الموالين لبعض المرشحين إلى القيام بمسيرة هتافية فى شارع داير الناحية؛ وكل ذلك يولد مناقشات، والمناقشات تطرح أفكاراً ومعلومات، واشتباكات ومعارك قد ترتفع فيها النبابيت والفئوس إلا أنها تقف دون القتال إذ لابد أن يظهر من يوقف المتعاركين عند حدهم، فدائماً أبداً هناك كبير يوقره الناس ويمتثلون لأوامره. وأجمل أساليب الدعاية حينذاك هى الأزجال التى كان ينظمها لفيف من الشباب الذين يجيدون القراءة والكتابة وعلى رأسهم قمر الدولة الشرنوبى أحد مدرسى مدرسة القرية،

فقد لقيت أزجاله شهرة واسعة النطاق لأنها إلى جمال نظمها وسيولة قوافيها كانت تهاجم العمدة المستبد المنتمى لعائلة غير وفدية.

الجالسون فى مندرتنا ليلاً أو نهاراً تبلغهم أصداء الاشتباكات وهياج الأصوات فى شارع داير الناحية البعيد عن مندرتنا بمقدار طول حارتنا وهى عبارة عن صف من الدور المتقابلة لا يزيد على ثلاثين داراً وتقع دارنا فى قاعها البعيد كأنها الإدارة المركزية لهذه الدور. ومن حين لآخر يدخل المندرة قادم جديد من أبناء عمومتى أو من أصحابهم؛ عندئذ يتجه إليه الجالسون سائلين فى شغف: «إيه اللى بيحصل بره يا فلان على الزريبة؟». والزريبة يعنى المساحة المتاخمة لحارتنا من شارع داير الناحية. فيقول هذا الذى سئل: «ده فلان بيتشاحن مع فلان». وهذا جواب غير شاف، ولهذا ما أن يدخل قادم آخر حتى يبادروه قبل أن يجلس: «مين اللى بيتخانق بره يا فلان؟». فيقول ما رآه فعلاً: «ماشفتش حد بيتخانق». وهكذا إلى أن أدخل أنا، فأفاجأ بصيحة «جماهيرية» هائلة تهتف فى استقبالى:

..«بس! هو ده اللى حيحكى لنا ع اللى حصل من طقطق لسلامو عليكم! اقعد يا خيرى! إيه اللى كان بيحصل بره ع الزريبة! قول كل حاجة!».

أرى فى عينى أبى لمحة قلق تكاد ترجونى ألا أتحدث حتى لا أتعرض لحسد الحاسدين من هؤلاء لاسيما أن بعضهم يصف عياله. قياساً على طلاقتى فى الحديث. بالنعاج البكماء. وفى نفس الوقت أرى فى عينى أبى فرحة وانتظاراً لما سوف أحكيه. الواقع أن قوة فى الأرض لن تمنعنى من الحكى لحظتئذ. فهذا التهليل الشغوف يشعرنى بلذة فائقة. هل أحكى ما دار بينى وبين العيال من لعب وخناقات وتمزيق ثياب؟ أم أحكى كيف طاردنا كلاب البلدة كلها بقيادة محمود الأقرع؟ أم كيف ملصنا كيزان الذرة من أرض البكاروة وشويناها فى ركية نار من حطب سرقناه من دار كحكاية وكدنا نشعل حريقاً؟.. كل هذا. على أهميته بالنسبة لى كواقع يومى. لم أعد أهتم به منذ أن اعتدت هتاف القوم فى استقبالى لكى أحكى لهم ماذا دار فى الخلاء.. لقد أمسيت شديد الانتباه لكل ما يصادفنى فى الطريق من مرئيات وأحداث. وجاء حين من الدهر نسيت فيه مهمة الانتباه لدرجة أننى كنت أفاجأ كل ليلة بما هو مطلوب منى، إلا أن الصدفة لم تكن تلعثمنى: إنما كنت. دائماً أبداً. أجد فى جعبتى ما أحكيه لهم بالتفصيل وأتلذذ بمنظرهم وهم ينصتون لى فى شغف كبير كأننى من عتاة الوعاظ.





بـــوح عـــلى بـــوح

يجب أن أشكر ذلك العبقرى الكولومبى جابرييل جارثيا ماركيز على سيرته الذاتية: «أن تعيش لتحكى». لأنه بهذه السيرة الذاتية. وياللعجب حقاً. قد علق على صدرى، صدرى أنا، الكثير من الأوسمة: هل كان يكتب قصة حياته أم قصة حياتى وهل كان يريد إبراز الشقاء الإنسانى فى قرية على شاطئ الكاريبى أم فى قرية مصرية على فرع من فروع النيل الأسمرانى؟ إنه لشىء مذهل حقا أن يكتشف الإنسان لنفسه توأم لم تلده أمه ولم يضع أبوه بذرته، وأن رباط التوأمة الإنسانية أعمق وأشد وثاقة من توأمة الرحم. إن التجربة الإنسانية الحقة حين تعبر نفساً صافية تصبح الرحم الأعظم، أعمق وأنفع للبشرية من جميع الأرحام التى لا تنى تزحم الكرة الأرضية بملايين من الإخوة الأعداء يتقاتلون على مواريث تافهة ومكاسب هزيلة إن عظمت أو سمنت هى فى النهاية أقنعة للأنانية وذرائع لسفك الدماء. إن الثقافة هى المبرر الوحيد المبهج لاستمرار الحياة على الكرة الأرضية أياً كانت اللغة التى تنطق بها؛ وما الثقافة إلا الأدب؛ وعاء التجربة الإنسانية، متى وجدت فى أية لغة ستترجم عن نفسها بنفسها، لنفسها: ما أجمل أن أكتشف لى أباً روسياً اسمه تشيكوف بين جسور التآخى بين أهلى الفلاحين وأقرانهم فى الروسيا؛ أو أباً فرنسياً اسمه بلزاك يرينى كيف أن حضارة أوروبا تمشى فى طريق مسدود تخسر فيه كل العلاقات الطيبة والقيم النبيلة، أو اكتشف لى توأماً كولومبياً اسمه جابرييل، أو جبريل جارثيا ماركيز أرى فى مرآته الصقيلة تفاصيل حياتى، فأحترمها، أحبها، استمد منها الدفء والإلهام والصدق. إن تناوله لسيرته الذاتية على هذا النحو الإنسانى النبيل قد عملقنى، بعث فى نفسى شمساً جديدة مشرقة: أوقفنى فى موقف العزة وقال لى: شقاؤك هو الحقيقة الوحيدة المحترمة فى الوجود كله وماعداه زور وبهتان وزيف.

البوح والاعتراف جبلة فطرت عليها وهذا من حسن حظى. بسبب هاتين الصفتين نفر منى سماسرة التجنيد للتنظيمات الشيوعية على أساس أننى لا أقوى على الاحتفاظ بسر. وقد حمدت الله فعلاً على أننى لم أخض تجربة التنظيمات السياسية لأنها ضد تكوينى الإنسانى. هذا لا يعنى أننى ضد التنظيمات السياسية، فلى أصدقاء خاضوا تجربة التنظيم السياسى وقدموا تضحيات جسيمة فى سبيل مبدأ آمنوا به، لهم منى كل الاحترام والتقدير. وفى المقابل يوجد بينهم عناصر فوضوية عدمية ابتزازية تستحق الضرب بالحذاء صبح مساء. أذكر أننى دعيت من الشاعر المذيع الصديق فاروق شوشة للمشاركة فى حلقة من برنامجه: «أمسية ثقافية» مع الصديقين العزيزين جمال الغيطانى ويحيى الرخاوى بمناسبة حصولنا على جائزة الدولة التشجيعية لعام ألف وتسعمائة وثمانين من القرن الماضى، هما عن الرواية وأنا عن كتاب لى فى أدب الرحلات بعنوان: «فلاح مصرى فى بلاد الفرنجة». وفى التسجيل سألنى فاروق شوشة عن علاقتى بأدب الرحلات وكيف تأصل فى وجدانى: كان السؤال مفاجئاً، وبدلاً من أن أحدثه عن كتب كثيرة كنت ولوعاً بها لأنيس منصور والدكتور هيكل عن منزل الوحى وأحمد حسنين باشا عن استكشاف الصحراء، غلبنى الدفق التلقائى فتحدثت عن ابن عم لى اسمه «صادق» كان يعمل بائعاً سريحاً للعطارة والتوابل والكحل والبخور وما إلى ذلك، يحمل «خرجاً» ضخماً على كتفه يجوب به القرى والبلدان البعيدة حيث ينادى على بضاعته فتلتم حوله النساء للشراء. وكان خصب الخيال، طويل البال، لبق العبارة، لطيف المعشر؛ رحلته لا تقل عن ثلاثة أشهر يقضيها فى بلاد بعيدة لا نعرف عنها أو عنه شيئاً؛ وفجأة يعود، فتعيش مندرتنا ليلة من أجمل لياليها؛ فصادق فى فترة سابقة من حياته كان يحترف العزف على الربابة وإنشاد السيرة الهلالية تستضيفه طوائف من الأعيان فى البلدان، ولكن مع بداية خمسينيات القرن الماضى بدأ جهاز الراديو يدخل بيوت أعيان القرى فكسدت ليالى صادق فتحول إلى تجارة العطارة وأفلح فيها. وقد اعتاد أن يحكى لنا تفاصيل رحلته فى المندرة من أول ما خرج من بلدتنا إلى عودته. كانت لديه حصيلة كبيرة جداً من لغة الإنشاد الملحمى، وسليقته الشعرية نشطة كبديهته، فكان يستخدم هذه الحصيلة فى حكى تفاصيل رحلته: ماذا حدث له فى مختلف البلدان؟ كيف كان يبيت ويصحو؟ من قابلهن من نساء؟ ما الأسواق التى كان يفرش فيها؟ ما الصفقات الكبيرة التى نجح فى إبرامها؟ كيف نصب عليه النصابون وكيف نصب هو على عتاة النصابين؟ أين ذهبت تلفيعته الكشمير التى رافقته سنين طويلة؟.. قال:

..«أمسى علىّ الوقت فى بلدة قُرب شربين! ونمت فى حجرة فيها البرد يضنينى! فأشعلت ناراً تدفينى! فطارت علىّ شرارة بكرارة فصارت التلفيعة غباراً فى الجو يعمينى!».

لابن عمى ذاك. يرحمه الله. فضل كبير فى تحريك خيالى بما كان يحكيه عن رحلاته من أشياء مبهرة. منه وحده أدركت مبكراً أن الدنيا واسعة جداً، والناس أنواع لا حصر لها، وعلى حد قوله فى إحدى أغنياته الفولكلورية: «البحر واحد.. واحد.. والسمك ألوان».

بعد إذاعة تلك الحلقة من الأمسية الثقافية التقانى على مقهى ريش واحد من محترفى الحنجورى فى التنظيمات السياسية؛ أخذنى على جنب وهنأنى بالجائزة وبالبرنامج ثم علق بلهجة استنكار فاجعة: «كيف تعترف أن ابن

عملك كان بائعاً سريحاً؟ الإنسان لا يتباهى بعاهاته!». قلت له: «ماذا لو عرفت أننى أنا نفسى كنت بائعاً سريحاً؟!». قال: «فليكن ولكن هذا لا ينبغى أن يقال على الملأ فى التليفزيون». فتركته ومضيت دون تعليق، ولكننى كنت مندهشاً من الحرارة التى يتكلم بها. فالواقع أنه كان يمثل رأياً عاماً مستقراً ليس بين المثقفين فحسب بل بين جميع فئات المجتمع حيث يؤمن الجميع بالمأثور الشائع: «إذا بليتم فاستتروا». وهذا هو السر فى أن الجميع يلبس الأقنعة، يعيش بشخصية مزدوجة، يكذب ليتجمل.. وهذا هو السر أيضاً فى أن أدبنا العربى لم يعرف من السيرة الذاتية بمعناها الحقيقى القائم على البوح والاعتراف خدمة للحقيقة الموضوعية التى بدون التكريس لها لن يتعلم المجتمع ولن تصفو نفسيات بنائه مطلقاً.

فى سيرته الذاتية: «أن تعيش لتحكى»، تصفو نفس جابرييل جارثيا ماركيز إلى حد الشفافية الكاملة. كان يريد أن يكشف عن منابع إلهامه، مصادر أعماله الفنية الكبيرة التى باتت تشكل ملمحاً رئيساً فى وجه الأدب العالمى، ودرساً فى عالمية الأدب، ورصيداً كبيراً فى بنك التجربة الإنسانية يضاف إلى رصيد كل قارئ على حدة.. فإذا بشفافيته المرهفة تغوص فيما هو أبعد وأعمق، فى البناء الإنسانى، يكشف عن جرائم السياسة التى لا تغتفر. يكشف كذلك أنه لا قيمة لأى أدب أو سياسة أو لأى عمل مالم يتعامل الإنسان مع الحياة بمثل هذه الشفافية وهذا الصدق وهذه الصراحة المطلقة أما التذرع بتحسين صورة الإنسان فى المجتمع والخوف من الفضح فهذه محض بلاهات تكرس لاستمرار الزيف حاكماً وسيفاً مسلطاً على رقاب العباد.

لم يكن والد ماركيز طبيباً ولا صيدلانياً، ومع ذلك كان يمارس عمل الطبيب والصيدلانى معاً. ويبدو أن نظام الحياة فى القرى الأمريكية الجنوبية كان يسمح بهذا. وهو شيء مروع إذا نُقل إلينا كمعلومة ضمن تحقيق صحفى أو مشاهدات سياحية فى أدب الرحلات. بل إن الأدب الروائى نفسه، الذى من المفترض أنه الترجمان الصحيح لحياة الشعوب وهو الذى يقرب إلى إفهام قراءة الشعوب الأخرى كل ما يبدو معقداً وطقسياً غامضاً فى حياة القوم الذين ينتمى إليهم الروائى ويتخذهم مادته الروائية.. هذا الأدب نفسه لا يفلح فى إعطائنا تفسيرات لكثير من الظواهر الاجتماعية الغريبة أو السلوكات المعقدة الغامضة. ذلك أن التقنيات الفنية الخاصة بكل فن من الفنون بقدر ما تساعد الكاتب على الكشف والتنوير والتحليل وإضاءة البنيان الدرامى للعمل الفنى فإنها تمنعه من الاستطرادات التى قد تصيب العمل بالترهل والتفكك وفقدان الفاعلية بل وفقدان القيمة أحياناً، كما أنها، التقنيات، كثيراً ما تجرد العمل الفنى من خلفيات تاريخية أو سياسية أو اجتماعية تعتبر ضرورية لفهم العمل وتمنحه المصداقية والقدرة على الإقناع؛ وهذا هو السر أن روايات وقصص ومسرحيات وأفلام سينمائية كانت على مستوى فنى رفيع جداً ومع ذلك تفشل فشلاً ذريعاً على النطاق الجماهيرى وأحياناً الجماهيرى والنقدى معاً.

ولكن السيرة الذاتية فن يكتسح كل المعضلات وتبعث الضوء فى كل حنية من الحنايا. إن التقنيات الفنية التى يبتدعها الفنان لخلق «نظام فنى» يساعده على تقديم عالم إنسانى يضاف إلى رصيد التجربة الإنسانية، والتى من المفترض نظرياً أنه المتحكم فيها، سرعان ما تتحول إلى قيود تتحكم فى الفنان ويصعب عليه الفكاك منها، ومع ذلك لسنا ندعو إلى الانعتاق منها والتمرد عليها وإلا تحول الفن إلى فوضى يقتحمها كل دعى نصاب، إنما ندعو إلى الدخول فى حوار معها، حوار عملى، بتقديم محاولات لتوسيع المفاهيم أو تعديل بعضها أو استنباط تقنيات جديدة تُستمد من طبيعة العوالم الجديدة التى يقدمها الكتّاب الأفذاذ أصحاب المواهب الضخمة التى تسهم فى تطوير التقنيات وابتكار تقنيات جديدة ومن هؤلاء جابرييل جارثيا ماركيز. ومن هنا أهمية أن تقرأ سيرته الذاتية لكى نقف على منابع الإلهام ومصادر الأفكار والشخصيات فى حياته؛ ونحن نتوقع، بداهة، أن مبدعاً من هذا الطراز لابد أن تكون حياته ثرية ثراء فاحشاً؛ وثراؤها ذاك مرهون بالطريقة التى يتناول بها تلك الحياة: فالواقع أن حياة أى واحد، حتى من الدهماء، ثرية بالتجارب والأحداث والمعطيات ولكنها ستبدو فقيرة قاحلة إذا لم تكن قدرته على التعبير فى مستواها. ليس هذا فحسب، بل إن القدرة على التعبير نفسها مرهونة بطبيعة المجتمع الذى يعيش فيه الكاتب، فإن كان يعيش فى مجتمع كمجتمعنا العربى يكرس للكذب من أجل التجمل، ويكرس للنفاق والمخاتلة والمداهنة وتملق الحكام، والالتفاف حول المشاكل دون حلها، ومراوغة العدو دون مواجهته، وتسود فيه مفردات من قبيل الطرمخة والطناش والطرشة وما إلى ذلك من مفردات التخلف، فلا تنتظر من كاتب يعيش فى مجتمع كهذا أن يواجه نفسه، مجتمعه، أولى الأمر فيه، فإن شذ كاتب وقدم نفسه للمجتمع بدون أقنعة كما فعل لويس عوض فى أوراق العمر فإن فضيحة كبرى فى انتظاره وقد ينبذه المجتمع، ويقدم للمحاكمة بعشرات من التهم!!

السيرة الذاتية لابد أن يكتبها صاحبها بقلمه لكى تسمى سيرة ذاتية، لابد من التأكيد على هذا لأن الجميع، وكثيراً من المثقفين مع الأسف، يخلطون بين السيرة الذاتية والسيرة التاريخية أو الترجمة، فإذا كتب أحدهم كتاباً عن حياة شخصية من الأعلام قال المعلقون إنه كتب سيرة ذاتية لفلان!

قلنا إن والد ماركيز لم يكن طبيباً ولا صيدلانياً ومع ذلك كان صاحب صيدلية، وكان يجرى بعض العمليات لبعض المرضى. وإذ يقدم لنا ماركيز هذه الصورة فى سيرته الذاتية فإن حسه الروائى المرهف يوحى إلينا بأن لا نستنكر هذا الأمر، لأنه يقدم الصورة ضمن نسيج اجتماعى تتشكل منه حياة مجتمع برمته، يجيئنا عبر عدسة فنان تنعكس فى بؤرتها صورة مجتمعه وصورة مجتمعنا نحن العرب، يتبادلان الصدارة، تنسحب صورة المجتمع الكولومبى لتحل محلها صورة المجتمع المصرى العربى لكى تفضى بسر من أسرارها ثم تنسحب أو تختفى تحت صورة المجتمع الكولومبى وقد حدث بين المجتمعين ما يشبه التلاقح فى المخيلة القارئة، المتلقية. ومعنى ذلك أن الصراحة المطلقة والحرية المفتوحة التى يتمتع بها ماركيز فى الكتابة جعلت من التلقى، حتى فى دولة أخرى، إيجابياً.. جعلتنى أستدعى صورة حلاق الصحة فى قرانا المصرية وقد كان بمثابة طبيب فى القرية ويمارس العمل بترخيص من الحكومة، يضرب الحقن ويعالج العيون والبطون ويجبر الكسور.. إلخ، وفى بيته صيدلية مصغرة فيها أدوية مقفولة وأخرى تركيبية من صنع يديه.

إيجابية التلقى تتحقق على أفضل نحو فى قراءة السير الذاتية بوجه خاص، وسير الأدباء والفنانين وقادة الجيوش بوجه أخص. ذلك أن السيرة الذاتية هى فن البوح، والفضفضة، والشفافية، ومراجعة النفس، وحساب ما تبقى من الأرصدة، ومحاولة الوقوف على المكسب والخسارة فى رحلة حياة استغرقت عمر الحيوية فى بدن الإنسان. وليس صحيحاً أن هذا الفن العظيم قد غاب عن الأدب العربى قديمه وحديثه على السواء لأنه يقوم على فكرة الاعتراف وهى تقليد مسيحى ينفر منه المسلمون بوجه عام، لا. هذا رأى خبيث أشاعه نظام حياة يخشى مواجهة الحقيقة ويقطع الطريق على كل من يحاول الكشف عن المكنون من أسرار قد تصيب رءوساً كبيرة فى دست الحكم.

فن البوح والشفافية والتجرد من أورام الهوى الشخصى، هو خير علاج للنفوس، البواح والمتلقى على السواء. وإيجابية التلقى تتحقق لأن نوعاً من اختلاط الأوراق لابد أن يحدث بين هذين الطرفين القطبيين: البواح والمتلقى، إنهما يتبادلان الأمكنة. أثناء القراءة ينفعل المتلقى بما وصله، تسقط الفواصل، قد يشعر القارئ أن الكاتب كان يتجسس عليه هو، يترصد حياته هو، وكلما تشابهت الأحداث والأيام والمواقف ترادفت المشاعر وتلاحمت، وتماهت النفس مع النفس. وإذن فإنه فن غسيل النفس، البواح يغسل بالبوح نفسه، والقارئ يغسل بالقراءة نفسه، يستكمل ذاته، تنفعص الدمامل فى داخله وتلفظ أم القيح مصدر الألم، تطيب جروحه. فكم من أفعال فرض على الإنسان أن يفعلها رغماً عنه ويظل طول عمره يحمل وزرها والشعور بالذنب إلى أن يقرأ فى إحدى السير الذاتية مثيلاً لها مر به رجل أقدر منه فهماً وأوسع تجربة وأعمق إدراكاً للأمور، فيفهم عنه، يضع يده على الحقيقة، يتحقق له الشفاء، وتصفو نفسه، يعدو إنساناً سوياً.

والد جارثيا ماركيز استدعى والدى، لم يتخرج فى كلية الحقوق، لم يكن محامياً ولا قاضياً، إنما كان، وياللعجب، مرجعاً لهذا وذاك. سنوات طفولتى شهدت فى مندرتنا طوائف من أهل القرية يحكون لأبى أحداثاً وأوضاعاً ومشاكل عويصة مركبة ومعقدة، يطلبون منه التكييف القانونى لها: إلى من يلجئون؟ إلى الشرطة ببلاغ؟ أم إلى المحكمة بقضية؟ وما نوع هذه القضية وما اسمها وفى أى دائرة يرفعونها؟ أجنائية هى أم مدنية؟ ومن من المحامين «يسلك» فى

مصدر ابتهاجى وفرحى أن ارتحالى الحميم فى وقائع السيرة الذاتية لجابرييل جارثيا ماركيز يضىء لى حياتى أنا، ويوثق لى ما سبق أن كتبته من قصص وروايات!! إننى فى الواقع أغوص فيها على صعيد الوقائع الحياتية التى أكاد أزعم أننى أعيها منذ تعلمت النطق، وصعيد النتاج الأدبى

هذا النوع أو ذاك من القضايا؟.. إلخ.. يحدث هذا فى الفترة ما بين أذان العصر وأذان العشاء إذ أنه يسافر كل يوم إلى مدينة المركز لتخليص أعمال قضائية وإدارية لأهل القرية نظير أجر معلوم، يمشى على قدميه ستة كيلومترات ليركب القطار من محطة شباس الشهداء أو البكاتوش، وبعد منتصف النهار ينزل فى واحدة من هاتين المحطتين ليمشى سيراً على قدميه نفس المسافة عائداً إلى القرية حيث يتغدى ويتمدد قليلاً ثم يستلبه الناس من النوم. أما فى المساء فكثيراً ما نفاجأ بركائب تحمل أرهاطاً من المحامين الشبان أو الشيوخ جاءوا لزيارتنا من بلدان مجاورة ليعرضوا على أبى ألواناً من القضايا يطلبون الاسترشاد برأيه فيها: هل يقبلونها؟ ما نسبة البراءة فيها؟ وما الدفوع التى يمكن أن يتقدموا بها لضمان البراءة أو حكم مخفف؟.. إلخ.. وتحفل ذاكرتى بأمسيات ممتعة غاية الإمتاع وأنا أستمع إلى تلخيصات لأحداث جرى فيها قتل أو نهب أو هتك عرض أو اختلاس أو تزوير أو خيانة أو تفريط فى أمانة؛ ويتصادف أن يكون فى القعدة أطراف متعددة ممن اعتدى عليهم أو ممن قاموا بالعدوان، فيتدخل هذا لتصحيح معلومة، ويتدخل ذاك للتذكير بحدث سابق كان من بين أسباب العدوان. ما أمتع أن أستمع إلى تحليل أبى وهو بعبقريته الفذة يقيس هذا الحدث أو ذاك على المادة كذا من القانون الفلانى، وتتردد على لسانه، من الذاكرة!!. أسماء ومسميات وعناوين تتداخل فى ذاكرتى: قانون الإجراءات.. عبدالرزاق السنهورى.. وحيد رأفت.. الهلباوى.. عبدالفتاح باشا الطويل.. محكمة أول درجة.. الاستئناف.. الطعن.. قلم المحضرين.. إلخ. وتصل المتعة إلى ذروتها حين يقرأ أبى على ضيوفه مذكرة كلفوه بكتابتها وجاءوا لاستلامها، حيث يقرأها بلغة عربية غاية فى الفصاحة والبلاغة والجزالة لدرجة أن المستمعين كانوا وراءه كالكورس لا يكفون عن التعليق: يا سلام.. الله الله الله.. يا مساء التجلى.. إلخ. وأصل الحكاية أن أبى وهو موظف سابق بمصلحة الفنارات بالإسكندرية كان عضواً بالجمعية العمومية لحزب الوفد وجميع أصدقائه من رجال القانون وأساتذته ولما كان هو مغرماً بدراسة القانون فقد تفقه فيه معتمداً على نفسه يشترى الكتب والمصادر ومجلة المحاماة. وكان هو السبب فى إحساسى المبكر بجمال اللغة العربية، وكنت أقلده حين أقرأ للناس فى الدكاكين فصولاً من السير الشعبية. وبدورى أحببت القانون لكننى نفرت من دراسته نفورى من دراسة الجبر والهندسة والحساب، ولا أزال إلى اليوم إذا أردت أن أعد ألف جنيه مثلاً اضطر إلى تقسيمه إلى مئات أضعها بجوار بعضها ويختل ذهنى عند مراجعة المئات ما لم أضع يدى على كل مائة قائلاً: الله واحد.. مالوش تانى.. العدد ثلاثة.. إلخ.





بـــوح عـلى بـــوح

كسدت تجارة الأب ماركيز. أغلقت الصيدلية باتت الأسرة فريسة للعوز.. عيال كتار، أب رخو، وأم قوية الشخصية جداً، فيها شبه كبير من بطلة روايتى (الوتد) الحاجة فاطمة تعلبة، التى كانت فى الأصل زوجة عمى محمود. سافر الأب ماركيز إلى أحد البلدان البعيدة على شاطئ الكاريبى ليبحث عن شغل. ترك الأم بعيالها تعانى من شظف العيشة وتحاول تدبير أمورها بقروش زهيدة كان الأب يرسلها من حين لآخر مع رسالة مبتسرة تفيد أنه لايزال يبحث، وأخيراً انقطعت رسائله تماماً، انقطعت الصلة بينهم وبينه، لا يعرفون له مكاناً أو عنواناً. كابدت الأم وعيالها ظروفاً غاية فى الصعوبة والشقاء، ولولا قوة بأس الأم وقدرتها على التصرف لانهارت الأسرة انهياراً تاماً.

فى بلدتهم رجل ثرى من أصحاب القصور الفخمة المنيفة، مشهور بأنه فاعل خير، يتبرع كثيراً للجمعيات الأهلية، وللملاجئ، ودور الأيتام، والمستشفيات، ومعروف أنه يساعد فى السر مجموعة كبيرة من الأسر الفقيرة يبعث لأفرادها مرتبات شهرية؛ ولم يقصده طالب حاجة إلا رده مجبور الخاطر.

فكرت أم ماركيز فى اللجوء إلى هذا الثرى الكبير القلب. كتبت له خطاباً شرحت فيه ظروفها التعسة، وضعته فى مغلف، ألصقته، أعطته لابنها جابرييل وأوصته أن يذهب إلى قصر الثرى ويسلمه هذا الخطاب ومن المؤكد أنه سيعطيه ما فيه القسمة. جابرييل فى ذاك الزمان عمره اثنا عشر عاماً، يعنى فى مرحلة الدراسة الثانوية. لم يناقش أمه، لم يفكر فى شىء اسمه الكبرياء، أخذ الخطاب من سكات وتوجه به إلى القصر، صعد سلم الشرفة، نقر على زجاج الباب نقراً خفيفاً خجولاً؛ فى الباب طاقة تتسع بالكاد لدماغ الإنسان، انفتح بابها من الداخل، أطل منه وجه كالح لامرأة عجوز متجهمة الملامح، سألته بجفاء: نعم؟ مد يده بالخطاب، تناولته وأغلقت باب الشراعة. جلس الصبى جابرييل إلى إحدى الدرج ينتظر الرد، مكث حوالى ست ساعات. يا ربى!. وأخيراً قام وطرق باب الشراعة من جديد، انفتح بابها، أطل منه وجه العجوز، سألته بجفاء كأنها لم تره من قبل: نعم؟ قال لها إنه صاحب الخطاب الذى أعطاها إياه فى الصباح، قالت بنفس الجفاء: تعالى يوم الثلاثاء القادم. ذهب إليها يوم الثلاثاء، تكرر الموقف، قالت له: الثلاثاء القادم. ذهب إليها للمرة الثالثة، فتحت له باب الشراعة وصبت على رأسه فاصلاً من التوبيخ استمع إليه فى ذل ثم قفل عائداً إلى أمه وهو فى حال يرثى لها.

يا ربى! هل يستطيع كاتب عربى أن يحكى عن نفسه مثل هذا المشهد؟!

وجعنى قلبى، رأيتنى طفلاً فى السنة الرابعة من التعليم الإلزامى، كنت واقفاً مع زملائى فى المساحة الفارغة أمام باب المدرسة ننتظر أن يضرب الجرس لندخل. كتبى وكراريسى فى مخلاة كانت فى الأصل رجل سروال قديم من سراويل أبى قامت أمى بتخييط أحد طرفيه وصنعت له تعليقة سميكة من بقية السروال. كان من عادتنا إذا مر علينا أحد مدرسينا ونحن فى الشارع أن نقف ونضرب «تعظيم سلام» على سبيل التحية الواجبة للمدرس. وفى ذلك اليوم رأينا مدرسنا الأشقر الأنيق مقبلاً يضع يديه فى جيبى البنطلون، والطربوش الأحمر القانى مائل على جبينه. وقفنا، رفعنا أيدينا إلى رءوسنا بالتحية، فإذا به يحملق فى وجهى من خلف المنظار الطبى السميك بعينين واسعتين، ثم أشار لى بيده فى حركة عدوانية، وبجفاء قال: تعال يا ولد. ذهبت إليه وأنا أنتفض من شدة الخوف: نعم يا أفندى؛ أمسك بيدى، اصطحبنى إلى حوش المدرسة، انتحى بى جانباً:

- «النهارده ايه فى أيام ربنا؟»
- «النهارده السبت»
- «ما سرحتش الغيط ليه ياخويااااه؟»
- «غيط مين؟ إحنا مالناش غيط!»
- «حتتلائم يا ولد؟ أنا متفق مع أبوك ومديله عربون كيلة غله وكيلتين دره!»

تذكرت: كان الإصلاح الزراعى فى ذلك الحين يقوم. نيابة عن أصحاب الأرض. بمقاومة دودة القطن، ويلزم أصحاب الأرض المزروعة قطناً بأن يورد المالك نفراً عن كل فدان، ومن مجموع هذه الأنفار تتكون فرق نقاوة اللطع باليد من شجيرات القطن الخضراء وذلك بقطع الورقة المطلوعة ووضعها فى مخلاة محكمة الإغلاق، ويتم حرق هذه الأوراق فى جورات بعيدة عن الأرض الزراعية. وكان مدرسى ذاك يملك فدان أرض زرعه قطناً، فطولب بتوريد نفر، وهو رجل من علية القوم وأولاده يتلقون العلم فى المدينة، وأولاد الفلاحين منذورون لأرضهم، والأنفار الزراعيون الموسميون يفضلون العمل مع مقاولى الأنفار الذين يوردونهم إلى وسايا خاصة بالإقطاعيين أو أفراد الأسرة العلوية؛ فالمقاولون يدفعون نقوداً حية، والنفر يتفق على شهرين أو ثلاثة فى ترحيلة يقبض عنها مبلغاً إجمالياً لا بأس به يستطيع أن يفعل به شيئاً مهماً. وهكذا فكر مدرسى الفاضل فى نفر من تلاميذه، من ناحية يفيد التلميذ الفقير ومن ناحية مقابلة يستفيد هو من هيبته فى نظر أهل التلميذ الذين بالتأكيد لن يساوموه كثيراً فى قيمة الأجر. يومية النفر الصبى فى ذلك الوقت خمسة قروش فى اليوم فى موسم العمل المزحومة كموسم نقاوة الدودة أو شتل الأرز أو جمع القطن أو حصاد القمح، وثلاثة قروش أو أربعة فى غير هذه المواسم إذ يقل الشغل وتكثر الأنفار. إلا أن هناك نظاماً آخر يتعامل

به أهل القرية الذين لا نقود فى أيديهم معظم أيام السنة: إن الواحد منهم يستأجر النفر طوال موسم نقاوة الدودة مثلاً بخمس كيلات من القمح وكيلتين من الذرة أو الأرز الشعير. فكر مدرسى فى أفقر تلاميذه فتذكر أننى. إلى جانب ملابسى المتواضعة. لا أشترى أى شىء مما يطلبه المدرسون على الإطلاق: لا كتب خارجية ولا أدوات هندسية ولا ورق تجليد ولا أى شىء من هذا القبيل. قابل أبى واتفق معه على أن يكترينى طوال موسم نقاوة اللطع مقابل ست كيلات من القمح وثلاث من الأرز الشعير، مع ملاحظة أن الأرز الشعير بعد ضربه لإزالة القشرة عنه يقل حجمه إلى النصف فتصير الكيلة نصف كيلة. ولهذا ساومه أبى فى إضافة كيلتين من الذرة فوافق المدرس بشرط أن يخصم من الأرز الشعير كيلتين. ولم يكن أبى يتصور أننى يجب أن أسرح مع الأنفار قبل أن تنتهى السنة الدراسية التى توشك على الانتهاء. فلما نقلت إليه احتجاج مدرسى أخذنى وذهب إليه فى منزله. يا إلهى! أية طاقة من المرح وخفة الظل والجنون الحكيم كانت فى ذلك الرجل الذى قدر لى أن يكون أبى؟! أحيانًا كان يخيل إلىّ أن القدر يشاكسه ويشاغبه لا لشىء إلا ليفجر فيه طاقة المرح والسخرية. إنه بالفعل قدر غاشم يضعنا . نحن أسرة ذلك الأب الشجاع القوى. فى مواقف حرجة لا هدف له منها سوى تدمير كبرياء أبى وإذلاله وإرغامه على فعل مالا يرضاه من أجل أن يطعمنا ويكسونا، ولكن عبثًا. فالأب الذى تزوج وهو فوق الستين من عمره طفلة فى عمر أحفاده أنجبت له سبعة عشر ابنًا. كان فى سن الخامسة والسبعين يوم دخلت عليه المندرة بنفس مكروبة حزينة إن المدرس نبّه علىّ أن أسرح من غد مع الأنفار، فانتفض على الكنبة فى تحفز غاضب وراحت قدمه تبحث عن القبقاب الخشبى وهو يقول «ده باين عليه اتجنّ! مش كفايه الزمن خلا ابن أسياده يشتغل نفر عنده؟ وكمان عايز يضيّع عليك سنة دراسية كاملة بست كيلات غله وكيلتين دره؟! تعالى معايه!»، ونهض واقفًا يرتدى الجلباب. أخذت أمى تعيد لف الطرحة حول وجهها لتدارى رجفتها وتشاؤمها من هذه الانتفاضة، قالت بقليل من التحفظ: «اتفاهم معاه بالراحة يابو خيرى ما تنساش اننا خدنا منه عربون وودیناه مكنة الطحين!»، فإذا به يفعل نفس الفعلة التى لا يتورع عن فعلها فى أشد المواقف حرجًا: مدّ أصبعه الوسطى معقوفًا يغرف به الهواء نافخًا شدقيه ليضرط بفمه، ثم سحبنى ومضى يتوكأ على العصا ويطرقع بالقبقاب فى الأرض محدثًا ضجة هائلة. فلما أوشكنا على بلوغ باب بيت المدرس تصادف أن قابلتنا أختى الكبرى آتية من ماكينة الطحين القريبة من بيت المدرس تحمل على رأسها قفة كبيرة بداخلها قفة أصغر فيها طحين كيلة القمح وكيلتى الذرة. صاح أبى فى فرح قائلاً: «بس! كده اتحلت!». ونادى على شقيقتى، فتبعتنا مهرولة تحت حملها الثقيل وقد ظهر عليها التوجس من جنونيات أبيها. وتملقتنى بابتسامة شاحبة لعلنى أخبرها جلية الخبر لكننى ابتسمت بدورى رافعًا كتفى علامة على أننى لا أعرف شيئًا.

نبحنا الكلب بشراسة. فرفع أبى عصاه ليطرق بها الباب فارتد الكلب خاسئًا وهو حسير. نظر المدرس من الشباك، هاله المشهد. «خير يا أحمد افندى؟ فيه حاجة؟!». تحت الشباك مصطبة طينية تطل على حديقة تابعة للبيت. مد يده إلى مقبض القفة: «نزّلى يا بت!». نزلت القفة إلى المصطبة.

إن التجربة الإنسانية الحقة حين تعبِّر نفسًا صافية تصبح الرحم الأعظم. أعمق وأنفع للبشرية من جميع الأرحام التى لا تنى تزحم الكرة الأرضية بملايين من الإخوة الأعداء يتقاتلون على مواريث تافهة ومكاسب هزيلة إن عظمت أو سمنت هى فى النهاية أقنعة للأنانية وذرائع لسفك الدماء

اختفى وجه المدرس ثم ظهر بكامله آتيًا من الباب. صافحنا جميعا بيد رخوة: «أهلاً وسهلاً!». ثم صاح فى الشباك وهو يدفع أبى إلى الجلوس: «إعملوا شاى ياولاد!». وجلس بجوار أبى على المصطبة فيما بقيت وأختى واقفين. نظر المدرس إلى قفة الدقيق فى حيرة: «إيه ده يا أحمد افندى؟!». قال أبى ببساطة: «ده من غير مؤاخذة العربون بتاعك! بدال ما تضيع على الولد سنة دراسية بحالها ويبقى ذنبه فى رقبتنا مدى الحياة!». قال المدرس فى غباء: «يا أحمد افندى خلينا صرحا مع بعض! إن كان على القراية والكتابة الواد خلاص بيعرف يقرا ويكتب! وما أظنش انك ناوى تصرف عليه وتعلمه فى البندر!»، وكان براد الشاى قد عبر من خلال حديد الشباك ومن ورائه الكوبيات الصاج ذات الأذن، وشرع المدرس يصب الشاى، وكان أبى قد أسند ظهره على عوجاية العصا وراح يرمقه فى استهجان مشوب بالكبرياء، ثم اعتدل ورماه بنظرة استخفاف قائلاً فى هدوء وبدون أى انفعال: «يا فلان افندى أبوك يرحمه الله كان يلف المقابر كلها يوم الخميس ليقرأ على الموتى ما تيسر من سورتين اثنتين يحفظهما نظير بعض الرغفان والأقراص اليابسة ومع ذلك استطاع أن يجعلك تنال كفاءة المعلمين وتصبح معلمًا! إن جئت للحقيقة فابنى هو الأولى منك ومن عيالك بالتعليم لأنه من بيت علم عمره خمسمائة عام على الأقل!». كان المدرس يخشى بأس أبى. ويعرف جيداً أن أبى إذا وضعه فى دماغه سينغص عليه عيشه وقد يتسبب فى رفته من وظيفته: فأخذ يجر ناعم. ويضحك فى أريحية. ويربت على كتف أبى فى حنو: «أنت أب لى يا أحمد افندى وأصلك معروف ومقامك محفوظ! لا أنا ولا أتخن منى يقدر على زعلك! دع ابنتك تعود بالطحين إلى البيت كهدية منى لك أما الولد فليذهب إلى المدرسة ولاداعى للشغل! سأبحث عن نفر جديد تفضل الشاى». أشار أبى لنا أن نمشى. ثم نهض واقفًا: «أما أنا فلن أطالبك بما دفعته لماكينة الطحين! هو هدية منى لك! يلا يا ولاد!». ومضينا وراءه تاركين المدرس فاغرًا فاه لا يجد ما يقول. كانت أختى تحبس دموعها؛ ومع ذلك حين ارتاعت أمى من شكلنا إذ ندخل عليها بغير طحين وسألت أختى من حلق جاف: «فين الطحين يا بت؟!»: شوحت أختى قائلة: «يغور من وشه!». فأسندت أمى صدغها على كفها وغمغمت من بين أضراسها: «طالعة لابوكى! فقر وقنزحة؟!». ورمقتنى بنظرة تطق شررا. شعرت أنها تحملنى مسئولية ما حدث فمادت الأرض بى وانفرطت دموعى حزنًا على شكل أمى البائس القليل الحيلة. أما أبى فبكل بساطة نظر فى ساعة جيبه ثم وقف على الكنبة وشرع يقيم صلاة العصر كأن شيئًا لم يكن.

إيمان أبى بالله كان غاية فى الرسوخ ويحظى منى بتقدير عظيم. ففى صبيحة اليوم وبينما كنت أتأهب للذهاب إلى المدرسة ويتأهب أبى للسفر إلى مدينة دسوق لمباشرة البحث عن رزقه جاءه الفلاح على سرحان الذى كان على موعد للسفر معه ليقوم أبى بتخليص مأمورية له فى الشهر العقارى: فجلس يشرب الشاى معنا قبل أن يتوكلا على الله، فإذا به يسأل أمى: «ماتعرفيش يا أم خيرى حد عنده نفر ينقى دودة؟ أصلى مزنوق فى أربع تنفار عشان أربع فدادين قطن! لقيت نفرين وعايز كمان نفرين!». تسلقت الدماء تقاطيع وجه أمى، سألته فى الحال: «بكام؟». قال: «ستة غلة وستة دره!». عدلت أمى طرحتها وهى تقول: «لو ماكانش الواد ابنى عنده مدرسة كنت اديتهولك!». فصاح مبتهجًا وهو يشير نحوى: «ابنك ده؟! أزودكم كمان تلاتة رز! احنا فى ديك الساعة؟ وهى المدرسة فاضل لها كام يوم يعنى؟ مش غايته اسبوع ولا تمن تيام؟ يخلص المدرسة ويجينى!». وعندما وقف وتطوع بحمل حقيبة أبى قال لأمى: «ابعتى حد من طرفك لدارنا ياخد اللى تعوزوه! ده أنا معنديش أعز من ابنك ده بالذات! ياسلام عليه وهو بيقرا لنا فى ابوزيد فى دكان البربرى! مش عايز حاجة من دسوق اجيبها لك معايه؟ طب إيه رأيك حاقطع لك جلابية زفير محترمة؟ أنا حاجيب لنفسى وأجيب لك بالمرة! دى من عندى كده محبة ليك! ربنا يوفقك!». عندئذ نظر أبى لأمى نظرة ذات معنى وقال: «شفتى يا مره؟ إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء! مين اللى يشاء؟». تلعثمت أمى. فهتف على سرحان: «ربنا طبعاً ودى عايزه سؤال؟». قال أبى: «سبحانه وتعالى! بس المعنى اللى فى مذهبى حاقول لك عليه عشان المره دى تتعظ! معنى الآية الكريمة دى يا مره: اللى عاوز يتعز.. ربنا يعزه.. واللى غاوى ذل.. ربنا يذله!.. هه؟ فاكره امبارح يا مره؟ رفضنا الذل وطلبنا عزة النفس! ومافاتش علينا سواد الليل إلا وربنا عزنا اهه! فهمتى يا مره؟ والله ما انتى فاهمه حاجة! يلا بينا يا سى على!». ونظر فى شطفة المرآة المعلقة ليعدل فيها طربوشه قبل أن يخرج. فيالها من عزة تلك التى طلبها أبى وحمد الله عليها كأنه قد رفعه إلى أعلى عليين. إنما قد بقى فى ذهنى إلى اليوم ذلك التفسير الذى ابتكره أبى لمعنى الآية الكريمة إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء.

علاقتى بأدب جارثيا ماركيز كانت وبقيت شديدة الخصوصية. ومنذ أن اكتشفته فى أواخر ستينيات القرن الماضى من رواية (ليس لدى الكولونيل من يكاتبه)، وبعدها مباشرة رواية (مائة عام من العزلة) فى طبعتها البيروتية كان يدهشنى ذلك التطابق فى الأفكار، فى كثير من الموتيفات: من اللفتات، وجهات النظر، استخدام الرموز، الانتماء الفنى الكامل لألف ليلة وليلة وللرومانسى العربى المتمثل فى السير الشعبية التى تربيت عليها قبل أن أعرف الأدب الرسمى بله أن أعرف الأدب الأوروبى والأمريكى.. كان يدهشنى ذلك التشابه فى الولع بشخصيات بعينها، بأجواء بعينها. ذلك التشابه فى إيمان كل منا بالأسطورة باعتبارها أحد مستويات الواقع: فمنذ أن بدأت أكابد الكتابة وأنا أظننى منفردًا فى شىء مهم، هو الاعتقاد بأن ما نسميه بالخرافة ليس

كتاب الزاوية

داقوق وكركوك

اشتهرت مدينة داقوق بكونها مدينة تضم ضريح الحسين بن الإمام على، ولذا فهى موضع توقير المسلمين، ولكن لايزال الجدل محتدمًا فيما إذا كان لهذا المكان شرف احتواء رأس الحسين. فى حين أن هناك بناية مشابهة فى نصيبين تحتفظ بجسده، ومع ذلك فهو مكان عظيم يؤمه جمع كبير من الزائرين، وفيما مضى كانت حلقة من الحديد علقت بواسطة سلسلة، شىء ما يشبه ذلك العمل البارع الذى مارسته البلاد قديمًا للكتاب المقدس والمفتاح، فقد اعتادوا التفكير فى رغبة من الرغبات، ومن ثم يضعون السلسلة فى وضع من الحركة مقرر سلفًا، فإذا عادت الحلقة المتحركة إلى سبابتهم التى يجعلونها ثابتة ساكنة، فإن أمنيتهم سوف تتحقق، لكن سليمان باشا بغداد، وضع حدًا لهذه الممارسة بإنزال هذه السلاسل.

وفى اليوم التالى سافرنا إلى كركوك وهى مدينة كبيرة، وفى صحرائها تنتشر حفر النفط، حيث يبدو العمال هناك كأنهم أرواح شيطانية، أضرم بعضهم النار فى إحدى تلك الحفر التى تأججت يصحبها دخان أسود من زفت، فبدت كأنها نسخة مصغرة لبركان ثائر.

وفى منتصف النهار بلغنا قرية كلك على نهر الزاب الأعلى الذى كان فى ذلك الفصل من السنة فى أدنى مستوياته، ومع ذلك فقد كان عرضه مايزال قرابة الستين أو السبعين ياردة.

بخرافة. هى خرافة. فحسب. عندما يعجز خيالنا عن الربط بينها وبين الحياة، حين نعجز عن الإدراك العميق للغة الإنسانية العريقة التى تخترعها البشرية منذ ملايين السنين. كان يدهشنى وحدة العالم بين ماركيز وبينى. وذات يوم من أوائل تسعينيات القرن الماضى أدليت بحديث لمطبوعة أسبوعية عربية بمناسبة صدور روايتين كبيرتين لى هما: «وكالة عطية» و«موال البيات والنوم» أشرت فيه إلى شىء من هذا المعنى فيما كنت لاأزال فى مرحلة الدهشة من استجلائه، أما اليوم وبعد طول إبحار فى أدب كل من يوسف إدريس وجارثيا ماركيز اكتشفت أن وحدة العوالم الإنسانية بل وحتى تشابه التفاصيل والمفردات ليس ينفى استقلالية الكاتب عن شبيهه بل عن قرينه. بمعنى آخر: إن الكاتب لا يمكن نسخه بأى حال من الأحوال حتى بين الاخوة أبناء البطن الواحدة.

إن بصمة الكاتب لا يمكن أن تتطابق مع بصمة كاتب آخر. تلك حقيقة دامغة ولكن بشرط أن يكون فى داخل كل ناقد فاحص جهاز لكشف البصمات. فبرغم تشابه المفردات الإنسانية والفنية بينى وبين يوسف إدريس على سبيل المثال، إذ إن كلينا يكتب عن الفلاحين وعن الأنفار وعن نفس التقاليد القروية وربما بنفس اللغة فإننى أختلف عن يوسف اختلاف تجربتى عن تجربته، اختلاف المكابدة، ومحتويات الشعور، والفناء فى المصداقية، وإذا كان الأمر هكذا بالنسبة لى مع يوسف إدريس فما بالك بالنسبة لنا معًا. إدريس وأنا. مع جارثيا ماركيز؟.. إن الاختلاف بيننا هو اختلاف نهر النيل عن الكاريبى، اختلاف المجتمع المصرى عن المجتمع الكولومبى، والعالم العربى عن عالم أمريكا اللاتينية. ولكن على قدر الاختلاف يحدث التميز، وعلى قدر التميز تجئ الأفضلية، وهذه الأفضلية ليست تحسم على الإطلاق، إنها لعبة الكريات الزجاجية التى استجلاها الكاتب الألمانى الكبير جدًا هيرمان هيسه فى رواية له بنفس العنوان. وقد قال شاعر الإنسانية الأكبر جلال الدين الرومى فى واحدة من مثنوياته: الماء العذب والماء الملح متشابهان والفرق بينهما ذوق.. وتلك مسألة هى الوحيدة. ربما. التى لا يتم فيها فصل الخطاب مطلقًا.

ولكن مابالنا قد ابتعدنا عن السيرة الذاتية: (أن تعيش لتحكى) للكاتب الكولومبى جابرييل جارثيا ماركيز؟

وهل ترانا قد ابتعدنا حقًا؟

فى الواقع، لا، إنما كان هذا الذى قلناه لتونا هو زخمنا. لقد كنا نرشف المرق الذى هو ذوب إدامها، متشبع ببخار نكهتها، لقد أردت. بهذه اللغة غير الطويلة. أن أقول إن الأدب فى أشكاله الفنية المعروفة المتداولة بين جميع قراء العالم هو: فن «تصنيع التجربة الإنسانية»، بمعنى أن هناك تقنيات حرفية صارت لغة متفقًا عليها بين جميع مثقفى العالم يجب الخضوع لها، بشكل أو بآخر، بدرجة أو بأخرى، لإنتاج أو تسوية قصة أو رواية أو قصيدة أو مسرحية: وإذا تمرد الكاتب على شىء من هذه التقنيات أو خرج عليها فإنه يفقد جزءًا من اللغة الفنية المشتركة ومن ثم لابد أن يتأثر عمله الفنى وقد يمضى جيل بأكمله دون أن يتمكن من إيجاد جسر بينه وبين القراء.

أما السيرة الذاتية فإنها فن التجربة الإنسانية الخالصة دون تصنيع، لم تخضع لمقص التفصيل يخرط منها أكمامًا وأبدانًا وجيوبًا وياقات تتم حياكتها بعد ذلك فى بعضها. إن السيرة الذاتية هى بمثابة الصناعة الثقيلة التى تنتج المصانع، فيها يتخرج الكُتّاب والفنانون والقادة والرؤساء والحكماء والأطباء والمهندسون.. إلخ. وإذا كان الأدب هو فن تأطير العوالم الإنسانية فى أطر اجتماعية محددة لا قيامة للعمل الفنى بدونها فإن السيرة الذاتية هى فن تحطيم الحواجز وإلغاء المسافات بين البشر، هى فن الفضفضة والاستقطاب، هى فن التضاد مع المجتمعات المحلية لصالح التجربة الإنسانية وخلق روابط حقيقية متينة بين الإنسان وأخيه الإنسان فى جميع أنحاء العالم. لقد مرت بى لحظات وأنا مستغرق فى قراءة السيرة الذاتية لماركيز شعرت خلالها بأننى عثرت على توأم لى على شاطئ الكاريبى، بل شعرت بأنه أقرب لى من يوسف إدريس ومن كثيرين لا يربطنى بهم سوى مجموعة من فرضيات اجتماعية ثقافية تاريخية عقائدية عرقية مهما توثقت نظريًا لا تمنع قيام العدوان بينهم لأتفه الأسباب. إن إدماننا لبس الأقنعة قد أكسب الأقنعة سماكة ومتانة وخرّب دواخلنا تخريبًا مروعًا. ولأننا قد أصبحنا ممنوعين من مواجهة النفس وتعريضها للهواء النقى وللشمس فإن دواخلنا ستظل ركامًا من العدوان لا يصيب أحدًا سوانا. ■

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

مقـــال هيـــكل

أود أن أسجل إعجابى الشديد بمقال الأستاذ هيكل الأخير فى مجلة «وجهات نظر». وأود أن أطلب من الأستاذ أن يصدر كتابًا يجمع فيه الوثائق الإسرائيلية التى تم تناولها فى مقالاته منذ فترة نظرًا للأهمية التى تتضمنها هذه الوثائق.

طارق عادل
محاسب

■

العدد الخاص الذى أصدرته وجهات نظر بمناسبة بلوغ الأستاذ هيكل عامه الثمانين كان عددًا خاصًا بحق. ويستحق كل التهنئة. وخاصة تخصيص باب الزاوية لمقالات «بصراحة». فجيلنا الذى كان يتابع المقال الأسبوعى المهم على مدى نصف قرن يعلم كم هو صعب وشاق اختيار تلك المقتطفات المحدودة من بين هذا العدد الضخم من المقالات. ولابد أنكم كلفتم بهذا العمل باحثًا متخصصًا فى نتاج الأستاذ الصحفى حتى يمكنه الانتقاء بهذه الكفاءة. وياليتكم تكررون التجربة مع كتب هيكل الأخرى.

محمد عبد الحميد
محام

■

لماذا لا تبادر وجهات نظر بنشر أجزاء من كتب مفكرنا وكاتبنا وكنزنا الاستراتيجى محمد حسنين هيكل بعدما استأذن بالانصراف لنتمكن من متابعة ما فاتنا متابعته.

أبى كنجو
مالى

■

طالعت العدد الأخير من مجلتكم المحترمة. وصدمنى أننى لم أجد قلمه كما تعودنا. وقد كان مقاله مادة لجلسة حوار فكرى شهرية نعقدها نحن عرب الغربة. وكنا قد اخترنا لها عنوان اسم مجلتكم «وجهات نظر». أعرف أنه فى مقاله الأخير قد استأذن فى الانصراف. ولكننى على ثقة تصل إلى درجة اليقين بأن هذا لن يطول المجلة التى أسسها. وأنه عائد ولو بعد حين. حتى ولو غاب قلمه مؤقتًا فإن بصمته تظل واضحة فى كل صفحة فيها.

د. عبد الله علام
محاضر جامعى. كندا

■

كان جميلاً أن تخصصوا باب بريد القراء فى مجلتكم للرسائل المرسلة إلى الأستاذ هيكل والتى نخرج من تحليل مضمونها إلى جانب تلك المرسلة إليه على موقع الجزيرة نت بنتائج مثيرة. سواء تلك التى تعبر عن وفاء القارئ لكاتبه الأول أو تلك التى يعتقد مرسلوها أن لدى الأستاذ إجابة لأى سؤال مهما كان بداية من «من هم الماسونيون فى عالمنا العربى؟». و«هل هناك أمل فى تلك الأمة؟».. وحتى مهمة توضيح ما حدث فى كفر الدوار سنة ٥٤.

عدنان الشريف
مدرس. عمان. الأردن

■

القارئ المتمعن فى كتابات الأستاذ هيكل ولكتبه سيجد له بالضرورة رأيًا وتحليلاً.. ومن ثم توضيحًا للكثير من الأحداث والمواقف فى التاريخين المصرى والعربى فى النصف الثانى من القرن العشرين.

وقريبا ستخصص «وجهات نظر» بابًا لتقدم فيه «إشارة» إلى النتاج الفكرى لهيكل والذى تعيد «دار الشروق» إصداره فى سلسلة «عمر فى كتب» حتى يمكن للقارئ المهتم مراجعة رأى هيكل وتحليله للقضايا التى تعنيه.

المحرر

لدينا ما نقوله لكم نحن «عرب ٤٨»

قبل سنة ونصف انطلق موقع (arabs 48. com) على شبكة الإنترنت. بعد أن بادر بعض المثقفين القوميين الناشطين لإقامة هذا المشروع الإعلامى والسياسى والثقافى والاقتصادى المهم فى حياة المواطنين العرب الفلسطينيين فى الداخل. وفعلا نجح هذا المشروع فى هذه الفترة القصيرة بدون دعاية تذكر اللهم إلا الارتباط الذى وضعته «السفير» اللبنانية تبرعًا وسخاء منها على واجهة موقعنا إضافة إلى العشرات من المواقع العربية التى تلفت انتباه مبحريها لموقعنا. وبرغم محدودية الاستثمار والميزانية اخترقنا حصار الكلمة والصوت، ووصلنا إلى الآلاف من المواطنين العرب من الخليج إلى المحيط. مما ساعد فى نسج علاقات مع عدد لا بأس به من الصحافيين والمثقفين الذين تعطشوا لما يأتى من الداخل الفلسطينى من أخبار وآراء وتحليلات. ونعتقد اننا مازلنا فى بداية الطريق.

استطاع هذا الموقع المتميز، والمنطلق من هذا البلد الذى يعيش معمعان الصراع، أن يضع بين أيدى متابعى الشبكة العنكبوتية، ساعة بساعة، يوميات حركة المجتمع العربى الفلسطينى فى الداخل، ورصد الأخبار والتحركات السياسية والاجتماعية التى تشهدها بلادنا ومنطقتنا. وحمل إلى أهلنا فى الداخل والخارج أخبارًا ودراسات وملفات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. تعالج قضايا تهم المواطن العربى فى كل مكان.

لم نختر اسم موقعنا صدفة. ولا نحب أن نكون عرب الأرقام أو عرب النكبة.. كى نتميز عن أبناء جلدتنا.. نحن عرب فلسطينيون نفتخر بأمتنا وشعبنا ونناضل من أجل قضيته العادلة ونعتبر هذا النضال الإعلامى الإلكترونى خدمة لقضايا الأمة والوطن.. لذلك انطلقنا فى هذا المشروع لأننا نحمل اشد الهموم.. هموم الوطن والمواطن العربى.. هموم الناس البسطاء الذين يبحثون كل يوم عن اسباب جديدة للحياة والاستمرار رغم حالة الحصار والخناق.. هموم المثقفين الرافضين لزمن اللامبالاة والمحفزين للانتباه والحذر من أداة التشويه الإعلامى الإسرائيلية التى تحتل مكانة بارزة فى زمن العولمة.. زمن المؤسسة الحاكمة فى الولايات المتحدة الأمريكية.

انطلقنا فى أيام حرجة من تاريخ شعبنا وأمتنا.. ومتى كانت أيامنا مريحة أصلا فى العقود الأخيرة! هذا الموقع المهم هو ردنا المتواضع منا نحن القاطنين فى بلدنا منذ بداية الزمان، على الدعائية العدوانية للرأى العام العربى المساند لقضايا الامة.. لقد جاء موقعنا اصلاً ليكون بديلاً للخبر الإسرائيلى المشوه الذى ينقل للعالم العربى بهدف الإساءة والنيل من نضال العرب الفلسطينيين فى الداخل.. ولابد من التذكير هنا ان بعض الأخبار المنقولة من بلادنا إلى العالم العربى فى السنوات الأخيرة اتسمت بعدم الدقة والتغييب المتعمد للسياق التاريخى والانتقائية فى اختيار الوقائع..

إننا نتوقع من مؤسسات العمل الأهلى والقومى وكل الذين يسعون لخطاب إعلامى عربى يليق بنا كأبناء أمة عظيمة دعمها لموقعنا ماديا كى يستطيع ان يعيش ويستمر.. وندعو الإخوة الكتاب والصحفيين فى الوطن العربى الى المساهمة فى الكتابة والحوار والسجال على صفحات موقعنا على التواصل والمتابعة.

لدينا أيضا ما نقوله نحن عرب ٤٨ فى «عرب ٤٨»..

أحمد أبو حسين
رئيس ادارة موقع Arabs48.com

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشـكر الناشـرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

حمد بن خليفة أبو شهاب
الملامح الشخصية والفنية فى شعره

بلال البدور
أبو ظبى: المجمع العلمى الثقافى، ٢٠٠٣، ٣٥٨ صفحة



يتناول الكتاب سيرة «أبو شهاب»، والملامح الفنية والشخصية فى شعره، وجهده فى تثقيف نفسه ودراسته العميقة لكتب التراث وأمهات الكتب ولآلئ الشعر قديمه وحديثه، ما منحه مكانة مهمة بين شعراء الإمارات. يقول أبو شهاب عن نفسه:

لى من كنوز القوافى ملء أبحرها
قد استقرت بحمد الله فى خلدى

الغيم والمطر
الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة

مصطفى عبد الغنى
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ١٩٤ صفحة



هذه الدراسة عن ثقافة المقاومة من خلال رموز الرواية الفلسطينية، غسان كنفانى وجبرا إبراهيم جبرا وهشام شرابى وسحر خليفة وإميل حبيبى ومحمد وتد.

وهو يرصد تحولات فترات الغيم الطويلة فى كتابات جبرا وشرابى وكنفانى وسحر خليفة، وحين تعددت طبقات الغيم وتحول الغيم إلى غضب عارم ومطر أسود ثقيل، اقتصرت دراساته على أصحاب التجربة من عرب الداخل، من أمثال زكى درويش ومحمد وتد وليانة بدر وإميل حبيبى وراضى شحادة، بوصفهم أقرب المحاربين إلى المعركة «وأكثر خبرة وأبعد بصراً»، كما يقول المؤلف، الذى يكشف عن دلالات الرموز وتداعيات الذاكرة كما عند جبرا مثلاً، حيث تلعب الذاكرة دوراً رئيسياً فى تشكيل شخصيات رواياته ونموها، أو وعى المثقف بالمأساة وكيفية تعاطيه مع التحولات والانعطافات التى مرت بها القضية منذ النكبة وحتى اليوم فى كتابات هشام شرابى، والتوازى الذى تصنعه سحر خليفة بين واقع الناس فى الأرض المحتلة، وواقع شخصياتها فى إبداعها الروائى وخصوصاً فى ثنائيتها الصبار/عباد الشمس، أو دعوة إميل حبيبى إلى الاعتماد على الذات الفلسطينية من خلال روايتيه «لكع بن لكع» و«اخطية إميل حبيبى»، ثم الوقائع الغريبة فى اختفاء سعيد أبى النحس المتشائل و«سرايا بنت الغول» فيما بعد.

نصوص عديدة، يحللها المؤلف نقدياً، راصداً علاقتها بالانتفاضة والمقاومة، سواء على صعيد التبشير والتنبؤ أو الرصد والتفسير.

طرف غائب

علاء خالد
الإسكندرية: كتاب أمكنة، ٢٠٠٣، ١٤٤ صفحة



هذا هو الكتاب الأول الصادر عن مجلة «أمكنة» التى يصدرها مجموعة من الشباب فى مدينة الإسكندرية، والتى سبق أن تناولنا أعدادها الأربعة التى صدرت حتى الآن فى هذا الباب، ويتضمن الكتاب مجموعة من المقالات التى كتبها المؤلف وهو المحرر الرئيسى لدورية «أمكنة»، فى الفترة من ١٩٩٧ وحتى ٢٠٠٠، وهى كتابات تحتفى بالدقائق والتفاصيل الصغيرة وتستنطق الأشياء، ناسجة من علاقتها بالمكان وبالسيرة الذاتية لصاحبها صوراً تنطوى على قدر كبير من الدقة وبراعة الوصف، برغم أنها كتابة لا تتعمد استحضار البلاغة ولا تحاكى سرداً شبيهاً، وإنما تستدعى مفرداتها الخاصة وتعيد صناعة الأسطورة بمفهومها الإنسانى، بعد أن ضاعت الأسطورة أو كادت من حياتنا، وحلت بدلاً منها أساطير حديثة وثيقة الصلة بتحولات عالمنا المعاصر.

من أجواء الكتاب: «المدنية تعدت المطلق، تجاوزته، لم يعد من اهتماماتها، كسرته بعلاقات اجتماعية معقدة، وبثقافة اجتماعية مليئة بالتفاصيل، لا يمكن أن تسمح بأى إمكانية لنظرة شاملة للحياة».

المولوخ (إله الشر): تاريخ الولايات المتحدة

كارلهاينتس دشنر
ترجمة: محمد جديد
دمشق: دار قدمس للنشر، ٢٠٠٣، ٦٠٠ صفحة



يقول المؤلف فى مقدمته: لم يسبق لى قط أن فكرت فى كتابة تاريخ للولايات المتحدة، حتى عندما كنت أتعرض لها فى بعض الأحيان، على هامش دراساتى الخاصة.

وكانت حرب الخليج هى أول ما دفعنى إلى ذلك، شئت أم أبيت، وربما كان ذلك بدافع الكتابة عن النفاق الهائل الذى تم خوض الحرب به أكثر مما كان بدافع الكتابة عن بربريتها، مهما بلغ من خبث هذه البربرية.

وكنت أريد أول الأمر أن أكتب يوميات عن حرب الخليج، على أن الأحداث تجاوزتنى، وسرعان ما بدا لى أن مما هو أكثر تسليطاً للضوء أن أكشف عن كل ذلك الشبح المصطنع من القوة والكذب والخداع، ذات مرة، فى سياق هذا التاريخ».

وقد اختار المؤلف عناوين مثيرة لفصول الكتاب مثل الشياطين الحمر والقديسون البيض وطليعة الحضارة أو استأصلوا الهنادرة واستئصال الهنادرة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهو يتحدث عن نشوء الولايات المتحدة والحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥ م) والتدخل فى أمريكا اللاتينية عام (١٩٠٠ م) والحروب التى خاضتها الولايات المتحدة فى القرن العشرين.

حرب صليبية بكل المقاييس

زينب عبد العزيز
دمشق: دار الكتاب العربى، ٢٠٠٣، ١٨٤ صفحة



هل جاءت الهجمة الغربية الأخيرة، والأمريكية خصوصاً على العالم الإسلامى ضمن سياق «الرد المشروع» على أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أم أنها تندرج ضمن الحملات الصليبية التى شنها الغرب تكراراً على العالم الإسلامى، والتى لم تتوقف حتى اليوم برغم دحرها قبل ما يزيد على ثمانية قرون فى حطين.

الكتاب ينحاز إلى وجهة النظر الثانية، ويؤكد على أن الحروب الصليبية مازالت مستمرة، وأنها جزء أساسى من الفكر الغربى ومن «المنهج البابوى»، حسب تعبير المؤلفة، منذ أعلن البابا أوربان الثانى أول حملة ضد المسلمين ١٠٩٥، وأنها أعلنت باسم الرب يسوع، وهكذا يفعل بوش الذى يدعى أنه يحارب أيضاً معركة الرب، وهدفه تنفيذ ما انتهى إليه المجمع المسكونى الفاتيكانى عام ١٩٦٥، وهو: تبرئة اليهود من دم المسيح، واقتلاع اليسار فى عقد الثمانينيات، واقتلاع الإسلام فى عقد التسعينيات.

كشكشة وكرانيش

عبد السلام محمد عبد السلام
القاهرة: دار قباء للنشر، ٢٠٠٣، ١٣٦ صفحة



عودة إلى فن الزجل، ذلك الفن الجميل الذى يستمد من الواقع الاجتماعى وتناقضات موضوعاته، وينسج من الهم اليومى للمصريين خيوطه الدرامية والفنية، صوت من لا صوت لهم، وهو الذى عرفه المصريون عبر أجيال متتابعة من المبدعين منذ بيرم

التونسى إلى أبو بثينة وعبد الحميد الديب، وعشرات غيرهم، نقرأ فى هذا الكتاب:

كان نفسى أكون ثرى/ أبيع فى البورصة واشترى/ واتعامل ويا البنوك/ لا من شاف ولا من درى/ وآكل أكل الغلابة/ ولا أفكر افترى/ وأجيب لمراتى سيغة/ وأقول اتأمرى/ وأشوى كبد وكلاوى/ والباقى حمرى.

■

فى الوحدة والتداعى دراسات فى أسباب تعثر مشاريع النهضة العربية

يوسف مكى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٢٦١ صفحة



فى أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧، مرت الأمة العربية بحالة من التداعى والضعف، دفعتها دفعًا إلى قبول الصلح مع إسرائيل، وتضاءلت بالتبعية مطالب التحرر والجلاء، وصار العدو الغاصب لفلسطين ندًا فى مفاوضات تسلب البقية الباقية من الأرض وتكرس لأوضاع ظالمة.

وفى ظل هذه الأجواء انتكست مشاريع النهضة التى بدأت إرهاصاتها فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وتحولت أمنيات العدل الاجتماعية إلى سرابات وأخيلة، وسقطت الأقطار العربية واحداً تلو الآخر فى شرك الإمبريالية الأمريكية.

وهذا الكتاب يبحث فى تعثر مشاريع النهضة العربية، بادئًا من الوعى بالهوية العربية تاريخيًا ثم مرحلة النهوض القومى، ويتناول فى الفصل الثانى موضوع الوحدة فى مجتمع الجزيرة العربية فى حقبة ظهور الإسلام، وفى الفصل الثالث يعرض للإسلام والهيمنة العثمانية، ويناقش فى الرابع أسباب تداعى مسيرة العمل القومى، ويتعرض الفصل الخامس والأخير لإشكالية الوحدة والتنمية، مركزًا على التوجه الاقتصادى بوصفه المدخل الصحيح لتحقيقها.

■

ليالى الحصار.. قصائد لنخبة من شعراء العراق

تقديم: سيف المرى

أبو ظبى: دار الصدى للنشر، ٢٠٠٣، ١٢٢ صفحة



مختارات من الشعر العراقى تحت الحصار لأكثر من ٤٥ شاعرًا يمثلون تجارب فنية وخبرات حياتية وإنسانية متمايزة، وينتهون إلى أجيال وذائقات شعرية مختلفة، تتفاوت بين الشعر العمودى والحر، غير أن ما يجمعها أنها تأتى جميعًا ردًا على حال الحصار التى يعيشها الشعب العراقى فى ظل غياب كامل لرد فعل عربى رسمى.

لقد كان الحصار الذى عاناه الشعب العراقى طوال عقد أو يزيد، دافعًا لإبداع متميز، وكاشفًا عن وجوه أخرى للمأساة، عبر عنها الشعراء من زوايا مختلفة، عبر لغة خاصة تليق بهموم الشعب اليومية، وتنتهى بعذاباته التى مازالت متواصلة تحت الاحتلال.

■

لا أحد يسعف الخيل

الياس فتح الرحمن

أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغنى الثقافى، ٢٠٠٣، ١٥٥ صفحة



تسعة عشر عامًا تفصل بين الديوان الأول للشاعر «صوت الطائف»، وهذا الديوان، وفى هذه السنوات الطوال جرت مياه كثيرة فى النهر، تغيرت أحوال وتبدلت ممالك، تقدمت أمم وتوارت أخرى، وما كان مأمولاً لبلد الشاعر، السودان، صار حلمًا بعيد المنال، وهو ما تعكسه الروح المسيطرة على الديوان، والقصائد المهداة إلى الراحلين ممن كانوا قابضين على الجمر فى زمن الفتنة والالتباس، منهم: صلاح أحمد إبراهيم ومحمد المهدى المجذوب وجمال محمد أحمد وجيلى عبد الرحمن وعلى الملك وأمل دنقل وآخرون.

من أجواء الديوان:

على الخنجرين.. الهوى والخديعة/ تموتين فى هذيان الشيوخ/ وفى شغف الطفل/ فى الطرقات وفى الحجرات/ وفى حدقات الجياد الضليعة/ فهل نحن نحن؟/ وهل هذه اليد/ تلك اليد المستطيعة/ أم القول ضل/ فبارك للمتخمين/ وشد اللسان ليلعق/ ملح الصحون الوضيعة.

■

السيرة النبوية فى رحاب التنزيل

رجائى عطية

القاهرة: مؤسسة روزاليوسف، الكتاب الذهبى، ٢٠٠٣، ٥٠٨ صفحات



يستحضر المؤلف وهو فى الأصل محام ذائع الصيت فى هذه الفصول، السيرة النبوية العطرة منذ نزول الوحى على النبى الكريم فى غار حراء وطوال إقامته بمكة المكرمة، وما اشتملت عليه هذه الفترة من عذابات عاناها الرسول وصحبه ومن صدقوه وآمنوا بدعوته، وهو فى هذا السياق يضع سور القرآن الكريم وآياته فى مناسبات تنزيلها بين أحداث السيرة ومناسبات نزول الذكر الحكيم، موثقة من كتب أسباب النزول والتفاسير المعتمدة وكتب صحاح السنة ونفحات التنزيل، مستحضرة هذه الأجواء المباركة بما انطوت عليه من جهاد فى سبيل الله ونصرة للحق، فى سرد أدبى بليغ بلسان وعبارات أصحابه وفى الأجواء التى عاشوها.

■

كشف الأقنعة.. صنع الله إبراهيم وهؤلاء

مصطفى بيومى

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٣، ١٧٥ صفحة



على مدى أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، قدم صنع الله إبراهيم تجربته الروائية، وهى تجربة بالغة العمق والثراء، قدمت مزيجًا من الشهادة والنبوءة، هكذا كان الحال فى «تلك الرائحة»، و«اللجنة»، و«نجمة أغسطس»، و«بيروت بيروت»، و«ذات»، و«شرف»، و«وردة»، وأخيرًا «أمريكانلى، أو أمرى كان لى».

وخلال هذه الأعمال قدم صنع الله رؤية شاملة للواقع العربى كله، والقارئ الجاد لأعماله، كما يقول المؤلف، يتواصل مع الكثير من الأحداث المهمة فى مصر والسودان وليبيا واليمن والسعودية والعراق وغيرها من البلدان العربية، كما أن بوسعه أن يجد صورًا لعديد من الزعامات العربية التى يتم رسم ملامحها من خلال وجهة نظر صنع الله بطبيعة الحال، فقارئ رواياته يجد جمال عبد الناصر وحسين بن طلال وأنور السادات وقابوس بن سعيد ومعمر القذافى وفهد بن عبد العزيز وصدام حسين وكميل شمعون وجعفر نميرى وقحطان الشعبى وعبد الكريم قاسم وغيرهم، ولأن المادة الوثائقية تشكل عصب كثير من أعمال صنع الله إبراهيم، فإن القارئ لهذه الأعمال يتوجه مباشرة مع هذه الشخوص بشحمها ولحمها، وليس من خلال ألاعيب السرد ومستوياته الرمزية، وهو فى هذا الإطار يكشف عن جذور الأزمة التى تواجهها الأمة العربية والمتمثلة فى غياب الديمقراطية واستشراء الفساد والظلم الاجتماعى وإهدار حقوق الإنسان.

هذه هى جوانب الأزمة وجذورها كما يراها، وكما أسهمت فيها هذه الزعامات بدرجات متفاوتة، وهو ما يسعى الباحث إلى الكشف عنه فى العالم الروائى لصاحب «اللجنة».

■

الاقتصاد العربى فى عصر العولمة

حازم الببلاوى

أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٣، ٢٥١ صفحة



إذا كان لا يمكن الحديث فى ظل محدودية العلاقات الاقتصادية العربية البينية، عن الاقتصاد العربى بوصفه حقيقة اقتصادية واضحة المعالم، فإنه لا يمكن كذلك إغفال أوجه الشبه والترابط بين الاقتصادات العربية، هذا يعنى أنه إذا كانت المعطيات الحالية تشير إلى غياب كيان اقتصادى عربى متكامل، فإن ذلك لا يعنى استحالة تحقيق ذلك فى المستقبل.

على أن ثمة أسئلة تطرح فى هذا الإطار، تتعلق بما فرضته العولمة من تحديات وما استحدثته من علاقات فى

ظل بيئة دولية مغايرة، وهل يصبح التعاون الاقتصادى العربى مع هذه المستجدات قبضاً للريح، أم خطوة على طريق صحيح؟

وفى إطار التجربة التاريخية التى تثبت تراجع الأهمية النسبية للموارد الطبيعية فى تحقيق النمو والتقدم لحساب المؤسسات والقيم، يثور سؤال آخر عن «أهلية» المؤسسات والقيم السائدة فى منطقتنا العربية لقيادة قاطرة التقدم، فى ظل الشح الشديد فى الموارد المالية الذى تعانيه المنطقة، والاحتمالات القريبة لنضوب النفط والغاز.

هذه بعض أسئلة يثيرها المؤلف الذى يعمل مستشاراً لصندوق النقد العربى، وهو صاحب خبرة كبيرة فى الاقتصادات العربية وعلاقتها بالاقتصاد العالمى. وهو يشير فى إجابته على بعض التحديات التى تواجه الاقتصاد العربى فى المستقبل القريب، إلى أن هناك مصلحة كبرى للاقتصاد العربى فى الدخول إلى السوق العالمية من بوابة الإقليمية، وأن ذلك لن يتحقق دفعة واحدة، إنما عبر موجات من الإقليمية. وفيما يتعلق بشح الموارد المالية وموارد الطاقة، يؤكد على أن الأمر يحتاج إلى اختراق علمى وتكنولوجى يستخدم الطاقة الشمسية لتحلية المياه.

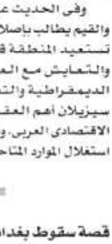
وفى الحديث عن تحدى المؤسسات والقيم يطالب بإصلاح سياسى شامل، كى تستعيد المنطقة قدرتها على المبادرة والتعايش مع العصر، وبرأيه فإن الديمقراطية والتعددية السياسية سيزيلان أهم العقبات أمام التعاون الاقتصادى العربى، ويساعدان على حسن استغلال الموارد المتاحة.

■

قصة سقوط بغداد

أحمد منصور

القاهرة: المكتب المصرى الحديث، ٢٠٠٣، ٢٠٠ صفحة



عايش المؤلف «قصة المدينتين» منذ البداية، عاش سقوط الكويت فى لحظة الحماقة التى دفعت حاكماً عربياً مستبداً لغزو دولة عربية جارة بإيعاز أمريكى فى ١٩٩٠، ثم عاش قصة سقوط بغداد على أيدى القوات الأمريكية فى ٩ أبريل ٢٠٠٣، وهى لحظة لا تقل فجيعة برأيه عن سقوط بغداد على يد قوات المغول قبل ذلك بما يقرب من ثمانية قرون.

وما بين السقوطين، عاش سنوات الحصار الطويلة فى بغداد، ورصد معاناة الشعب العراقى. وقد رصد قبله معاناة الكويتيين تحت الاحتلال «العربى» العراقى. وحين سقطت بغداد، وانهارت سلطة صدام حسين واختفى البعثيون، كان هناك، يقدم صورة لدولة مفككة منهارة، وثائقها السرية تباع على الأرصفة بقروش قليلة، فيما لا يعلم أحد شيئاً عن مصير حاكمها الطاغية.

هذه القصة يرويها بتفاصيلها المؤلف الذى عايشها بعين الصحفى المراقب.

■

السينما فى مرآة الوعى

حسن عطية

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣، ١٦٠ صفحة



وفدت السينما إلى مصر فى نهايات القرن التاسع عشر، بالتحديد فى ١٨٩٦، كانت فناً جديداً يعتمد على الصور المتحركة، وقد تفاعل هذا الفن الجديد مع فنون كانت قائمة بالفعل، فطورت بعضها، واستوعبت فى داخلها بعضاً آخر، وألغت تماماً وجود فنون أخرى، واندمج هذا الفن الجديد فى الوعى الشعبى المصرى فتأثر به كما أثر فيه، وهو ما تعكسه متابعة تطور السينما المصرية والتى جاءت أفلامها فى إطار سياقات اجتماعية شاملة، أثرت فى وعى صناع السينما فى تلك اللحظات التاريخية، فالسينما التى عرفتها مصر فى الثلاثينيات والأربعينيات مثلاً، تختلف بالضرورة عن تلك التى سادت فى أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢، وهذه تتمايز عن سينما السبعينيات والثمانينيات فى زمن الانفتاح، وصولاً إلى تيار سينما الشباب السائد الآن.

فى هذا الإطار، فإن ثمة وعياً حقيقياً بالذات وبالمجتمع تعكسه السينما، يتمثل فى أعمال تجاوبت مع ظرفها التاريخى من نوع «الأرض» و«رد قلبى» و«شىء من الخوف» و«العصفور» و«أغنية على الممر» و«الأيدى الناعمة» و«الزوجة الثانية» و«اللص والكلاب» و«أنا حرة» وعشرات غيرها.. وفى المقابل ثمة وعى زائف لسينما تقليدية الطابع والتقنية، لكنها تجارى متطلبات السوق فى سينما هزلية بلا غاية ولا مضمون، وأخرى تحاكى تيارات ما بعد الحداثة الغربية، تلك التى نشأت فى سياق اجتماعى مغاير وضمن وعى إنسانى متمايز.

فى هذا الإطار يحلل الكتاب عشرات الأعمال السينمائية والتجارب الجديدة مركزاً على سينما صلاح أبوسيف بوصفه مثالاً لجيل حلم ببداية جديدة، وكذلك يلقى أضواء على أجيال شابة تنمو فى الاتجاه ذاته، مشيراً إلى حال السينما العربية فى وعى الآخر الغربى.

■

مسرح الشعب

على الراعى

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣، ٤٨٦ صفحة



يضم هذا الكتاب ثلاثة كتب للناقد الراحل الذى يعد واحداً ممن رسخوا لظاهرة المسرحية فى الثقافة العربية. الأول هو «الكوميديا المرتجلة» والثانى «فنون الكوميديا من خيال الظل إلى نجيب الريحانى» والثالث «مسرح الدم والدموع».

والكتب الثلاثة يضمها خيط واحد هو أنها تعبير عن رؤية الشعب للمسرح، فالكتاب الأول أفسح المجال أمام الفن المسرحى كى يوسع من رقعته وقدراته، بالإفراج عن الطاقات الحبيسة للممثل ودفعه إلى إتقان وسائل أخرى للتعبير غير الأداء باللفظ والصوت، مثل الأداء بالجسد كله والمشاركة الفعالة فى بناء النص المسرحى، كما أعطى المؤلف فنانى الارتجال القدامى حقهم، هؤلاء الذين قامت على أكتافهم الكوميديا الشعبية.

والكتاب الثانى يقدم بانوراما كاملة لفنون الكوميديا فى مصر، وتناول بالتحليل الفنان على الكسار، ووضع كوميديا نجيب الريحانى فى وضعها الصحيح بين من رآوه فيلسوفاً، أو من رآوه مهرجاً هزلياً. كما لفت الكتاب النظر إلى أهمية المقامة باعتبارها دراما فى مرحلة التشكل، وطالب باستخدامها مادة لعروض مسرحية، ونبه إلى أهمية عروض الشوارع.

وكان هم الكتاب الثالث دراسة الميلودراما العالمية والمصرية، وتجاوز النظرة الضيقة التى كانت سائدة آنذاك، والتى رأت الميلودراما فناً قليل القيمة، ضار ومخدر للعقول. فجاء الكتاب ليثبت أهميتها مدللاً عليها بنصوص مصرية وعالمية.

■

الدول المارقة

نعوم تشومسكى

ترجمة: محمود على عيسى

دمشق: دار الكتاب العربى، ٢٠٠٣، ٢٧٤ صفحة



لمصطلح الدول المارقة استخدامان، الأول استخدمته الولايات المتحدة الأمريكية فى مواجهة الدول الرافضة لسياساتها أو ما تسميه هى محور الشر وفقاً لرؤيتها فى نظام عالمى قيد التشكل، وهو استخدام دعائى يحقق أهدافها فى التوسع والهيمنة، واستخدام موضوعى تتحلل بموجبه الولايات المتحدة ذاتها والدول التى تسير فى ركابها وخصوصاً بريطانيا من أى التزامات تفرضها عليها المنظمات الدولية استناداً إلى موازين قوى جديدة. وهذا هو ما يسميه تشومسكى: حكم القوة فى الشئون الدولية.

ويعود الاستخدام الموسع لمفهوم الدولة المارقة إلى فترة حكم الرئيس ريجان، وهى التى مهدت لـ«أمريكا الإمبراطورية» عبر سباق التسلح الذى قاد إلى نهاية الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتى، وانفراد أمريكا بالعالم. واستمر هذا المفهوم سارياً مع حكم الرئيس كلينتون الذى أبلغ الأمم المتحدة أن أمريكا «ستتصرف جماعياً عندما يكون ذلك ممكناً، وستتصرف فردياً عندما يكون ذلك ضرورياً». وفى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وفى ظل قيادة الرئيس بوش وإدارته اليمينية المتطرفة، فإن التوسع فى استخدام هذا المفهوم بلغ أقصى مداه، وأطلقت أمريكا لقوتها العنان، وأزاحت تماماً تقاليد المجتمع الدولى والمواثيق التى تحكم العلاقات بين الدول، والمؤسسات التى تنظم تلك العلاقات.

هذا بعض ما يكشفه تشومسكى فى كتابه.

■

إشكالية المستقبل فى الوعى العربى

هادى نعمان الهيتى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٢٥٧ صفحة



خلصت الدراسات القليلة التى

تناولت المستقبل فى الوطن العربى منذ أواسط الثمانينيات إلى نتيجة واحدة، مفادها أن الوعى بالمستقبل لم يدخل بعد إلى الذهنية العربية. وهذا الكتاب يطمح إلى أن يجعل قضية الوعى بالمستقبل فى موضع الاهتمام الفكرى والعلمى العربى. فبسبب كثير من المواقف خلال السنوات الأخيرة ظهر فى بعض الأقطار العربية ما ينم عن خيبات فى الأمل بالمستقبل، وهى الظاهرة التى اتخذت ردود أفعال شتى وصلت إلى حدود الهجرة خارج الأوطان، أو اللجوء إلى العنف والجنوح إلى السلبية، والنأى عن المشاركة فى الأنشطة السياسية والاجتماعية والفكرية، ورأت قطاعات فى المجتمع العربى فى الأنشطة السياسية أدوات لمحاصرة تلك التطلعات المشروعة.

والبيانات التى يحللها الباحث تكشف عدم اهتمام الحكومات العربية بالعلوم والأبحاث، وعدم اكتراثها بالكفاءة والقدرة الفكرية. وهى ترى أن العلوم مُقحمة على الثقافة.

والكتاب فى التحليل الأخير دعوة إلى الروح العلمية والتفكير العلمى المنهجى وتنمية الوعى بالمستقبل لدى الأجيال الجديدة، عبر سبعة عشر فصلاً تستحضر هذه الإشكالية وسبل التعامل معها.

■

حكايات فيزو

تأليف ورسوم: وليد طاهر
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣



ثلاث حكايات عن «فيزو»، فى الأولى «نصف فيزو»، يبدو فيزو عجولاً رافضاً متسرعاً لا يكمل شيئاً لنهايته، فهو فى الصباح يغسل نصف وجهه ويأكل نصف بيضة، وحين يغنى فهو يغنى نصف أغنية، وحين يرسم فإنه يرسم الأراجوز دون طرطور، وحين يلعب يختص بالكرة وحده دون أن يتبادلها مع رفاقه، وحين يذاكر فإنه يذاكر نصف المذاكرة، فتكون النتيجة أنه يحصل على نصف الدرجة ويأخذ نصف نجمة، وهكذا فإن فيزو الذى لا يكمل شيئاً ولا يتقن عمله ليس فيزو كاملاً، إنه نصف فيزو، أما حين يتقن ما يقوم به فإنه يحقق أفضل النتائج.

وفى الثانية فيزو فى الدولاب، فإن فيزو الخجول يختبئ فى الدولاب يوم عيد ميلاد مازن لأنه لا يعرف أصدقاءه، ويمر الوقت والأصحاب يسألون عن فيزو، ولكنه مازال مختبئاً فى الدولاب، وتُحضر الأم التورتة والشمع ويبدأ عيد الميلاد، وفيزو مازال مختبئاً، لكن فريدة لا يعجبها غياب فيزو فتفتح له الباب ويلتف حوله الأصدقاء مرحبين بوجوده معهم، ويغنى الجميع: سنة حلوة يا مازن، ويعرف فيزو أنه كان مخطئاً، وأن خجله الشديد أوشك أن يُضيع عليه فرصة الاحتفال مع الأصدقاء الذين أحبوه وأحبهم.

وفى الثالثة «فيزو أصبح سعيداً»، لا يرى فيزو سبباً لسعادة أخته ووالديه واستقبالهم المشرق لليوم الجديد، ويظل مكتئباً طول الوقت حتى يأتى صديقه مازن ويُبشر الأخوين فيزو وفريدة بأن لديه مفاجأة سارة لهما، وحين يذهبان معه إلى بيته يكتشفان المفاجأة، فقد ولدت قطته قططاً صغيرة جميلة، وهنا يعرف فيزو أن فى الدنيا أشياء كثيرة تبعث على السعادة والفرح.

ثلاث قصص مستقلة كل منها تحكى عن فيزو برسوم بسيطة وكلمات قليلة.

■

خطيئة إسرائيل
دومنيك فيدال . جوزيف الغازى

ترجمة: سعد الطويل
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٣، ٢٢٧ صفحة



فى مناسبة العيد الخمسين لقيام دولة إسرائيل، أصدرت وزارة التعليم الإسرائيلية «كتاب اليوبيل» ووزع الكتاب على جميع المدارس كى يحتفل التلاميذ بالذكرى، ولم يشر الكتاب مطلقاً إلى وجود الشعب الفلسطينى لا قبل قيام الدولة ولا بعدها، ولا يتحدث عن قرار التقسيم الذى أقر قيام دولتين: فلسطينية وإسرائيلية عام ١٩٤٧، وحين يتناول محادثات السلام فإنه يتحدث عن تلك التى جرت بين الدولة العبرية وكل من مصر والأردن، دون أية إشارة إلى اتفاقات أوسلو ومدريد أو محاولات السعى إلى السلام مع الفلسطينيين.

فى إسرائيل عدد من الأصوات المعتدلة التى بدأت منذ وقت مبكر تدحض الرواية الرسمية التى تنكر تماماً وجود الشعب الفلسطينى، تبرات هذه الأصوات أولاً من اليسار الإسرائيلى، وانضمت إليها منذ عقدين على الأقل أصوات جديدة من باحثين وصحفيين صاروا يعرفون بالمؤرخين الجدد، وهؤلاء بالرغم من اختلافهم فى الأهداف والوسائل إلا أن ما يجمعهم هو اعتراضهم على الأساطير المحيطة بدولة إسرائيل، خصوصاً تلك المتعلقة بأسباب الخروج الجماعى للفلسطينيين من بلدهم، وهل كان ذلك بدوافع ذاتية واستجابة لرغبة قياداتهم، أم بسبب القهر والتعذيب والممارسات الوحشية الإسرائيلية ضدهم، وهو ما أثار غضب المؤرخين التقليديين ضدهم.

وقد استفاد المؤرخون الجدد من إزالة أستار السرية عن الملفات الإسرائيلية الخاصة بالصراع بعد مرور ثلاثين عاماً عليها وفقاً للقانون، وكانت هذه الملفات هى المصادر الأساسية للمعلومات التى عمل عليها المؤرخون الجدد.

والآن بعد مرور عشر سنوات على نشر دراساتهم الأولى، كيف ينظر المؤرخون الجدد إلى الجهود الباكرة التى قدموها فى هذا الإطار؟

هذا هو السؤال الرئيسى الذى يحاول الكتاب الإجابة عليه من خلال مجموعة من الحوارات والمناقشات التى أجراها جوزيف الغازى الصحفى بجريدة هاآرتس عام ١٩٩٧، مع عدد من المؤرخين الجدد وأيضاً مع عدد من منتقديهم.

■

حكايات عالم عجوز

سمير حنا صادق
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ١١٠ صفحات

حكايات يرويها عالم تخصص فى فلسفة العلم، تمثل حصاد السنين التى عمل فيها أستاذاً بالجامعة، ونذر حياته منذ بداية التسعينيات فى تسجيل خلاصة هذه الرحلة الطويلة فى دروب العلم ومعارجه، فأخرج عدة كتب تحث جميعها على التفكير العلمى وتبشر بعصر العلم، وأن على مجتمعاتنا العربية أن تدخل هذا العصر وأن تتحلى بالتفكير العلمى فى شتى مناحى حياتها، وأن تقاوم الدجل والغيبية، اللذين كانا سبباً أصيلاً فيما آلت إليه أحوالها.

من عناوين الحكايات: حوار حول الأخلاقيات فى الطب، بين البكتيريا والتطور، العلم الجيد والعلم الردىء، العلم بين البديهيات والفلسفة، من هنا نبدأ، الجذور الفكرية للعنف، العنصرية الحديثة واختبار معامل الذكاء، عن الديناصورات والحيتان وحفريات الفيوم.

■

الحركة القومية العربية بعيون عثمانية

حسن قايالى
ترجمة: فاضل جتكر
بيروت: شركة قدمس للنشر، ٢٠٠٣، ٤٨٢ صفحة



بدءاً بالنصف الأول من القرن التاسع عشر، حين نجح تفشى النزعة القومية فى شبه جزيرة البلقان مع الهزال الواضح للدولة العثمانية فى مواجهة أوروبا الاستعمارية فى تقوية النزعات الانفصالية فى الإمبراطورية. وتطورت النزعة العثمانية بوصفها عقيدة فوق قومية لوقف تلك النزعات وخلق الانتماء إلى الدولة الوطنية.

وقد قامت هذه النزعة على ترسيخ هوية مستندة إلى الجغرافيا، وعلى التسليم بالمساواة السياسية بين الرعايا بصرف النظر عن الانتماء الدينى ومعززة بشعور الولاء لآل عثمان. وقد ساهمت سياسات التنظيمات القائمة على إشاعة العلمنة، فى إيجاد هوية إسلامية طاغية، واختزلت احتمالات تسييس الانتماء العرقى بين المسلمين، الذين كانوا يتصدون لأوروبا مسيحية ولسلسلة من الحركات القومية التى أطلقها مسيحيو الدولة العثمانية.

وقد تكلل هذا المسعى بقيام نظام دستورى وإعلان دستور ١٨٧٦ وتأسيس البرلمان، وشكل هذا البرلمان اعترافاً بالمصالح الإقليمية وبالنفوذ السياسى للفئات الاجتماعية الصاعدة فى الأقاليم والولايات، وهو ما رآه السلطان عبد الحميد تهديداً لامتيازاته، وسارع إلى إجهاض البرلمان الأول، وتحولت سياسته القائمة على تأييد النزعة العثمانية إلى نوع من إعادة التوجه المستند إلى الولاء السياسى المطلق للسلطان، وما لبثت النزعتان العربية والقومية التركية أن نمتا خلال الحكم الطويل للسلطان عبد الحميد.

تفاصيل كثيرة عن هذا الصراع الذى امتد وتشعب وتشابكت خطوطه يجمعها الكتاب.

■

كهف الفراشات

إبراهيم فرغلي

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٣، ١٢٥ صفحة



بين يوميات الراوى فى رحلة استجمام بمدينة شرم الشيخ هرباً من ذكرى علاقة عاطفية فاشلة، ورحلته فى أعماق كهف الفراشات بكل ما يحتويه من عوالم عجائبية تدور أحداث الرواية.

تتابع فصول الرواية بالتوازى بين مذكرات الراوى التى ألقى بها بين يدى الرجل الفراشة ممثلة لماضيه وحاضره الذى يبدأ بدخول الكهف، مكتشفاً لعالم عجائبى مدهش عبر نماذج السحرة والمردة، والنساء والفتيات اللاتى يجسدن نماذج الإلهام والعشق والفتنة والشبق، رواية تجمع بين التفاصيل اليومية والرواية العجائبية التى تستلهم تراث الحكى العربى القديم.

من أجواء الرواية:

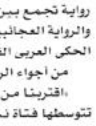
«اقتربنا من الردهة الواسعة التى تتوسطها فتاة نحيفة شديدة الجمال تنظر إلينا بهدوء رغم الفزع الذى يطل من عينيها. ارتفعت ترنيمات الكهف إلى أقصى حد لها. بدأ «الصلت» يضحك بشكل هستيرى، ترتفع ضحكاته تدريجياً.. حدقت فى عينى الفتاة أمامى مذهولاً وقد ارتفعت نبرات صوتها لتعلو كل الأصوات الأخرى: الواهمون لا مكان لهم فى كشف العشاق.

■

عزمى بشارة القضية والمحاكمة

إعداد: زياد منى

دمشق: دار قدمس للنشر، ٢٠٠٣، ٢٩٢ صفحة



قبل الولوج إلى المحاكمة موضوع الكتاب، يعنى الكتاب بالخلفية، بعض من آراء الدكتور عزمى بشارة وكتاباته فى القضية الوطنية والقومية والمساواة ومستقبل اليسار والديمقراطية، ثم حديث مستقل عن نشأة التجمع الوطنى الديمقراطى ودوره.

وفى القسم الثانى من الكتاب، حديث عن «عرب ٤٨»، خلفيتهم التاريخية والثقافية والسياسية ودورهم الآن وفى المستقبل، ومحاولات للإجابة عن هوية «عرب ٤٨»، وعلاقتهم بالاقتصاد العربى فى إسرائيل، وقبل الحديث عن المحاكمة، يعرض الكتاب لخلفية محاكمة الدكتور عزمى بشارة، وخطابه أمام الكنيست الإسرائيلى بعد تجريده من الحصانة النيابية، ثم أخيراً الجزء الثالث الذى يعرض لمداولات المحكمة، لائحة الاتهام والإدعاء والشهود والدفاع ودور المخابرات العامة الإسرائيلية فى تشكيل لائحة الاتهام، وأخيراً ملحق عن حزب الله تحت عنوان حزب الله إرهاب أم مقاومة؟

■

المستقبل العربى

(نوفمبر ٢٠٠٣)

بيروت: مركز دراسات الوحدة الوطنية



يبدأ العدد بافتتاحية بعنوان: «إدوارد سعيد: المفكر الراحل .. الحى»، والعدد يتضمن ملفاً بعنوان: «المشهد الأمريكى» احتوى على أربع مساهمات: الأولى، لنصير عاروري بعنوان: «حروب جورج دبليو بوش «الوقائية»: بين مركزية الخوف وعولمة إرهاب الدولة»، وقد استعرض عاروري فى هذه المقالة الخلفية النظرية لبوش الابن والفريق الذى يحيط به، وبالتالى كشف عن التوجهات الاستراتيجية والتى باتت على تماه شديد مع المصلحة الإسرائيلية. المساهمة الثانية، لنعوم تشومسكى بعنوان: «الحرب الوقائية أو «الجريمة المطلقة»، العراق: الغزو الذى سيلازمه العار». وقد أوضح تشومسكى فى مقالته كيف أن نظرية الحرب الوقائية هى نفسها الحرب التى أدينت فى محاكمات نورمبرغ. المساهمة الثالثة، لأمى ورثنجتون بعنوان: «كيف تقصف أمريكا أبناءها بالسلاح النووى»، وتحتوى الدراسة على معلومات مذهلة عن نتائج استخدام أمريكا لليورانيوم المنضب فى أسلحتها، إضافة إلى تأثير ذلك فى الولايات المتحدة نفسها وهو تأثير كارثى. المساهمة الرابعة، كتبها منير العكش بعنوان: «خلفيات رسالة الهندى الأحمر إلى شعب العراق»، وتتضمن هذه المقالة الرسالة التى وجهها الزعيم الهندى جورج واسون إلى الشعب العراقى بمناسبة تعيين مجلس الحكم الانتقالى، وفيها محاولة إسقاط بين الاستعمار الذى تعرض له الهنود الحمر والاحتلال الذى يتعرض له الشعب العراقى. فى العدد أيضاً مقالة لعبد الحسين شعبان بعنوان: «المشهد العراقى الراهن: الاحتلال وتوابعه فى ضوء القانون الدولى».

■

الدولة المأزومة والعنف الثقافى

كريم عبد

بيروت: الفرات للنشر، ٢٠٠٢، ١٩٠ صفحة



بالنسبة لمتابعى الشأن العراقى، فإن ماجرى ومازال يجرى لم يكن مفاجئاً، ما حدث، كما يشير الكتاب، كان نتيجة طبيعية لإحساس عارم بالظلم وغياب العدالة عانى منه العراق، كما تعانى منه المجتمعات العربية كافة.

وبالتركيز على الحالة العراقية، التى تشابهها «حالات» عربية عديدة، فإن أزمة الدولة تجلت فى مظاهر عدة، بينها استئثار حزب أو طائفة بالحكم واستبعاد ما دونها، وتحول المنخرطين فى هذا الحزب أو تلك الطائفة إلى هيئة منتفعين أو مبتزين تنظر إلى الدولة بوصفها غنيمة أو وسيلة للهيمنة وبسط النفوذ.

من ناحية ثانية، فإن الدولة الاستبدادية لا يعنيها سوى أن تبقى جاثمة على صدور مواطنيها، مستفيدة من التناقضات بين القوى المختلفة داخلها، والتى غالباً ما تكون هى صانعتها، بل وكثيراً ما تغذى هذه التناقضات، وكى تزيد إحكام قبضتها، فإن الدولة الاستبدادية كثيراً ما ترفع شعارات من نوع الوحدة الوطنية أو المصالحة الداخلية، أو التوافق العام، وكى تهرب من مواجهة نتائج سياساتها الفاشلة، فإنها تحيل عجزها إلى مؤامرات خارجية أو مخاوف من قوى لا وجود لها.

هذه الحالة التى تصنع دولة مأزومة ورعايا مستلبين، تشيع قدراً مخيفاً من العنف الثقافى الذى تتبادله الدولة والنخبة، أو النخبة ذاتها فى داخلها.

فهل يمكن تجاوز الدولة الاستبدادية لأزمتها فى إزاحة الحزب المسيطر أو القوة المهيمنة وإحلال أخرى مكانها؟ أم فى إشاعة مناخ ديمقراطى حقيقى يفرز قوى ومؤسسات سياسية وأهلية تعبر عن واقع الحال؟

المؤلف ينحاز إلى التصور الثانى ويقدم أسانيده عبر فصول الكتاب.

■

المحيط الثقافى

رئيس التحرير: فتحى عبدالفتاح

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣،



يتضمن العدد الجديد من هذه الدورية ملفاً تحت عنوان «الجذور/الدين والدولة»، يضم دراسات للدكتور رفعت السعيد والدكتور حسن حنفى ونبيل عبدالفتاح وعمار على حسن، ومساحة للحوار مع الدكتور محمود فهمى حجازى. فضلاً عن مقالات عدة تتابع الأحداث الثقافية ودراسات فى الفن التشكيلى والسينما والأعمال التليفزيونية، وإبداعات لمصريين وعرب.

■

النص والجسد والتأويل

فريد الزاهى

ترجمة: محمود على عيسى

الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٣، ١٩٠ صفحة



يتجاوز الكتاب الافتتان بالثوابت التى قام عليها النقد الأدبى لفترة طويلة، وانصرافه إلى التحليل الوصفى والتاريخى والاجتماعى للنص، وهو ما منح ذوق الناقد وانطباعاته دوراً رئيسياً فى العملية النقدية، كما أنه يتجاوز التحليل الأيديولوجى والبنيوى الذى ساد فيما بعد، منحازاً إلى ما بات يعرف بالنقد المعرفى، ذاك الذى يحول ثوابته باستمرار إلى متغيرات ويضعها دوماً موضع تساؤل.

وهو يقدم أسانيده عبر ستة فصول تعيد تأويل وقراءة نظريات النقد الأدبى القديمة والمعاصرة، من القاضى عبدالجبار والعسكرى إلى تودورف وإيكو وزملائهم.

The gates of Africa Death, Discovery

(بوابات أفريقيا)

Anthony Sattin

Harpercollins, 2003,382PP., £25.00



الاعتقاد السائد هو أن الأوروبيين بدأوا فى استكشاف أفريقيا والإغارة عليها فى القرن التاسع عشر، لكن الحقيقة تشير إلى أن مغامرين أوروبيين وغربيين وصلوا إلى القرن قبل ذلك بقرن على الأقل.

وهذا الكتاب يتحدث عن هؤلاء الأشخاص الذين انتهت حياة البعض منهم بشكل مأساوى.

إن الاستكشاف على مدى التاريخ مرتبط بالرغبة فى التوسع والسيطرة التجارية حتى السياسية وزيادة النفوذ الدينى أو إخضاع هؤلاء الغرباء لأهداف المستكشفين، لكن المؤلف يقول إن المغامرين الأوروبيين الأوائل فى أفريقيا كانوا مدفوعين بالرغبة فى الوصول إلى هناك وحب المعرفة.

ويشير إلى أنه عندما سئل أحد المغامرين لماذا ترغب فى تسلق قمة جبل إيفرست رد قائلاً: ببساطة لأنه هناك! إذن فإن الفضول الثقافى والرغبة فى المعرفة الجغرافية والعلمية والطموح الشخصى والتعطش للشهرة كلها أسباب دفعت هؤلاء المغامرين إلى الاندفاع نحو القارة السوداء.

وعلى سبيل المثال يورد المؤلف قصة جون ليديارد الأمريكى الذى ولد عام ١٧٥١ فى كونكيتكت، وقطع دراسته للقانون واللاهوت وأبحر إلى لندن ليلتحق بالكابتن كوك الرحالة البريطانى وليشهد لحظة اغتياله ثم يتوجه ليديارد إلى روسيا لكى يكتشف طريقًا إلى الاسكا وعندما يفشل يعود إلى إنجلترا حيث تقوم الرابطة الأفريقية فى بريطانيا بتوظيفه لكى يعمل على استكشاف طريق من الإسكندرية إلى النيجر لكن لا ينجح ثم يموت فى القاهرة مسموماً ولم يتجاوز ٣٨ عاماً.

نموذج آخر للمغامرين هو الألمانى فريدريك هونرمان الذى تخفى عام ١٨٠٠ فى زى قبلى وذهب ليعبر الصحراء الإفريقية على أمل الوصول إلى النيجر، وهناك دانييل هوجتون الذى كان يتاجر فى العبيد والسلاح، ثم جان لويس جورخات الأرستقراطى السويسرى الذى اكتشف البتراء وأبوسمبل، وكان يتحدث اللغة العربية بطلاقة وتزيا بالزى العربى وفى رحلته لإفريقيا سمى نفسه إبراهيم عبد الله ثم تحول إلى الإسلام، وعندما لم يستطع أن يندفع فى أعماق إفريقيا عاش فى القاهرة ومات فيها ودفن فى مقابر المسلمين.

■

The Wars Against Saddam.. Taking the Hard Road to Baghdad

(الحروب ضد صدام.. الطريق الصعب إلى بغداد)

John Simpson

Macmillan, 2003, 415PP., £20.00



يعد جون سيمسون محرر الشئون الخارجية لهيئة الإذاعة البريطانية أحد أبرز الصحفيين الغربيين الذين قاموا بتغطية أحداث الشرق الأوسط وخاصة إيران والعراق وهو يتمتع بشهرة واسعة نظراً لقدرته الكبيرة على تتبع الأحداث بحيادية وجرأة واقتدار.

وعندما غطى سيمسون الحرب الأمريكية الأخيرة على العراق فإنه كان يغطى الحرب الرابعة والثلاثين فى عمره الصحفى الذى بدأ فى أوائل السبعينيات.

والكتاب الجديد الذى أصدره سيمسون هو أشبه بمذكرات مراسل حربى عن العراق التى تعرض فيها سيمسون لمشاكل عديدة وأخطار كاد أحدها أن يودى بحياته.

وكان من المفترض باعتباره محرر الشئون الخارجية لهيئة الإذاعة البريطانية أن يكون موقع سيمسون لتغطية الحرب الأخيرة فى بغداد لكن السلطات العراقية بقيادة صدام حسين رفضت أن تمنحه تأشيرة دخول ولذلك ذهب إلى شمال العراق حيث السيطرة للأكراد لكى يغطى الحرب التى كانت أحداثها تُصنع فى الجنوب وكان نجم التغطية لهيئة الإذاعة البريطانية راجح عمر المراسل الذى يعمل تحت رئاسة سيمسون لكن الحظ خدمه فى التواجد فى بغداد فى تلك الفترة الحاسمة.

لقد غطى سيمسون أحداث العراق خلال ربع قرن ضمن الحرب الإيرانية العراقية حيث أمضى ٦ شهور فى بغداد ثم غطى قصف صدام لقرية حلبجة الكردية بالغاز ومصرع وإصابة عشرات الآلاف من جراء ذلك، ويقول المؤلف عن صدام إنه ضحل استراتيجياً لكنه عبقرى فى فن البقاء، وهو يعتقد أنه بعد سقوط صدام فإن صدام تخفى فى زى بدوى عربى وأطلق لحيته وعاش كطريد بين قبائل الصحراء شمال غرب بغداد، وهو يكشف عن أن صدام نزل بنفسه إلى الشوارع وأطلق صاروخ «آر بى جى» على الدبابات الأمريكية التى كانت فى طريقها إلى بغداد قبل أن يهرب.

والكتاب ملىء بالتفاصيل عن مغامرات سيمسون ونجاحاته وفشله وعلى سبيل المثال فإنه يحكى بشكل تفصيلى ربما يثير الملل محاولته الحصول على تأشيرة دخول إلى بغداد والظروف المعاكسة التى واجهته لكن الكتاب فى المحصلة النهائية شهادة مراسل مخضرم عن أحداث الغزو الأمريكى للعراق.

■

Intellgince in War: Knowledge of the Enemy from Napolean to Al-Qaeda

(المخابرات فى الحرب: معرفة العدو منذ نابليون وحتى القاعدة)

John Keegan

Hutchinson, 2003, 443PP., £25.00



هدف مؤلف هذا الكتاب طموح للغاية، فهو يتناول دور المخابرات فى الحروب منذ حروب نابليون فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر فى أوروبا وفى مصر والشام وحتى وقتنا الحاضر أى الحرب على الإرهاب التى أعلنتها الولايات المتحدة ضد عديد من الجماعات المتطرفة وفى مقدمتها منظمة القاعدة.

ويشير المؤلف إلى أن المخابرات لا تعنى تحقيق النصر بالضرورة.

ويتحدث الكتاب عن عديد من الحروب وعلاقة المخابرات بها ويبدأ بالحرب الفرنسية البريطانية قبالة الساحل المصرى والتى يسميها نيلسون على النيل حينما أغرق القائد البريطانى الشهير سفن الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط ليحرم الحملة الفرنسية على مصر من مدد حربى لا يمكن تعويضه، ويقول إن العامل الإنسانى مهم للغاية بل إنه يشير إلى أنه رغم التقدم التكنولوجى الهائل فى مجال المخابرات إلا أن الوسائل البشرية البسيطة لاتزال ضرورية للغاية، ويتناول المؤلف دور المخابرات فى حرب تكريت وإغراق الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر والذى يعد واحدة من أكبر النكسات فى التاريخ الأمريكى عسكرياً ومخابراتياً ثم يتحدث عن الوسائل المبتكرة التى استخدمها اليابانيون للتمويه على الأمريكيين.

وباعتباره بريطانياً يفرد مساحة كبيرة لدور المخابرات البريطانية ويختار معركة جزر فوكلاند نموذجاً لذلك ويشير إلى أن بريطانيا خاضت صراعاً على الجزر عام ١٩١٤ ثم عادت عام ١٩٨٢ لتخوض صراعاً آخر لاستعادة سيطرتها على الجزر التى كانت القوات المسلحة الأرجنتينية قد سيطرت عليها واعتبرتها أرضاً أرجنتينية، ويتحدث المؤلف عن أخطاء وقعت فى الحرب الأولى من جانب المخابرات البريطانية ويقدم تقييماً موضوعياً لمخابرات بلاده.

■

Madam Secretary A Memoir

(السيدة وزيرة الخارجية.. مذكرات)

Madeleine Albright

Macmillan, 2003, 562PP., £20.00



احتلت مادلين أولبرايت رقم ٦٤ فى قائمة وزراء الخارجية بالولايات المتحدة لكنها كانت السيدة الأولى التى تولت هذا المنصب، وهو تفرد كفيل بأن يحجز لها مكاناً فى التاريخ الأمريكى.

تعترف المؤلفة فى كتابها الذى تناول سيرة حياتها أنه مع فشل زواجها وكانت فى سن الخامسة والأربعين لم تكن تتصور أنها يمكن أن تصبح شيئاً ما ذا قيمة، فرغم التطورات المثيرة فى حياتها، وهى بالمناسبة تعتبر نفسها مثل سندريلا، فإن كل ذلك لم يكن يعنى أنها سوف تصل إلى ما وصلت إليه بعد ذلك.

ولدت مادلين فى براغ وهى الابنة الكبرى لجوزيف كوربيل وزوجته آن، وحتى توليها منصب وزيرة الخارجية فى عهد الرئيس الأمريكى بيل كلينتون لم تكن تعرف أن والديها يهوديان. وقضت الطفلة سنوات الحرب العالمية الثانية فى إنجلترا ثم عادت إلى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٥، ثم كان عليها أن تهرب مع أسرتها مجدداً بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم عام ١٩٤٨، هذه المرة توجهت الأسرة إلى أمريكا وحصل أفرادها على اللجوء السياسى وعزز من ذلك أن الوالد كان دبلوماسياً بارزاً مناهضاً للشيوعيين.

وبدأت مادلين حياتها فى أمريكا كانت

فتاة عادية ثم قررت دراسة الدكتوراة وحصلت عليها من جامعة كولومبيا وكانت لها نشاطات سياسية محلية صغيرة فى دنفر حيث كانت الأسرة تقيم. وقد تزوجت صحفياً عن قصة حب فى عقد الستينيات من القرن الماضى لتفاجأ عام ١٩٨٢ بأن زوجها يريد تطليقها ليتزوج صحفية شابة.

ودخلت مادلين مجال السياسة بشكل أكبر فعملت مع مرشحين ديمقراطيين للرئاسة هما والتر مونديل ومايك دوكاكيس، ولكنها اختارت الرهان الخاطئ فى الحالتين فقد فشل المرشحان وشاركت فى حملة كلينتون فى لحظاتها الأخيرة قبل أن يتم انتخابه رئيساً عام ١٩٩٢.

وقد فوجئ كثيرون باختيارها سفيرة للولايات المتحدة فى الأمم المتحدة. وهناك أظهرت قدراتها وتعاملت بحدة مع المنظمة الدولية وسكرتيرها العام آنذاك الدكتور بطرس بطرس غالى، وخاضت معركة كواليس لكى تحل محل وزير الخارجية الرمادى وارين كريستوفر وبالفعل نجحت فى أن تتولى المنصب فى بداية فترة رئاسة كلينتون الثانية.

وبقية فصول الكتاب تتحدث مادلين أولبرايت عن إنجازاتها السياسية خلال توليها المنصب.

■

Broken Music

(موسيقى مكسرة)

Sting

Dell Pub. co., 2003, 352PP., $26.00



بمناسبة بلوغه سن الخمسين قرر مطرب الروك الإنجليزى «جوردون سمنر» الشهير بـ «ستينج» أن يكتب وينشر سيرته الذاتية لأول مرة.

يهتم ستينج بمراحل معينة من حياته، خاصة مرحلة الطفولة ومرحلة المراهقة، وما قبل نجاحه المدوى فى فريق «بوليس»، والكتابة ليست بالأمر الجديد على ستينج، حيث إنه يكتب معظم كلمات أغانيه.

من ضمن ما تكشف عنه المذكرات أن السبب الرئيسى وراء اتجاه ستينج للموسيقى كان لتفريغ شحنة من المشاعر والانفعالات أصابته بعدما رأى والدته وهى تخون والده مع بائع اللبن.

■

The Merck Manual of Medical Information

(دليل ميرك المنزلى للمعلومات الطبية)

Mark Beers

Simon & Schusters, 2003, 1.900 Pages, $ 37.50



عرف دليل ميرك باعتباره مرجعاً طبياً كلاسيكياً منذ أكثر من مائة عام، ولكن فى عام ١٩٩٧ ظهرت طبعة منزلية مخصصة للشخص العادى، توفر له قدراً كبيراً من المعلومات الطبية المفيدة عن كافة الحالات الطبية الممكنة والأمراض وأساليب الوقاية والأدوية والعقاقير الشائعة والأعشاب الطبية وكيفية اتخاذ القرارات الطبية.. إلخ.

وقد صدرت منذ شهور الطبعة الثانية المحدثة والمزيدة، والتى تحتوى على فصول إضافية عن القضايا الصحية المتعلقة بالمرأة والرجل وبالطفل، إلى جانب جزء خاص عن صحة البدن فى فترة الشيخوخة.

■

Vernon God Little

(فيرنون الصغير)

Pierre .C.B.D

Faber, 2003, 278PP., £12.99



استاء معظم النقاد الأمريكيين من فوز هذه الرواية الساخرة بجائزة «بوكر» البريطانية الشهيرة منذ شهرين.

فالرواية تقوم أحداثها فى ولاية تكساس الأمريكية، وبطلها طفل مراهق فى الخامسة عشرة من عمره متهم بارتكاب مجزرة فى مدرسته قتل فيها ستة عشر تلميذاً.

يسود الرواية نوع من الكوميديا السوداء، فهى مليئة بالقتل والعنف والموت ولكنها تبعث على الضحك من النكات الغبية والبذيئة التى يطلقها البطل من ناحية، والحوار الذى يكتبه المؤلف بلهجة أهالى تكساس المميزة من ناحية أخرى.

وفى الوقت الذى اعتبر فيه النقاد البريطانيون أن الرواية تقترب من كلاسيكيات أمريكية مثل «مغامرات هاكلبيرى فين» لمارك توين، يرى الأمريكيون إنها أشبه بحلقات الكارتون «بيفس وباتهيد» المبتذلة.

فالشخصيات التى تقدمها الرواية معظمهم على قدر من السوقية والفظاظة والغباء والسمنة. يأكلون الحلوى ونفايات الأطعمة الدهنية بكميات هائلة ويقضون ساعات طويلة أمام التليفزيون.

يلعبون بالمسدسات ويلهثون وراء المال وأخبار المشاهير والجنس الرخيص.

أما الحادث المأسوى الذى يقع فى الرواية، فيحول المدينة الصغيرة النائمة إلى سيرك إعلامى على الطريقة الأمريكية، بينما يحاول البطل الهرب من مكان لآخر.

الرواية هى الأولى لمؤلفها الأسترالى المولد والمكسيكى النشأة الذى يكتب تحت الاسم المستعار دى. بى. سى. بيير، أما اسمه الحقيقى فبيتر فنلاى.

■

Petra Rediscovered: The Lost City of the Nabataeans

(إعادة اكتشاف البتراء: مدينة الأنباط المفقودة)

Glenn Markoe

Abrams, Harr N Inc., 2003, 288PP., $ 70.00



ازدهرت مملكة البتراء القديمة لأكثر من أربعة قرون بمعابدها المذهلة ومقابرها المنحوتة فى الصخر، حيث كانت البتراء ملتقى طرق التجارة الرئيسية، بين سوريا والبحر الأحمر من ناحية وبين الخليج الفارسى والبحر المتوسط من ناحية أخرى.

وقد ابتلع الرومان البتراء فى إمبراطوريتهم عام ١٠٦ بعد الميلاد.

وفى عام ٣٦٣ انهارت المدينة عقب زلزال عنيف، وظلت منسية لدى الغرب حتى القرن التاسع عشر عندما اكتشف آثارها المكتشفون الأوروبيون.

اليوم تعد البتراء التى تقع فى جنوب غرب المملكة الأردنية الهاشمية من المعالم السياحية فى الشرق الأوسط.

يحتوى هذا الكتاب على صور لعديد من آثار البتراء المكتشفة، إلى جانب سرد لتاريخها وفنها القديم.

In Praise of Books: A Cultural History of Cairo's Middle Class, Six Teenth through the Eighteenth Century

(التاريخ الثقافى للطبقة الوسطى القاهرية، من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر)

Nelly Hanna

Syracuse University Press, 2003, 224PP., $ 45.00(hb)



إضافة هامة لسجل التاريخ الاجتماعى والثقافى المصرى من صاحبة كتابى «إسماعيل أبو طاقية» و«أبواب القاهرة» الدكتورة نيللى حنا أستاذة الدراسات العربية فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة. تبحث الدراسة فى ثقافة الطبقة الوسطى المصرية أثناء الحكم العثمانى فى الفترة ما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر، على خلاف الدراسات التقليدية لتلك الفترة التى ركزت على الطبقات الحاكمة بالدرجة الأولى.

تتناول المؤلفة المؤثرات الاقتصادية على الثقافة سواء فى فترات الرخاء أو فى فترات الفقر، وتقوم بفحص علاقة التجارة بالزيادة فى أعداد المتعلمين وارتفاع درجة الثقافة، وذلك من خلال بناء المدارس ووفرة الورق الرخيص الثمن، وانتشار الكتب. وتهتم كذلك بإبراز دور كل من المقاهى والحكائين، ومسارح الظل كأدوات اتصال رئيسية انتقلت عبرها الثقافة الشفاهية للطبقة الوسطى وانتشرت.

■

Coptic life in Egypt

(حياة الأقباط فى مصر)

Claudia Yvonne Wiens

Cairo-Auc Press, 2003, L.E 120



معظم الكتب التى تتوخى تقديم صورة معرفية عن الأقباط فى مصر إلى القارئ الغربى تركز على التراث الفنى والمعمارى للأقباط إلا أن هذا الكتاب

المصور وهو لمؤلفة تعمل مصورة مقيمة فى مصر يركز على التقاليد الدينية والحياة الاجتماعية للناس العاديين من الأقباط كاشفًا عن جوانب غير معروفة كثيرًا للقارئ الغربى خاصة على الصعيد الدينى لمجتمع مسيحى يمارس طقوسًا وقيمًا مختلفة عن العالم الغربى.

وينقسم الكتاب إلى سبعة فصول يبدأ كل منها بمقدمة قصيرة تعطى خلفية عن العادات والتقاليد والمعتقدات التى تظهر بشكل حيوى فى الصور التى تلى هذه المقدمة.

وتقول المؤلفة أن الناس فى مصر يحبون أن يظهروا ممارساتهم الدينية، ففى كل محل تجارى أو محل عصير أو حتى محل للكواء أو الأمور التجارية الأخرى والتى يديرها الأقباط تظهر على الجدران الصور والأيقونات القبطية وبالنسبة لشريحة كبيرة من الأقباط فإن دينهم يمثل جزءًا كبيرًا جدًا من حياتهم وهذا ينعكس على سبيل المثال فى الحضور الكبير والعاطفى للموالد والمناسبات الدينية التى تجذب الآلاف.

إن الموالد من أفضل الأمثلة على إظهار مدى ارتباط الحياة الاجتماعية بالحياة الدينية وكيف أن الإخلاص للدين يجلب المتعة والسعادة.

■

Polygyny in Rural Egypt
(تعدد الزوجات فى ريف مصر)
Laila S. Shahd
Cairo-Auc Press, 2003, L.E 15



تسعى هذه الدراسة إلى تقديم حزمة من الأسباب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية لتعدد الزوجات فى الريف المصرى.

وهى تستكشف بشكل خاص طبيعة العلاقات بين الرجل والمرأة فى هذه الظاهرة.

وما إذا كانت انعكاسًا لأسباب اقتصادية واجتماعية وما إذا كانت عُرضة للتغيير مع تحقيق كل من الرجل والمرأة لأهدافهما الشخصية من هذا الزواج.

والكتاب جزء من مشروع لإخضاع الظواهر الاجتماعية فى مصر للدراسة، تقوم الدراسة التى تضمها دفتا الكتاب بالتعرف على المؤثرات الاقتصادية والمالية والمكانية فى تعدد الزوجات.

إن هناك حاجة ملحة للتعرف عن قرب وبشكل علمى على هذه الظاهرة وأسبابها الحقيقية ومدى انتشارها فى المجتمع المصرى خاصة الريف ومدى تأثير ذلك على الأولاد نفسيًا واجتماعيًا وثقافيًا، ودور المعتقد الدينى فى تعدد الزوجات.

■

The Sahara Desert: From the Pyramids of Egypt to the Mauntains of Morocco
(الصحراء: من أهرامات مصر إلى جبال المغرب)
Paolo Novaresio & Gianni Guadalupi
Cairo-Auc Press, 2003, L.E 240



يتحدث هذا الكتاب عن مساحة شاسعة لا نهائية معظمها بكر لم تمسسها يد الإنسان، وحدها الطبيعة مارست فيها ألعابها فظهرت الأشكال والألوان والضوء والجمال اللامتناهى..

إنها الصحراء الممتدة من مصر حتى جبال المغرب.

سار فيها العرب منذ آلاف السنين وبدأ الأوروبيون فى استكشافها فى القرن التاسع عشر.

ومن خلال وصف عميق، تخرج لنا الصحراء من خلال هذا الكتاب كائنًا عملاقًا متعدد الأشكال والجوانب.. ساحرًا وجذابًا.

وهو . أى الكتاب . يحتوى على مجموعة فاتنة من الصور المدهشة من الطبيعة المتعددة والمتنوعة فى أزهى صورها من رمال وجبال وسماوات.

ويعطى المؤلفان صورة عن الحياة اليومية فى تلك المنطقة قبل ٨ آلاف عام عندما كانت أراضيها خصبة ومأهولة بالفيلة والزراف ثم سكنها البشر الذين قدموا من الأراضى الواقعة على نهر النيل وكان عملهم الرئيسى هو تربية الأغنام.

الآن تغير المكان تمامًا فقد حلت الرمال والجبال وجفت الأنهار وأصبحت الصحراء فاقدة للحياة تقريبًا بالنسبة للبشر باستثناء بعض الواحات.

إن الكتاب يستكشف الصحراء من المحيط الأطلنطى حتى البحر الأحمر كاشفًا عن المناظر المتنوعة فيها فهناك المدن والواحات والناس مثل البدو والبربر والطوارق وغيرهم.

■

Memoirs
(مذكرات)
Douglas Hurd
Little, Brown, 534PP, 2003, £ 20



يُعد دوجلاس هيرد (لورد هيرد حاليًا) واحدًا من أشهر وزراء الخارجية فى بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية.

وكان كثيرون يعتقدون أنه ولد ليكون وزيرًا للخارجية رغم أنه شغل مناصب عديدة فى حكومات المحافظين تحت رئاسة مارجريت تاتشر قبل أن يشغل هذا المنصب فى نهاية عهدها ثم فى عهد جون ميجور.

وقد أطرى النقاد البريطانيون أسلوب كتابة هيرد والقدرة غير العادية على توضيح أفكاره بشكل أدبى جذاب.

لقد كان هيرد وزيرًا لشئون أيرلندا الشمالية ولعب دورًا مهمًا فى توقيع الاتفاق البريطانى الأيرلندى عام ١٩٨٥ والذى كان خطوة أساسية تجاه التوصل إلى اتفاق الجمعة الطيبة بعد ذلك بـ١٣ عامًا.

ثم إنه لعب أيضًا بفضل علاقاته الممتازة مع دول الخليج العربى دورًا كبيرًا فى الجهود الدولية لإخراج صدام حسين من العراق.

إلا أن أهم القضايا التى سيذكرها التاريخ لهيرد هى الحرب فى البوسنة وهى القضية التى تردد هيرد فيها كثيرًا ودفع بالحجة تلو الأخرى لرفض التدخل العسكرى الأوروبى فى وقت كان الصرب يمارسون فيه التطهير العرقى ضد المسلمين وقد تعرض هيرد لانتقادات عديدة، (الأمريكيون على سبيل المثال) لهذا الموقف.

وبالطبع فإن هيرد ليس غبيًا أو شريرًا لكى يقف ضد انقاذ شعب يتعرض للدمار والفناء إلا أن جذور تربيته وثقافته كان لها التأثير الكبير فى موقفه هذا فهو مسيحى محافظ لديه رؤية متشائمة بشأن كمال الإنسان ومدى أخلاقية أن ترسل قوات لكى تقاتل وتقتل آخرين بدون سبب معقول فى رأيه.

لكن هل الأخلاق تسمح بأن يظل العالم يشاهد عمليات القتل تجرى ضد فئة معينة فى البوسنة دون تدخل.

وهل كان من الأخلاق استمرار تزويد الصرب بالسلاح فى وقت يواصلون فيه القتل والتطهير العرقى؟

■

National Service
(خدمة عامة)
Richard Eyre
Bloomsbury, 440PP, 2003, £18.99



يتناول هذا الكتاب يوميات المؤلف الذى عمل مديرًا للمسرح القومى الإنجليزى فى الفترة من ١٩٨٧ . ١٩٩٧.

وإذا كان الإنجليز يفتخرون بشىء حتى الآن من تراثهم العريق فإن المسرح القومى يأتى بالطبع فى المقدمة، وهو ظاهرة تكاد تكون فريدة فى عالم غلب عليه القطاع الخاص الذى امتد إلى كل شىء تقريبًا.

وخلال الكتاب يحاول المؤلف أن يرد على أسئلة عديدة تتبادر للأذهان حول دور المسرح القومى فى عالم اليوم.

وهو من خلال الموقع الذى شغله والأعمال التى كان يقوم بها. يستطيع أن يعطى إجابات مقنعة لتلك الأسئلة.

وبالإضافة إلى عمله فى الإخراج واختيار المسرحيات فإن المؤلف تعين عليه أن يوازن بشكل صارم بين ميزانيات المسرحيات ويعالج مشاكل عديدة أبرزها دعم إنتاج بعض المسرحيات والإشراف على ما يزيد على ٨٠٠ موظف.

ولكونه شغل وظيفة عامة فإن ريتشارد آير لديه ملاحظات جديرة بالتسجيل حول السياسات العامة ومدى تدخلها فى شئون المسرح.

وعلى سبيل المثال ما هو تأثير الحزبين الكبيرين فى بريطانيا.. العمال والمحافظون على النشاط الفنى.

ثم يتناول المؤلف قضية المسرح والملكية فيتحدث عن محاولات تشخيص الملكة إليزابيث الثانية على المسرح ورفض بعض الناس لذلك.

كما أنه يكتب عن الملاحظات التى كانت تبديها من حين لآخر الأميرة الراحلة مارجريت شقيقة الملكة والمواقف الطريفة التى كانت تثيرها هذه الأميرة.

وبالتأكيد لا يترك المؤلف صغيرة أو كبيرة حدثت خلال إدارته للمسرح القومى فى إنجلترا إلا وذكرها سواء كانت تتعلق بالممثلين أو الكتّاب أو المخرجين وحتى الموظفين.

■

قـــــراءة ..

لا ســــاميــون.. لمـــــاذا؟!

أين الخطأ..؟ What Went Wrong

هكذا صاح برنارد لويس «اليهودى المخضرم» فى عنوان كتابه المثير للجدل والذى صدر قبل أشهر، ليعظ، بعد أن يصف ويحدد - من زاوية رؤيته بالطبع - مكمن المشكلة، أو «الخطأ» كما اختار أن يسميه، فى عالمنا الإسلامى والثقافة السائدة فيه، طارحاً من الآراء ما تم تبنيه فى نهاية المطاف «هنا وهناك» من كثير من راسمى السياسات، وصانعى الاتجاهات.

السؤال ذاته، وإن كان هذه المرة بلا كتاب ولا ناشر، ولا مروجين للاستنتاجات «هنا وهناك»، أصبح - وإن على استحياء - ومع اختلاف «جذرى» فى الموضوع، مادة لكتابات عدد من المفكرين والأكاديميين اليهود، خاصة خارج إسرائيل، والذين باتوا يسألون - علناً - عن «الخطأ» الذى أدى إلى تعاظم غير مسبوق فى مشاعر «اللاسامية» فى أوروبا - إلى درجة دفعت بحاخام فرنسا الأكبر إلى مطالبة اليهود الفرنسيين - للمرة الأولى ربما منذ نصف قرن - إلى التخلى عن «القلنسوة» التقليدية كغطاء للرأس «حتى لا يكونوا هدفاً لاعتداءات متعمدة»، وهو الأمر الذى تجلى فعلاً، وفى أكثر صوره حدة - حتى الآن على الأقل - فى تفجيرات أسطنبول الأخيرة.

ورغم حقيقة أن ليس كل ما يوصف باللاسامية هو فعلاً كذلك، بعد أن بات «الاتهام» هو سلاح «الإرهاب الفكرى» المفضل لإخافة كل من يتجرأ على انتقاد الممارسات الإسرائيلية، أو يفكر بشكل مستقل - وإن فى إطار أكاديمى - فى إعادة النظر بطروحات إسرائيلية قديمة، إلا أن الراصد للمزاج العام فى أوروبا، وربما فى العالم أجمع، لابد أن يلاحظ نمواً مطرداً لمشاعر العداء لليهود، خاصة بعد أن نجحت الحركة الصهيونية فى إيجاد حالة من التماهى بين «الدولة والديانة»، فبات أتباع الديانة مطالبون - على الأقل فى وعى العامة - بدفع ثمن حماقة «الدولة».

وتشير الأرقام إلى أن السنتين الأخيرتين (٢٠٠٢ - ٢٠٠٣) سجلتا رقماً قياسياً بمظاهر اللاسامية عبر أعمال العنف فى جميع أنحاء العالم، حيث سجلت ٣١١ عملية عنف استهدفت مواطنين أو مؤسسات يهودية، كما تغيرت أيضاً الخريطة التقليدية لمعاقل اللاسامية فى أوروبا، وأصبحت فرنسا وبلجيكا وبريطانيا فى صدارة اللائحة.

أين الخطأ..؟

موجة العداء لليهود حتى قبل تفجيرات أسطنبول دفعت بالسؤال إلى عناوين المقالات ودوائر النقاش فى الصحف والمحافل اليهودية التى شعرت بالقلق.

تونى جوت، الكاتب والجامعى الأمريكى (اليهودى) ذهب فى إجابته إلى حد أثار ضده ضجة ربما لم يكن يتوقعها، حين قال فى «نيويورك ريفيو أوف بوكس» أن إسرائيل باتت دولة تنطوى على مفارقة تاريخية anachronistic وأنها تبدو بصيغتها «العنصرية» تلك وكأنها «خارج الزمان»، والواضح حتى الآن أن المقال ربما نجح فى إلقاء حجر فى بركة أفكار راكدة، عمرها يعود إلى أفكار هيرتزل الأولى قبل حوالى قرن من الزمان.

ربما أتفهم تماماً شعور إبراهام تيروش (اليهودى) عندما كان ضمن وفد سياحى فى زيارة لمتحف أوكرانى قبل سنوات، وأمام صورة ضخمة لبوجدان حملنتسكى، زعيم تمرد القوزاق الذى يقال أنه ذبح اليهود، حين فاجأتهم المرشدة السياحية التى لم تكن تعرف أنهم يهود إسرائيليون بقولها: «أترون هذا الشخص؟ لقد عرف قبل هتلر ما الذى يجب فعله مع اليهود»، لا ينسى تيروش (الكاتب فى «معاريف») هذه العبارة أبداً. ولكنه يعترف فى مقاله قبل أيام أنه، ورغم أن للاسامية جذوراً عميقة فى أوروبا، ورغم أنها «لم تولد أمس» إلا أن موجتها الحالية - كما يقول الكاتب الاسرائيلى - تتغذى ولاشك من الأحداث فى الشرق الأوسط، ومن سياسة إسرائيل فى الموضوع الفلسطينى، فتلك السياسات، تُخرج مشاعر اللاسامية من أغوارها العميقة».

ورغم أن الكاتب الإسرائيلى - وتبرئة لنفسه من تهمة التبرير سابقة التجهيز - حرص على أن يوضح رأيه فى أن «ليس كل مظهر لاسامى هو نتيجة تصرف إسرائيل فى الموضوع الفلسطينى» إلا أنه أراد فى الوقت ذاته للإسرائيليين أن يدركوا أن «ليس كل انتقاد لسياسات إسرائيل هو بمثابة لاسامية، وأن يعرفوا، أو أن يعرف ساساتهم أن التقارير والصور عن قتل النساء والأطفال «فى المناطق»، والفقر والجوع فى مخيمات اللاجئين وتجريف الأراضى وأشجار الزيتون... هذه كلها تتحول إلى «وقود فى محركات اللاسامية»، موضحاً - وهو هنا يعكس تياراً متصاعداً وسط المثقفين اليهود فى الخارج - أن إسرائيل تحولت بأفعالها إلى مشكلة لليهود فى العالم أجمع، مستخلصاً أنه «على إسرائيل أن تغير سياستها حتى لا تلعب لصالح اللاساميين.. عليها على الأقل «الا تبدو مذنبة بهذا الوضوح».

ويعتبر باتير شلغ فى «هاآرتس» أن الأمور وصلت إلى حد الخطر «بارتفاع الأصوات الغربية التى تنفى حق إسرائيل أصلاً بالوجود...» ويتساءل: «كم منا انتبه إلى أن سُدس الإيطاليين (١٧٪) يعتقدون أن إسرائيل يجب أن لا تواصل وجودها كدولة شرق أوسطية». ويعتقد شلغ أنه يتوجب على إسرائيل أن لا تَعفى نفسها من سؤال ذاتها: «لماذا تحدث عملية نزع الشرعية هذه عن إسرائيل الآن بالذات؟ يبدو أن السبب يكمن فى حقيقة أن السنوات الأخيرة لم تكن مجرد جولة أخرى فى الصراع وإنما مرحلة ازداد فيها الشعور بأن هذا الصراع غير قابل للحل فعلاً. إذا كان هذا هو الوضع فقد تحولت المستوطنة اليهودية فى قلب الشرق الأوسط إلى خطر على السلام العالمى».

المعاهد الأكاديمية الإسرائيلية لم تذهب بعيداً، إذ يشير تقرير أعده أحد معاهد جامعة تل أبيب إلى أن السبب فى تصاعد اللاسامية يكمن فى التقارب بين إسرائيل وسياستها وبين اليهود فى أنحاء العالم من جهة، وبين العداء للصهيونية واللاسامية من جهة أخرى.

ويعتبر التقرير أن التقارب بين إسرائيل والولايات المتحدة جعلت من الذين عارضوا العولمة والحرب ضد العراق يصبون مشاعرهم المناوئة لأمريكا فى عمليات مناوئة لإسرائيل.. إن الشعور بأن الولايات المتحدة تتحرك بتوجيه المصالح الإسرائيلية وكأن اليهود يسيطرون على الإدارة الأمريكية جعل من الدولتان تشكلان «محور شر» مقابل «محور الشر» الذى رسمته الولايات المتحدة.

هل تجد هذه الأصوات آذاناً صاغية فى إسرائيل؟ للأسف لا - أو فى أفضل الأحوال ليس بالقدر الكافى. فأربيه إلداد يكتب فى «يديعوت أحرونوت» وليس فى غيرها، معتبراً أن مشكلة إسرائيل ليست فى أنها احتلت أراض «تملكها أصلاً» فى حرب الأيام الستة. فالتاريخ لم يبدأ فى الخامس من حزيران. إن التحدى الحقيقى أمامنا - يقول الكاتب الإسرائيلى - ليس أن نصدق هؤلاء الداعين لإنهاء الاحتلال، وإنما «كيف نستكمل احتلال الأرض كلها، حتى نمنح الأرض كلها للشعب اليهودى، لأنها ملكه، وليست ملكاً لأى شعب آخر فى العالم».

أما ليمور ليفنات وزيرة التعليم فى إسرائيل فتعتبر أن اللاسامية لم تزدهر فى أوروبا إلا لأن الأوروبيين «يحسدون» إسرائيل لكونها دولة قوية وتكنولوجية عظمى!!

أياً ما كان أمر «جدار اللافهم» هذا، فالثابت أن قديماً كان المقصود بـ«اللاسامى» شخصاً يكره اليهود، أما اليوم وفى زمن «الإرهاب الفكرى» فقد أصبحت الكلمة/ المصطلح - إسرائيلياً - تعنى أى شخص «يكرهه اليهود». ولا أدرى إن كان يمكن لهم أن يصموا - بالتهمة ذاتها - يهودياً بارزاً مثل آرثر ميللر صاحب «بعد السقوط» التى مجدت المحرقة لأنه عندما منحوه «جائزة القدس» سجل كلمة قال فيها: «إن قمع الفلسطينيين والمستوطنات فى الضفة الغربية خيانة لمُثُل الإنجيل العادلة» مضيفاً «أن ما بقى من الحلم فى مجتمع تقدمى مسالم فى ١٩٤٨ هو الضد تماماً: مجتمع مسلح يائس على خلاف مع جيرانه والعالم».

أين الخطأ؟!

أيمـــن الصيـــاد



أسطورة الكسل

تأليف الدكتور الطبيب مِلْ لڤِين

Mel Levine, M.D.

عندما نُطلقُ صفةَ الكسل على شخص ما، فإنك بذلك تُصدرُ حُكماً تدين به إنساناً.

الكسل ليس اكثر من اسطورة ــ ومن هنا جاء عنوان هذا الكتاب. فكلُّ إنسان يتوقُ إلى ان يكون منتجاً. ويفضّل كلُّ طفل ان ينجز واجباته المدرسية، وان ينال الثناء على جودتها. كما يود كلُّ إنسانٍ بالغ تقديم مردودٍ يستحقّ عليه الترفيع او زيادة الاجر. ويدخل كلُّ ذلك في إطار السّعي الطبيعي نحو التقدير ورضى النّفس، وهما دافع اساسيٌ قوي. فإذا كان مردود شخص ما منخفضا جدا، علينا الا نلومه او ندينه. بل علينا ان نبحث عن السّبب الذي دمّر مردود هذا الإنسان واعاق ميله الفطري الطبيعي للإنتاج؟. «ثمّة سُبُل بنّاءة تُمكّننا من مساعدة الاطفال والبالغين الذين يعانون من قصور المردود ــ لا بل نستطيع ان نحول دون حدوثه. ولكي نكون فعالين ما امكننا ذلك، علينا ان نفهم ما ينبغي ان يتصف به إنسان ما كي يكون منتجا، وان نتعرّف على نقاط الضعف التي تعترض مسار كثير من الناس.

• ثمن النسخة المجلدة $11.30 • ثمن النسخة بالغلاف $8.70



اسرائيل وفلسطين: الخروج من الرماد

البحث عن هوية يهودية في القرن 21

تأليف مارك إيلِيس Marc H. Ellis

فيما يراقب العالم برعب الاحداث الجارية في فلسطين وإسرائيل: يدرس مارك إيليس، الباحث الامريكي اليهودي، ما يرى انه أزمة في الهوية اليهودية. ففي هذا الكتاب يقدم رؤية عن اليهودية تشهد على حياة أخلاقية في حقبتنا. ومن خلال معالجة الطريقة التي قوضت بها دولة عسكرية هذه المبادئ الاصلية ومؤسسة يهودية متعاونة في امريكا، يقول، هل يمكن ان يكون هناك امل ومستقبل. ففي تطلعه إلى ما وراء ميراث الهولوكوست وتصوير اليهود كضحايا أو جلادين، يصوغ إيليس رؤية جديدة لما يعنيه ان تكون يهوديا اليوم.

• ثمن النسخة بالغلاف $8,70



العولمة والفقراء

تأليف : جِيْ.آر.مانِدل

Jay R. Mandle

يحاول هذا الكتاب ان ينقذ العولمة من اولئك الذين ينتقدونها ويعارضونها بقوة، ومن انصارها الذين ينادون بها ويدافعون عنها. والطرح الذي يعرضه المؤلف يشير إلى ان العولمة تترافق مع النمو الاقتصادي الذي يراه ضروريا لتخفيف حدة الفقر. ومن هذا المنطلق ينبغي تشجيع العولمة. وفي الوقت نفسه يجب على الحكومات، كما يقول المؤلف، ان تتبنى سياسات تنظر في حاجات الذين يقعون ضحية فقدان العمل بسبب العولمة. لهذا يمكن القول إن الكتاب، في رده على خصوم العولمة، يؤكد على الإمكانات الكامنة فيها لتخفيف حدة الفقر، لكنه يوجه النقد إلى المدافعين عن العولمة، الذين لا يقرون بالتكاليف التي تفرضها هذه العملية على الضحايا الابرياء..

• ثمن النسخة بالغلاف $7,5



كيف تبدأ حديثك مع الآخرين وتكسب أصدقاءَ

تأليف دُنْ غابُرْ

Don Gabor

الحديث هو الطريقة الرئيسية التي تمكّنك من نقل افكارك وآرائك واهدافك وشعورك إلى الناس الذين تتفاهم وهو الوسيلة الاساسية التي تعتمدها لبدء الصداقات وتوطيد العلاقات. فإنك عندما تغلق «قناة الحوار» تجعل السبيل إلى اي حوار ومتابعته مشكلة حقيقية. يبيّن الكتاب كيفية فتح «قناة حوار» وضبط إرسالها إلى من تلتقي بهم، كما يقدم طرائق مقترحة تمكّنك من تطوير مهاراتك من خلال حالات هي من صميم الواقع؛ إنها طرائق تستطيع ان تتدرّب عليها وان تكفيها على نحو ينسجم مع أسلوب حياتك وبإيقاع يناسبك. سيتعلّم المديرون الفصل بين لغة العمل والخطاب الاجتماعي. ويتعلّم الآباء والامهات التفاعل مع اولادهم وافراد أسرهم. يقدم هذا الكتاب طرق تساعد في توجيه الحديث والتحكم به في ظروف شتى.

• ثمن النسخة بالغلاف $7,70



وهم التحكم

تأليف سيوم براون

Syom Brown

إن الهيمنة العسكرية الراهنة تنطوي على خطر إغراء امريكا ودفعها إلى الاعتقاد ان القوة قادرة على حل طيف من مشكلات السياسة الخارجية يتسع باطراد. يقدم مؤلف الكتاب وصفا للقدرة العسكرية الامريكية ويشرح أسباب بقاء استخدام القوة مركزيا في إدارة الولايات المتحدة للسياسة الخارجية. ويلقي الضوء على الاسباب التي تلزم الولايات المتحدة التحلي بالحكمة وضبط النفس عند استخدام قوتها الفريدة. إن هذا التحليل المتوازن جدير ان يقرأه المواطن العادي والباحث وصانع القرار السياسي قراءة متأنية وبخاصة اولئك الذين يمسكون بزمام القوة العسكرية الامريكية المنتشرة في اصقاع الأرض.

• ثمن النسخة بالغلاف $8,30


إستلم مفاتيح
سيارة أحلامك
قرض السيارة الجديدة والمستعملة
مع قرض السيارة الجديدة
والمستعملة من البنك العربى
أقل سعر فائدة
نسبة تمويل تصل إلى ٨٥٪
مدة تقسيط تصل إلى ٦٠ شهر
أسعار منافسة للتأمين على السيارة
تأمين على الحياة
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفيّة عربيّة
ARAB BANK
إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٢٢٣٣١٩٩٢٢
يوميًا من ٩ صباحًا حتى ٩ مساءً
www.arabbank.com
RESALA
أحقية الحصول على القروض ترجع إلى شروط وقرارات البنك العربى